

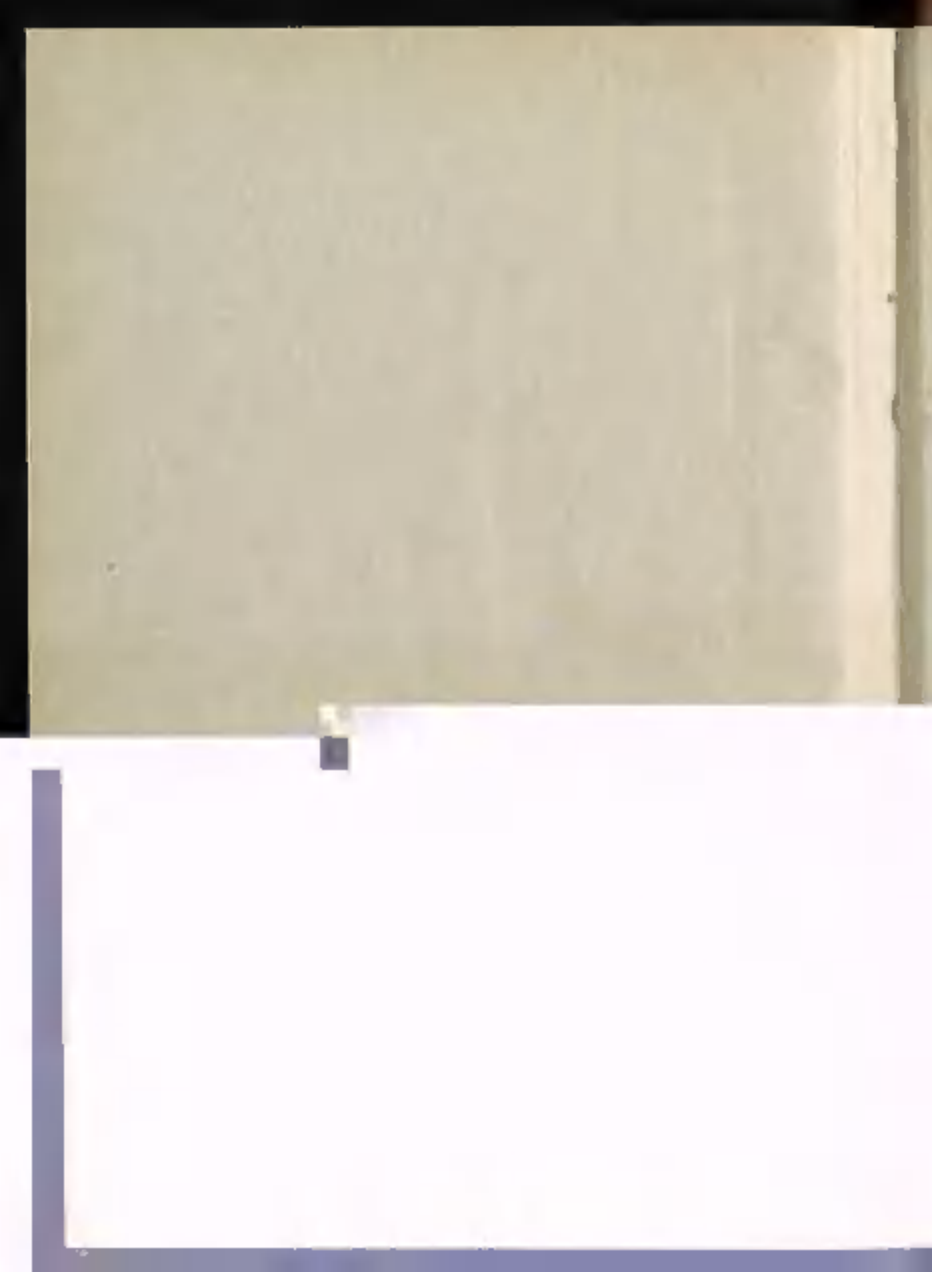
**Columbia University
in the City of New York**

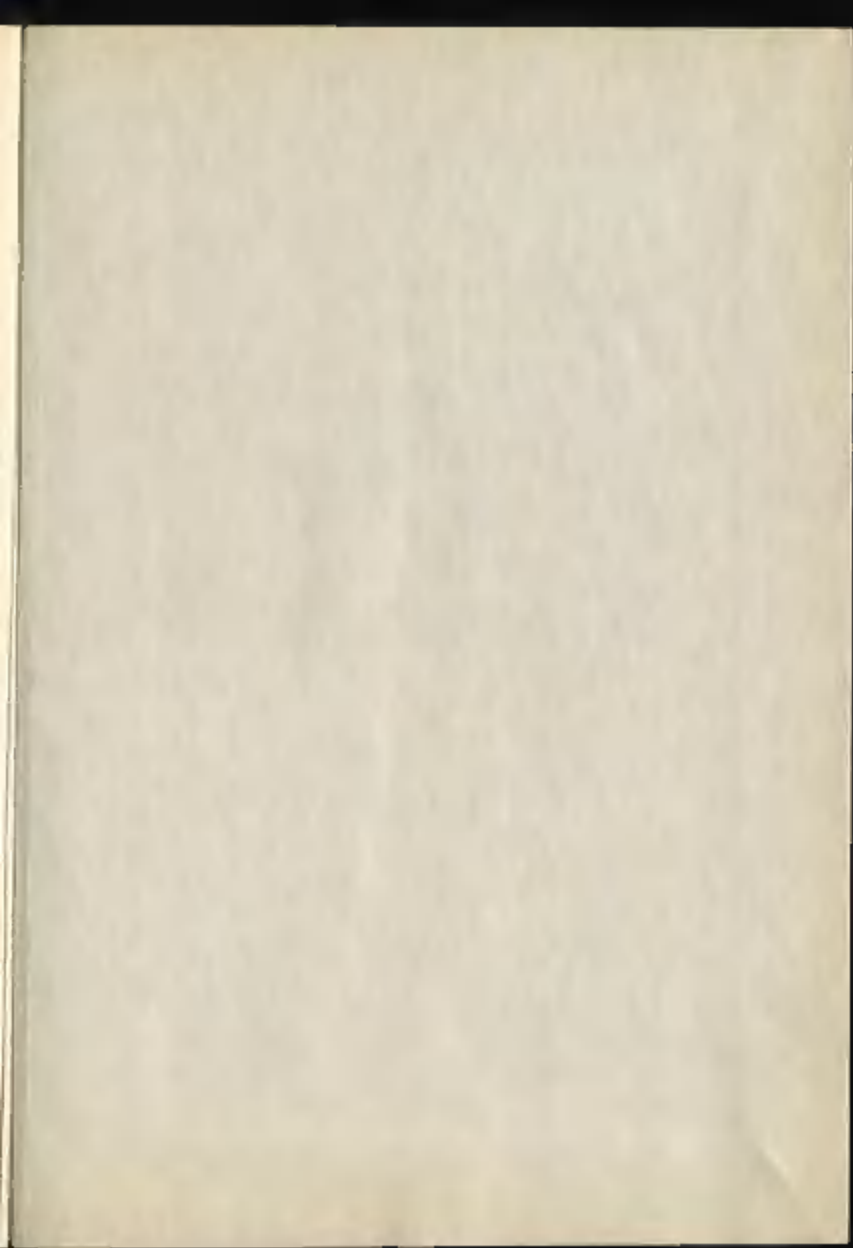
THE LIBRARIES



GIVEN BY

Delegation for Education &
Culture in Spanish Morocco









المندوبية السامية الاسبانية بالمغرب
نيابة الامور الوطنية

مكتب الترجمة الاسبانية - العربية

سرفانطيس
امير الادب الاسباني

بقلم الاستاذين

نجيب ابو ملهم - موسى عبود



مطبعة المخزن - تطوان

1947

SLC 33

BM4

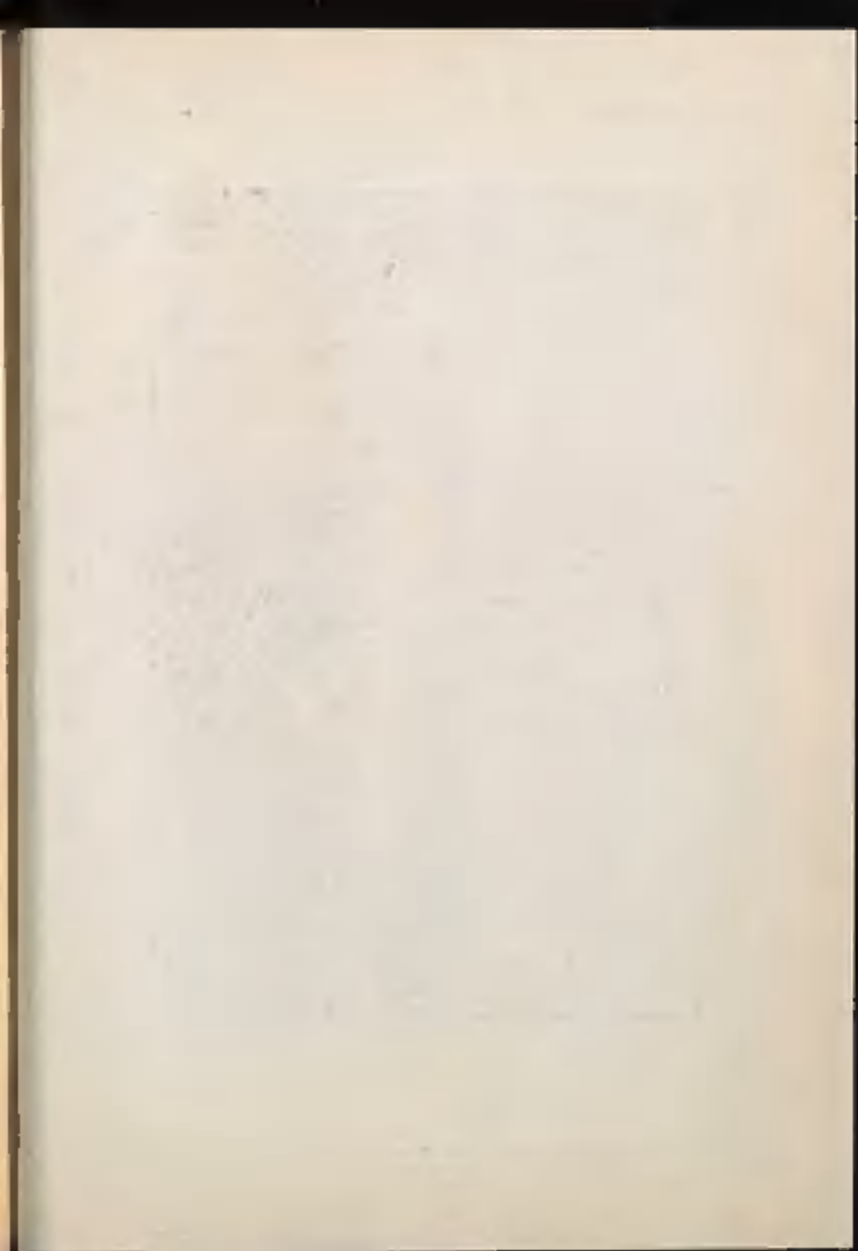
610

Collection of Collection
and author of Spanish
manuscript

MAY 4 1949



سر قاضی



ملك اليراع بمطق الاسبان
شرف يكلل مفرق الاوطان
قد غصت في لجج الحياة مسمرًا
ونشلت درا حافلا بمعاني
وجسست من هذي السرية متبضا
نبضاته غابت عن الاقران
ياذا البصيرة والبلاغة والنهي
هذا مقامك في بني الانسان



مقدمة

لا نكتشف مجهولا اذا قلنا ان الشعب الاسباني كان في غابر الزمان احصر الشعوب اتصالا بالعالم العربي وان اسبانيا العربية كانت الصلة الوحيدة بين الشرق والغرب وغير خفي على احد ان لغة العرب وادبهم تركا في اللغة والادب الاسبانيين من الآثار ما لا يشاهد في لغة وادب اية امة اخرى. كما ان الادب العربي الاندلسي اقتبس من البيئة الاسبانية صبغة خاصة بحيث يستحيل احيانا فهمه على القارئ الشرقي الذي يجهل تلك البيئة جغرافيسها وتاريخها. وبالرغم من هذا التماسك والتقارب بين اللغتين والادبين يمكن الجزم بان الادب الاسباني اقل الاداب الاوروبية انتشارا في الاقطار العربية وان تاريخ الادب الاسباني يكاد يكون مجهولا كل الجهل حتى بين اعلى الطبقات العربية المثقفة.

قال تلافى هذه الوضعية فرمي بسلسلة المؤلفات والترجمات التي تؤمل نشرها لننقل الى اللغة العربية اعين المؤلفات الادبية الاسبانية على مر العصور ولنترجم

لمؤلفيها ونعرف بتطور الحركة الادبية والفكرية في
اسبانيا حتى يومنا هذا.

وهو لعمري مشروع خطير واسع الارجاء وعر
المسالك لكننا اقدمنا عليه بجرأة متكلين على الله راجين
منه العون والتوفيق.

وقد آثرنا ان نبدأ المشروع بهذا الكتاب الذي
هو ترجمة لسرفانتيس ودرس مسهب لمؤلفاته لسبيين:
اولا لان سرفانتيس علم من اعلام الادب العالمي وامير
الادباء الاسبان على الاطلاق فمن حقه ان يقدم على
الآخرين. وثانيا لانه يحتفل في هذه السنة بالذكرى المئوية
الرابعة لمولده. وقد نظمت الامة الاسبانية وبلدان اميركا
الجنوبية حفلات ومهرجانات فخمة بهذه المناسبة. فكان
حقا علينا ان نخرج هذا المؤلف ليكون بمثابة مساهمة
عربية في تكريم امير الادباء.

تطوان (المغرب) ابريل - يوليو 1947

المؤلفان

the 1990s, the UK has been the only country in the world to have a significant increase in the number of people aged 65 and over. The number of people aged 65 and over in the UK has increased from 5.5 million in 1981 to 6.5 million in 1996, an increase of 18% (Office of Population Censuses and Surveys 1997). The increase in the number of people aged 65 and over is expected to continue, with the number of people aged 65 and over in the UK projected to increase to 8.5 million by 2011 (Office of Population Censuses and Surveys 1997).

The increase in the number of people aged 65 and over has led to a corresponding increase in the number of people aged 65 and over who are living alone. The number of people aged 65 and over living alone in the UK has increased from 1.5 million in 1981 to 2.5 million in 1996, an increase of 67% (Office of Population Censuses and Surveys 1997). The increase in the number of people aged 65 and over living alone is expected to continue, with the number of people aged 65 and over living alone projected to increase to 4.5 million by 2011 (Office of Population Censuses and Surveys 1997).

The increase in the number of people aged 65 and over living alone has led to a corresponding increase in the number of people aged 65 and over who are living in care homes. The number of people aged 65 and over living in care homes in the UK has increased from 0.5 million in 1981 to 1.5 million in 1996, an increase of 200% (Office of Population Censuses and Surveys 1997). The increase in the number of people aged 65 and over living in care homes is expected to continue, with the number of people aged 65 and over living in care homes projected to increase to 3.5 million by 2011 (Office of Population Censuses and Surveys 1997).

The increase in the number of people aged 65 and over living alone and in care homes has led to a corresponding increase in the number of people aged 65 and over who are living in residential care. The number of people aged 65 and over living in residential care in the UK has increased from 0.5 million in 1981 to 1.5 million in 1996, an increase of 200% (Office of Population Censuses and Surveys 1997). The increase in the number of people aged 65 and over living in residential care is expected to continue, with the number of people aged 65 and over living in residential care projected to increase to 3.5 million by 2011 (Office of Population Censuses and Surveys 1997).

The increase in the number of people aged 65 and over living alone and in care homes has led to a corresponding increase in the number of people aged 65 and over who are living in residential care. The number of people aged 65 and over living in residential care in the UK has increased from 0.5 million in 1981 to 1.5 million in 1996, an increase of 200% (Office of Population Censuses and Surveys 1997). The increase in the number of people aged 65 and over living in residential care is expected to continue, with the number of people aged 65 and over living in residential care projected to increase to 3.5 million by 2011 (Office of Population Censuses and Surveys 1997).

The increase in the number of people aged 65 and over living alone and in care homes has led to a corresponding increase in the number of people aged 65 and over who are living in residential care. The number of people aged 65 and over living in residential care in the UK has increased from 0.5 million in 1981 to 1.5 million in 1996, an increase of 200% (Office of Population Censuses and Surveys 1997). The increase in the number of people aged 65 and over living in residential care is expected to continue, with the number of people aged 65 and over living in residential care projected to increase to 3.5 million by 2011 (Office of Population Censuses and Surveys 1997).

The increase in the number of people aged 65 and over living alone and in care homes has led to a corresponding increase in the number of people aged 65 and over who are living in residential care. The number of people aged 65 and over living in residential care in the UK has increased from 0.5 million in 1981 to 1.5 million in 1996, an increase of 200% (Office of Population Censuses and Surveys 1997). The increase in the number of people aged 65 and over living in residential care is expected to continue, with the number of people aged 65 and over living in residential care projected to increase to 3.5 million by 2011 (Office of Population Censuses and Surveys 1997).



توطئة

هيا بنا ايها القارئ العزيز لمرجع القهقري الى سنة 1547 فنجد على عرش اسبانيا ذلك العاهل العظيم الذي يحمل فوق جبينه في آن واحد تاج اسبانيا وتاج الامبراطورية الالمانية ذلك الذي خلد التاريخ ذكره تحت اسم كارلوس الخامس.

ها هو ذا الامبراطور الكبير يتقل في الربوع الالمانية لايعرف للكل الى جسمه سيلا ولا لئياس الى نفسه منفذا. وها هي يده الحديدية لاتني عن ملاحقة المبتدعين الذين اتخذوا لنفوسهم لقب المصلحين وعرفوا فيما بعد باسم البرويستانت.

اجل! ان مؤسس البدعة لوثير كان قد انسحب من الميدان لكنه ترك وراءه برصانا متفجرا لم تخذ نيرانه وصدا في الدين لم يسد وبابا للحرب لن يغلق. وها هو ذا الامبراطور منذ ان تقلد العرش وحسامه لم يزر شمه يحدوه الى هذا الصراع الجبار امل مكين في قطع دابر البدعة لتبقى امبراطوريته الواسعة الاطراف متماسكة الاجزاء موحدة العقيدة.

والى جانب هذا الشغل الشاغل نشأ خطر آخر اقض على العاهل العظيم مضجعه. الا وهو خطر الاثراك فان السلطان سليمان القانوني كان قد وسع ممتلكاته الاوروبية واحتل بلغراد وبلاد المجر وبالرغم عن امتناع فيينا عليه فقد اصبح سيفاً مصلتاً على الامبراطورية الالمانية لا يؤمن شره ولا يعرف من أين يسدد الطلعة. ولم يقف الخطر التركي على البر فان الاساطيل العثمانية كانت تمخر عباب البحر المتوسط وتزداد يوماً بعد يوم عدداً وقوة وجراً في مهاجمة الاساطيل والمسلحات الاسبانية. وبلغت بها الجرأة الى مهاجمة الشواطئ الاوروبية نفسها من حيث كان يحمل القرصان غنائم واسعة واسارى عديدين يبيعونهم فيما بعد في اسواق الرقيق في الجزائر والقسطنطينية. فالخطر التركي كان اذاً على كارلوس الخامس مزدوجاً: في البر على ممتلكاته كامبراطور المانيا وفي البحر على اساطيله وممتلكاته كملك اسبانيا.

وبالرغم من انتصار كارلوس الخامس على المبتدعين في معركة «مولهبرغ» وعن اتساع الممتلكات الاسبانية التي كانت تشمل في الشمال بلاد فلانديس وويقوم

مقامها اليوم البلجيك وهولندا) وفي الجنوب مملكة نابولي وصقلية في ايطالية ومعظم جزر البحر المتوسط. وفي اميركا والشرق الاقصى تمتد حتى اليابان بحيث امكن ابنه فيليب الثاني ان يقول بحق ان الشمس لا تغيب عن ممتلكاته بالرغم من هذا كله كانت دلائل السقم قد اخذت تبدو في افق اسبانيا وشرع العدو ضرب حولها حصارا لن تلبث ان ترى نفسها فيه اسيرة. فمعركة مولهرغ من جهة لم تسفر عن النتائج التي كانت ترجى منها في بادى الامر في استطال سافة البدعة وادا بهذه ترفع رأسها بعد الهزيمة بعزم امضى وهمة اشد. ومن جهة اخرى عاد الخطر التركي الى الميدان وقد استفحل شره وجاوزت كل حد جرأته فاصبحت تقتحم مراكبه السواحل وتدخل قرصانه خليج قادس ومرفأ اشبيلية فتأسر المراكب الاسبانية وتذهب بها غنيمة باردة. وفي الشمال بدأت بوادر الفتنة في فلانديس ومن وراءها بريطانيا العظمى والمستدعون في ألمانيا. اضيف الى هذا كله سياسة هنري الثاني ملك فرنسا الذي كان يعمل في الخفاء مع اعداء كارلوس الخامس. وفي الاخير يجب ان لا ننسى خطراً آخر بدأ

نجمه يتألق في سما الشمال تعني به انكفرتا التي كان سلطانها على نمو مطرد ولن نلث ان تصبح الخطر الاضبر على السلطان الاسباني.

فهذه الاخطار كلها تصدت لكارلوس الخامس. وان يكن قابليها نعره الثابت وتعذب عليها كلها فان نفسه كانت الى الراحة قد اخذت نبل وقلبه الى الهدوء يستكن ولم تكن اسانيا الى الراحة والهدوء باقل ميلا من عاقلها العظيم. لان الجهاد المتواصل سنة تلو سنة في المانيا وفلانديس في ايطاليا وحزر البحر المتوسط في الجزائر ونونس ووعران في اميركا والشرق الاقصى قد استنفد قوى الامة وعصرها عصرا. فاصبحت ترنو بطرف الاشتياق الى السلم والهدوء مكنتية من الماضي المجيد بذكراه الخالدة فتحييها في قصصها وانشيدها. وما ذلك الاستقبال الفخم الذي احاطت به مقدم ايزابيل دي فالوا بعد ذلك بسنوات حين تزوجت بالملك فيليب الثاني الا دلالة قاطعة على اشتياق الامة الى الهدوء والسلم لما يفرضه ذلك الزواج من وثام بين الامتين وذلك ما حملهم على منح الاميرة الفرنسية لقب ايزابيل حاملة السلم.

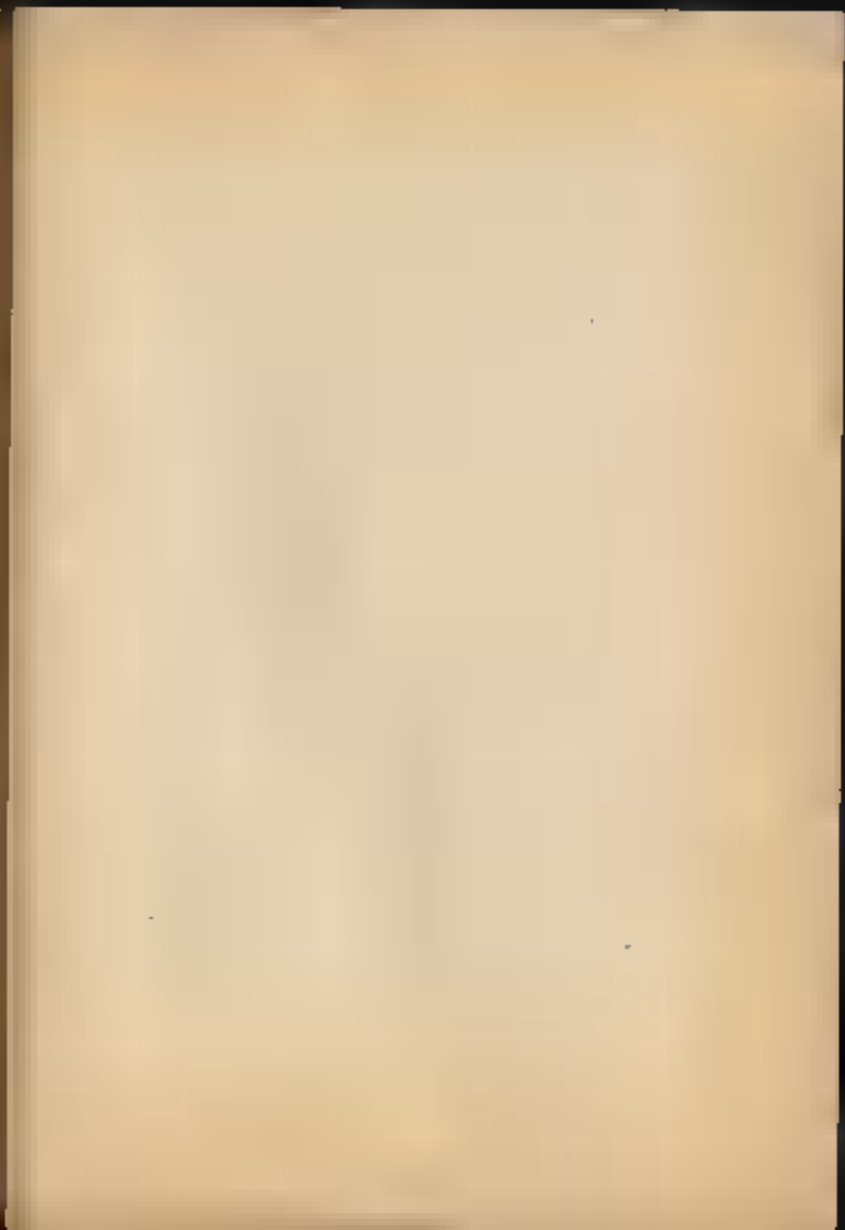
ومجمل القول ان النصف الثاني من القرن السادس عشر هو فترة الانتقال في تاريخ اسبانيا فترة تطوى فيها صفحة العهد المجيد وبدأ في نهايتها عهد الانحطاط مرة كمثل فترة الانتقال من محمدا الى هوان يكثر فيها الساقطون ويقل ذوو النفوس الرفيعة والهمم الشما فترة تنقلب فيها السمايات والاعوا الخاصة على مصالح الدولة ومنافع الامة وتختلق في جوها الفاسد تلك القلوب الكبيرة التي تعد على الامايح هذه القلوب التي قبض الله لها ان تسامر الماضي المجيد في عظمتها وترفع عن الحاضر الدليل في سفالته فتحا بين بينها كأنها عنها غريبة وفي مجتمعها وكأنها منه بعيدة لاتلين قناتها لغنى مزوج بنفاق ولا لعلو تسنده خيانة

ومن هذه القلوب الكبيرة التي عاشت في ذلك النصف الثاني من القرن السادس عشر امير ادنا الاسبان واحد نواب الإنسانية جمعا ميعيل دي سرقانتيس سافيدرا.



القسم الاول

حياته



الفصل الاول

أين ولد سرفانطيس؟

مسألتان حام حولهما الخلاف بين المؤرخين: أين ولد سرفانطيس ومسى ولد. وقد اصر الباحثون في الكلام حول هاتين القضيتين واستبعوهما درسا واستقرت أبحاثهم عن رأي يكاد يكون مؤكدا في كليهما

أما البلدة التي اصر النور فيها كاتبنا فهي حسب هذا الرأي مدينة قلعة هنارس وقد نازعتها هذا الحق سبع بلدات أخرى اضل على دعواها حجج وهي:

اسكيفيا بدعوى ان سرفانطيس نفسه وصف هذه البلدة بأنها شهيرة وانشيطة وقد حمل لواء دعواها الاديب الشهير نقولا انطونيو وحججه ان اسمي سرفانطيس وسافيدرا هما اسمتا عائلات انشيلية. وان كاتبنا اصر في كتابه الروائي والتمثيل لوبي دي روبدا، يمثل مسرحياته في انشيلية. لكن هذه الحجة الواهنة تنهار أمام الأدلة القاطعة التي قدمها المؤرخون الحداث على ان لوبي دي روبدا انما كان ينتقل في مدن قشتالة حين كان سرفانطيس لم يزل في عهد الصبا ونازعتها بلدة لوبينا ولا سند لها على دعواها

سوى استورة تناقلها اهلها خفا عن سلف لا يؤيدها
رهان ولا تدعها بيعة.

وزعم آخرون أن مسقط رأس سرفانتيس مدينة
مدريد، ولا دليل يؤيد هذه الدعوى سوى رأي لوبي
بي فيغا وغيره من معاصري كاتبنا ونسبية سرفانتيس
اها بوطنه في مولفه الشعري رحلة البارناس . وقد
دلت اصحاب هذا الرأي ان الكتاب اما ضمن هذه
الكلمة في مولفه المذكور معنى محازبا لما اوضح ذلك
في غير ما مقطع من المؤلف نفسه

وهناك من يزعم انه ولد في بلدة كونسويبرا ومن
دعي انه ابصر النور في مدينة خليطلة . لكن كلا
الرأين ضعيف واه لا يستند على حجة نائنة .

وكان فريق آخر يزعم انه ولد في بلدة الكاسار
ني سان خوان وله على دعواه حجة قوية . لكنه ظهر في
الربع الاخير من القرن الماضي ضعف هذه الحجة وفسادها .
وهكذا انتهى الخلاف بين البلدات السبع بانتهيار
دعواها كلها . وقد اصبح الآن كما قدمنا من الصحيح
الثابت الذي لا يقبل النزاع ولا الجدل ان كتابنا ولد
في مدينة قلعة هنارس .

قلعة هناريس

تقع هذه المدينة على الضفة نهر هناريس على ثلاثة وثلاثين كيلومترا من مدريد. وقد لعبت في تاريخ اسبانيا الثقافي دورا خطيرا بفضل جامعتها الشهيرة التي اسسها الكردينال سيسبروس سنة 1498 وفتحت ابوابها لقبول الطلاب سنة 1508. وكانت خلال القرن السادس عشر الى جانب جامعة سلنكة او ملمنكة كما سميها العرب من اهم الجامعات الاوروبية. وقد ظلت مرضا ثقافيا ذات قيمة حتى سنة 1836 اذ نقلت الى مدريد.

ففي هذه البلدة الصغيرة بمساحتها وعدد سكانها العظيمة سرورها واثرها في يوم من سنة سبع واربعين وخمسة الف لم يعرف بالضبط وانما يرجح انه التاسع والعشرون من شهر سبتمبر (الاول) ولد ميغيل دي سرفانتيس سافيدرا. وفي التاسع من شهر اكتوبر اثنى عشر (الاول) عمدي كنيسة القديسة مريم الكبرى كما يستفاد من سجل العمادات الذي لم يزل محفوظا في تلك الكنيسة وبواسطته امكن الجزم بان سرفانتيس ولد في مدينة القلعة.

اما الذي حمل المؤرخين على تعيين التاسع والعشرين

من سبتمبر تاريخاً لولادته فعلى العادة التي ألفها الاسبان
 بتسمية المولود باسم القديس الذي خصص له في التقويم
 يوم ولادته. فتسمية كاتينا باسم ميغيل. انما تعود اذا
 لولادته يوم عيد القديس ميغيل (او ميخائيل) وبه
 يحتفل في ذلك من الشهر المذكور.

عائلة سرفانطيس

كان والد سرفانطيس واسمه ضون رودريغو طبيباً يتعاطى مهنته في مدينة القلعة. وفي سنة 1541 تزوج من ضونيا ليونور كورنياس ورزق منها سبعة اولاد نخص بالذكر منهم فضلاً عن معلم اخاه رودريغو المولود سنة 1550 واخيه اندريا ولودرا المولودين الاولى سنة 1551 والثانية سنة 1556.

ولم تكن ضون رودريغو موفقة في مهنته. فكانت عائلته تعيش في حالة الى الفقر اقرب منها الى اليسر. وفي هذا الجو العائلي المعطى بعموم الفقر وسحب الحاجة قضى مئغيل سني قومه حتى قارب الخامسة عشرة من عمره. وفي هذه السنوات تردد على مدارس القلعة وحصل فيها العلوم الابتدائية ومنها من الادب واللغة اللاتينية والعلوم التي كانت تدرس في ذلك العهد.

وكان من المتفوقين في الدراسة يشار اليه بتوقد الذهن وقوة الادراك ودقة الملاحظة والرغبة الشديدة في الاخلاص على ابواب المعرفة قوي الميل الى الشعر والمسرح كما تبرهن ذلك مراراً فيما بعد في شبر واحد من مؤلفاته.

في اشبيلية

في احد ايام الربيع من سنة 1561 اذا بالفتى
مغيل دي سرفانتيس يصل الى مدينة اشبيلية بصحبة
ابيه واخوته. فان حديق العيش وعسر ذات اليد في القلعة
نما بطون رودريغو الى هذا الانتقال عسى ان يجد في
عاصمة الجنوب بابا للبرق اضرب اساعا ومجالا للعمل
نفسى وانفع.

فقد كانت اشبيلية في ذلك العهد مدينة زاهرة نامية
واسفن بين اميركا الحديثة الاكشاف والاندلس لا تخرج
من شباب البحر المحيط جبهة ودهانا ومرساها في الغالب
اشبيلية. وهذا الاتصال في ميدان السعة واشدق على
التيمة سوانع النعمة قست التجارة وازدادت الثروة
وازهزت الاداب والفنون بحيث كانت تعبر بحق من
اهم العواصم الاسبانية ان لم نقل اهمها على الاطلاق.
فلا عجب ان يغد اليها ضون رودريغو دي سرفانتيس
وفي نفسه امل بان تنسب له فيها الثروة فيزدهر حاله
مسايرة للبيئة الجديدة.

وبالرغم عن ان حالة ضون رودريغو المالية لم

تتحسن فانه لم يحجم عن ارسال ابنه ميغيل الى خير مدارس اشبيلية. وكان الابا اليسوعيون قد فتحو سنة 1554 مدرسة يتلقى العلوم فيها ابنا الاشراف والاعيان. ففيها تلقى كتابنا بعض الدروس العليا. وقد اثر في نفسه تأثيرا عميقا ما كان هؤلاء الاساتذة يمتازون به من عناية واخلاص ونضحية في التدريس. فذكرهم في كتابه محاوراة الطلاب بالنسبة والمدح اذ قال: ومما يستلفت النظر ما كان يفدقه هؤلاء الاساتذة والابا المبارضون من محبة وعطف ورعاية وعناية في تعليمهم اولئك الصبيان فيقومون غصون ساقهم لئلا نعوج او تضل عن طريق المضيلة التي كانوا يدلونهم عليها الى جانب طريق المعرفة.

وفي هذه المدرسة تعرف ميغيل الى بعض الفنانين من نخبة المصنع الاشبيلي. ومن الراجح ايضا انه تعرف هنالك بسانتو فاسكيس الذي اصبح فيما بعد كاتب اسرار الملك فيليب الثاني.

وفي اشبيلية شاهد تمثيل روايات المؤلف الشهير لوبي دي رويدا مؤسس المسرح الاسباني. فنبهت في نفسه حسبا يقال ميلا الى الفن المسرحي.

وفي اشبيلية ابصر الحياة على حقيقتها واختلاف
الوانها ومظاهرها. وفيها اشرم بالبحر وعظمته ومغامراته
واحس برغبة ملحة في ان يلمس بيده هذه الحياة التي
طالما سمع البحارة يتحدثون عنها في تنزهاته العديدة
على ضفاف الوادي الكبير.

مدريد

لم تبسم لظنون روعديعو آلهة الثروة في اشيلية
 كما كان يؤمل يوم أمها متفائلا. وها هو بعد أربع
 سنوات بجر ثمار الحنية والفشل فيلم آماله المعنرة ويحول
 وجهه شطر مدريد سعيا وراء حظ أكثر اقرارا لغيره.
 وضانت مدريد قد أصبحت منذ مدة قريبة قاعدة
 الملكية فقتلعت في طريق العمران شوطا بعيدا واخذت
 تمند وتوسع فوق الهضاب التي تنساب بينها مياه نهر
 مانساريس. فهاهنا عن شوارع جديدة تفتح مستقيمة
 وسريعة في كل جهة وشوارع قديمة تمتد وخنادق بطمر
 وشبابات كثيفة تقوم مقام اشجارها الماسقة اديار وقصور.
 وفوق هذه المدينة الحديثة تعلو مراحل الحياة المتقدمة
 فمن حفلات نقام ومجالس ادب تعقد ونواد تنشأ
 ومسارح تفتح. فالحياة الادبية تدفقت من كل فج ومسوب
 على العاصمة. واصبحت تشد اليها الرحال من سائر
 المقاطعات حتى كبرت بسرعة غير مألوفة.
 فالى هذه المدينة الناشئة وحل كتابنا وهو في
 العشرين من عمره بصحبة ابيه واخوته. وفيها سمع دروس

الاستاذ فرانسيسكو دى بايو. في النحو. ولكن هذا لم يلبث ان مات قبل محله الاستاذ خوان لوبيث دي اويوس. واتصل به سرفانتيس اتصالاً وثيقاً. وقرأ عليه وكان من المبرزين وكان لوبيث دي اويوس يسميه بالتلميذ العزيز الحبيب.

لكن ثقافة سرفانتيس كانت ناقصة لو قيست بثقافة الطبقة المفكرة من رجال عصره ولذلك التقص سيان: حياته المنقلة وعدم استقراره الداخلي الذي لم يكن لينجح له ان ينقيد بمرامح دراسة لاتوافق مزاجه النفسي. ولايستفاد من هذا انه كان كسولاً! لا فقد قال عن نفسه انه كان يقرأ حتى الاوراق الممزقة التي يعثر عليها. لكنه كان يقرأ ما نجد فيه نفسه لذة. وبنوع خاص كان يقرأ في كتاب الحياة الذي اصبح مفتوحاً امام ناظره فاني القاها ان على الناس وان على الطبيعة التي تحيط به تلقى درساً جديداً في الحياة.

وفي مدريد اتصل سرفانتيس بطائفة من الشعراء الشباب الذين كانت العاصمة تعج بهم آنئذ وسيصبحون فيما بعد نجوماً تتألق في سماء الادب والشعر. فألم نواديهم وحلقاتهم واستمع الى منظوماتهم وشاظرهم لذة السمر وحلاوة الحديث

الانتصار الاول

في اواخر سنة 1568 قطفت يد المنون زهرة حياة الملكة ايزابيل دي فالوا ولما تجاوز اثنين وعشرين ربيعا. فجاءت وفاتها طعنة نجلا في صدر الملك فيليب الثاني الذي كان يكن لها اسى وانبل عواطف الحب وقد برهن عن ذلك باوضح بينة ابان مرضها فكان لا يفارق سريرها ويعتني بها بنفسه ويقدم لها الادوية بيده فتركت بموتها في نفسه فراشا لن يسد وحزنا لن يمحي. وعاد العيوس يخيم على البلاط الملكي واطلت من جديد سحب الكآبة والقلق بعد ان غاب ذلك النجم البسام الذي حيته الامة الاسبانية جمعا لثمان سوات خلت باسم اميرة السلم. وانهار امل الامة في استمرار الطمأنينة في علاقات الدولة الخارجية.

وبهذه المناسبة خلف الكرديبال ضون ديفغو دي اسبينوثا - وهو اذاك رئيس المجلس الملكي - الاستاذ لوبيث دي اويوس استاذ سرفانطيس ان يكتب سيرة مرض ووفاة مولانا ضونيا ايزابيل دي فالوا ملصقة اسبانيا مع المراثي التي قيلت فيها. وقد ادرج الاستاذ

في هذه المجموعة مرثية قيد تحبها انما من نظم تلميذه
 الحبيب وهو اللقب الذي كان يشير به الى سرفانطيس.
 ولاقت منظومة كانسا نجاحا كبيرا. فقابلته رفقاؤه
 بالتهنئة والاضرام واستاذبه بالثناء والتضجير. ومما هو
 اقطع واخطر ان هذه المناسبة فحت امامه بابا للمعامرة
 في طريق المستقبل المجهول.

ايطاليا

كان سرفانتيس يقطف باصورة الانتصار في ميدان
الادب حين قدم مدريد الايطالي خوليو اصوافيفا
ارافون فعل الدوكي دي اري الذي اصبح فيما بعد
كردينالا. وقد جاء مبعوثا من جانب البابا شهرة رسمية
لدى الملك فيليب الثاني

وصان خوليو اصوافيفا ينسب الى احدي
العائلات الشهيرة في ايطاليا وينحدر من سلالة هؤلاء
الذين كانوا فيما مضى سرفانتيس في ايطاليا ابا
النهضة وقد اخذ بوزهم يكمن في هذا العهد لكنه كان
من حلقه هؤلاء الامراء الذين يعمون بان يعاطوا بالادب
والشعرا والحنانين فيغدقون عنهم حمايتهم ونعمهم فقبل
ان يغادر مدريد احب ان يستسفر عن احوال ادبائه
وشعرائها الشباب ويستصحب بعضهم الى بلاطه فلا غرو
اذا ان يقع اختياره على سرفانتيس الذي كان حينئذ
في اوج الانتصار على اتر مرتين. ولعل الكردينال ضو
ديغو اسبيونافسه هو الذي عرف خوليو اصوافيفا

ثم ولم يتردد كاتبنا في قبول الدعوة بل وجدها فرصة
منحة اتاحها له القدر ليتعرف الى عالم احلامه .

وقبل ان تنتهي سنة 1968 كان سرفانتيس يغادر
التراب الاسباني وفي القلب حسرة على ما يخلقه ولهفة
على ما سيلقاه ثم على ما يودعه واشتياق الى ما سيقبله .

اجل ! ودع سرفانتيس اسبانيا وقد رآها ضيقة امام
خسوحه الواسع وصغيرة امام آماله العظام وسار وفي
النفس امان كبار يود ان تتحقق في عالم الغربة الفسيح
الارجا فيعود الى وطنه مطفرا مكثلا باضاليل الغار
والعظمة . غادر سرفانتيس اسبانيا كما غادر ذات يوم
الله ضون صيحوطي - على حد قول احد مؤرخيه -

قربته ساعيا وراء عظمة خفية ومستقبل مجهول لاقى فيه
ندلا من العز والعظمة انواعا من الضيم واصنافا من
الآلام . وفي هذه الرحلة زار مدينة بلنسية وطرثونة
وبرشلونة وجنوب فرنسا . ثم عبر جبال الالب وبلغ مدينة
ميلان اولا وبعدها روما .

وما هو ذا كاتبنا في بلاط الامير حيث كان يؤمل
ان يرى العظمة منه على قارب فوسين . لكن تلك العظمة لم
تكن سوى حلم من الاحلام احل في ذهن سرفانتيس مقام

الحقيقة. وسرطان ما تعدد هذا الحلم امام نقطة الوصول
 فان الامير اضوايقنا بعد ان حل في قصره وانصرف الى
 اتساله لم يعد يعرفه كثير اهتمام وبقي سرفانتيس واحدا
 من جملة ذلك العدد الوافر من الفئان ابنا العائلات
 النبيلة الذين نصح بهم بلاط الامير وكلهم يتسابقون الى
 خدمته وتنفيذ اوامره ولم يكن كاتبنا باعجلهم الى ذلك
 فلا عرو ان يسري الى نفسه شي من الحيرة ويستحوذ
 الاسى على قلبه ونهار ذلك البينان الرفيع الذي اقامه
 من امان مذهبة واحلام مرصعة لكن نفسه لم تكن
 لترضع الى هذا الحمول ولا لتسكن الى هذا النسيان فما
 ضاد بنهار صرح آمالها حتى سرعت باقامة صرح جديد
 لما تبين لها مدى ارتفاعه لكن اساسه في اعماقها قائم
 وتلى نبضات قلبه مستند.

ذلك الاساس هو الجيش . . .

سرفانتيس جندي في جيش ايطاليا

ودع سرفانتيس قصر الامير لينخيرط في الجيش
لعله يجد في المعامرات الحربية ما يبرد غليل نفسه
المنعشة الى الحركة واتخذ فانخرط كجندي في الجيش
الاسباني المرافق في ايطاليا تحت اوامر القائد ميغيل
دي مونكادا في سنة 1569 نفسها وبرفقة هذا الجيش
نجول في كل انحاء ايطاليا فشهد روما والبندقية وخنوة
وفلورنسا وميلان وناپولي. وقد تركت هذه المشاهدات
في نفسه اثرا عميقا: فرؤية الكنوز القبية التي ملأت
المدن الايطالية والاختلاع على امهات المؤلفات من الادب
الكلاسيكي وادب النهضة وجمال الطبيعة في هذه البقعة
التي تعتبر من اجمل واخصب التراب الاوروبي كل
هذا زاد حسه ارهاقا ونفسه مضطوحا وان عبقرية
الفطرية ودكائه المتقد وحافظته الغريبة ودوقه الادبي
الرفيع تحالفت كلها في هذا الطور من حياته فurst له
تصميم خير مؤلفاته العاطفية.

أما المدينة التي سلبت له وسحرت فؤاده - ولعله
بسبب امرأة أحبها فيها أكثر منه بسبب جمالها الطبيعي -
فهي مدينة نابولي التي حفظ لها في قلبه حتى الوفاة
خير الذكريات.

وفي الخامس عشر من شهر سبتمبر (السلو) سنة
1571 كان سرفانتيس يركب البحر على متن إحدى
سفن ذلك الأسطول الضخم الذي أفلح من مرسى مسينا
تحت قيادة الأمير خون خون دي أوسوريا ليصطادهم
بالأسطول التركي في معركة ليبانتو.

الخطر التركي - لیبانطو

ان القرن السادس عشر شهد بلوغ السلطان التركي اوج العظمة والمجد، ففي اواسط ذلك القرن كانت تركيا من اعظم الممالك ولعلها كانت واسانيا تحتلان اوسع امبراطوريتين عرفهما ذلك العهد - وكانت حدود الامبراطورية التركية في اوروبا تمتد من تخوم روسيا - التي كانت تحتل منها جزءا غير يسير - حتى فيينا نفسها وفي الشرق كانت تبلغ حدود الهند ومن جهة اخرى كانت تسيطر على جميع البلدان الواقعة على سواطي البحر المتوسط الشرقية حتى حدود المغرب الأقصى. وقد تحول اذالك فترا الجزائر ونونس الى قواعد للقرصنة فخرج منها المراكب التركية فتعير على المراكب والشواطى الأوروبية ثم تعود بالغنائم وبالاسارى فيباعون في اسواق الرقيق ولا ينجو منهم الا من امكن اهله اقتداؤه باموال تبلغ احيانا قدرا عاثلا. وقد تأسست في البلدان المسيحية رهبنات مهمتها اقتداء الاسرى لما بلغ هذا الامر من خطورة. وقد كان استفحال شان القرصنة باعثا على نمو الاسطول التركي حتى اصبح قوة تخشى

أوروبا بأسرها بقدر ما كانت تخشى بأس جيش تركيا
البري. وكان أمير البحر العلي علي هو القلب النابض
واليد المحركة لهذا الاستولاء. وفي عهده كانت المراكب
العنانية تبحر بباب البحر المتوسط بجرأة تروع العرب
في قلوب سكان السواحي الأوروبية كلها وضفى دليلاً
على منعة هذا الاستولاء أن المائيل أسايا والبنديقية
وروما وفلورنسا مسعدة لم تطفه في موقعة ليانطو بعدد
مراضها وإن المعرفة خلت موارية خلال ساعات طوال
لضنه لم يكن إذاً ما يدل على اقتراب العاصفة
لأن السلطان سليم الثاني كان قد عقد مع جمهورية
البندقية معاهدة تجارية حرت المعاملات في ظلها بأمان
الأسويه قلق. تبي أن السلطان وقد رأى تلك الجمهورية
في حالة ضعف كسر احب أن يسترجع جزيرة قبرص
وأتقاً من أن استولاه الضخم صغيل بأن تضمن له
استرجاعها فوجه رسولا إلى حكومتها بعرض عليها مطلبه
فساء البندقيين ذلك الطلب وأوسكت العامة في احتدامهم
أن يقضوا على الرسول الذي اضطر أن يفر سرا وبحجة
إساءة البندقيين معاملة رسوله أمر السلطان استولاه أن
يرحف على قبرص. فطلبت البندقية النجدة من الأمرا

السيحيين قلبى التدا البابا وملك اسبانيا فيليب الثاني
وسرع البابا بتأسيس رابطة اوروية لدرأ الخطر التركي
لكنه لم ينضم اليها ريادة تن روما واسبانيا الا فلورنسا.
واجتمع ممثلو تلك البلدان لكنهم لم ينفقوا على
المساعدة وبينما كانوا يقضون الاسابيع والاشهر في المناقشة
والرافسة كان الاتراك يتأولون سواطى قمرى ثم يضربون
حصارا شديدا حول مدينة نيقوسيا وما عنت ان بلغت
الانسا باحتلالهم تلك المدينة مع ما رافق دخولهم اياها
من فظائع واهوال فكانت هذه الانسا حافرا لتوحيد
الكنيسة. وفي 20 مايو (ايار) من سنة 1571 وقع البابا بيومس
الخامس وملك اسبانيا وجمهورية البندقية معاهدة والسدت
العبادة الى ضون خوان دي اوسرنا تتفق الملك فيليب
الثاني الذي كان اذالك في الخامسة والعشرين من عمره وبعد
ثلاث نبحو اربعة اشهر اى في الخامس والعشرين من شهر
سبتمبر (ايلول) من السنة نفسها اقلع من مرفأ مسينا
استطول الرابطة المؤلف من 300 مردب تحمل 10,000 رجل
وعلى متن احدى سفن ذلك الاستطول المشماة
الماركيزا ابجر الجندي ميغل دي سرفانتيس لكنه لم
يلت ان اصيب بحصى شديدة الوطأة اجبرته على ملازمة

الفرائش طيلة ايام السفر غير انه حين سمع الطلقة
 الاولى المؤذنة ببلوغ اسطول الرابطة خليج ليانطاو الذي
 يصل خليج كسورنتيا بالبحر اليوناني هب من قراشه
 ناهضا وصعد مرتعا من الحمى حتى مثل بين يدي
 قبطانه شاحب الوجه شاعر العيين مما حمل قبطانه على
 امره بالعودة الى الفرائش لكن ثابتنا انى الا ان ياخذ
 نصيبه من شرف العراك واحمر على البقاء قائلا انه
 يفضل الموت مجاهدا في سبيل ربه وملكه على الحياة
 والنجى على ان يعهد اليه اخطر مكان في المركب لمحارب
 ويموت فيه فما ضاع من القبطان الا ان نزل عند
 رغبته واسند اليه سفل اخطر مكان في مركبه لاماركنزا
 على رأس اثني عشر حندبا وما ان بدأت المعركة حتى
 اخذ سرفانطيس بيدي من الجرأة والاقدام والحماس ما
 لا يوصف وبعد زمن يسير اصابه طلق نارى في صدره
 اسال دمه تزييرا لكنه لم يلبث ان اسنجم قواه وشاود
 الكرة ضاربا صفعات من دمه المتفجر وما مرت برهة
 قصيرة حتى اصابه طلق ثان في صدره غير انه تخلص
 ثابتا في مركبه لا تلين له قناة ولا تبدو عليه بوادي
 الضعف لا يقيم لدمه ورنأ ولا لحياته قيمة .

وبعد قليل تلقى في يده اليسرى طلعا جديدا
يرتقا معطوبة الى آخر حياته. وكم من مرة اضطر
سرفانطيس في سني حياته التعيسة ان يلوح بهذه اليد
المعطوبة مذكرا. ولحق كمن ينفخ في زمام! ولم تكن
براحه الجديدة منه عن مواصلة القتال فبقي يدافع
ونكافح الى ان رأى المراكب التركية تنحصر اعلامها
وتراجع هزيمة. ولم النصر في هذه الموقعة لاستطول
الرابطه وسقطت بين اياديه غنائم وافرة واسارى لا
حصون واقفاك ثلاثة عشر الف اسير من النصارى
حانوا قد ربطوا بالمراكب التركية وكلفوا بجدها.

وها نحن نترك الكلام هنا للمؤرخ الاسباني المعاصر
سيباستيان خوان اربو ليصف تأثيرات سرفانطيس بعد
هذه المعركة. ما كانت الممرضة تنهي وبحل الليل
اللامه حتى هبت روية هوحا وعصفت الاعاصير
وابرقت السماء وارتدت وظلت الريح تبعث طيلة
الليل بقايا السفن المكسرة وجثث القتلى والاسلاك المبعثرة
والدما العائمة التي كانت تحل بقعة فسيحة من البحر
وقد القى الليل عليها بساط رافته. وفي ذلك البحر وذلك
الليل كانت المراكب المظفرة تنشد مرفأها القريب. وها

هو ذا مبعيل سرفانطيس مبددا فوق فراشه وقد انقلبت
الحى جفونه ونشبت الاء الجراح في بدنه يسع في
اعماق تلك الظلمات نشيدا محروبا يصعده من بعيد
البحر الهائج وبمع تلاطم الامواج واصطدام الازرياح
بالركب الذي تحمله ودوي الرعد الذي يحلق بين
قنرة واخرى دوي الامواج ولعله صنان يسع وسط
هذا التسيد الوحشي المشؤوم صياح الحاربين ونجديتهم
واصوات الفرح واصطدام الرماح من وجهة بدوي الضربات
وتأوهات المرحى الذين سقطون ليرعدوا الى الابد في
جوف ذلك البحر احرا ايه رجل سلمه ومن اجل السام
وحده يقبل الحرب ويقدمها لما قال بعد ذلك بزمن
طويل بلسان مجنونه السيل ولعله الآن وهو يصمت
الى دوي العاصفة هاتمة على الماء المغطاة بالحبث بعد
ان هدأت حدة الدماء وبلاست نسوة الظفر وتحرر من
كل شيء وارفع الى تلك الاجواء الرفيعة التي تكاد
تكون سماوية تلك الاجواء التي عرف ان يرتفع اليها
مرارا وتكرارا في صفحات كتابه الخالد وراة الزمن
والفضاء وقد تناسى حين وضعه وسمل بفكره الانسانية
جميعا متذكرا النضات التي خلعتها وراة ذلك اليوم

الذي لعله اذاك قد فصر في هذه الحاجة السرية الهائلة
الى الحروب البشرية التي تنقض على العالم كاللعة الهية
من حين وآخر ولعل قواده قد امتلا اذاك للمرة الاولى
من الخنبن الى حلم سلم وسعادة يعيم على البشرية
العدنة ذلك الحلم اللذيذ الذي سيعييه يوما في مؤلفه
منون فيخونني والذي طالما لامس نفسه ولعله لم يشعر
فقط بذلك الحلم شعوره به تلك الليلة بينما كانت
الليل شائعة وسط نورة الاصابير من مذبحة ليانثو .

بعد المعركة

ما ضاد نبأ النصر يبلغ إيطاليا حتى أسرعت مدنها إلى إقامة الحفلات والاحتفالات وعم الفرح إسبانيا أيضا وبلغ إسكوسيانفسها ونغني الشعراء بذلك اليوم وحفظ الرسامون ذكره بلوحاتهم وتنافسوا المدن الإيطالية في الاستعدادات الفخمة لاستقبال ضيوف خوان دي أوسوريا واستولت على المنتصرين نسوة اذهلهم عن الواقع فظنوا أنهم قضوا على الأسطول التركي للأبد وصمموا على استرجاع قبرص وفتح المرافئ الأفريقية وبلغ النفاؤل بهريق منهم أن حملوا بفتح القسطنطينية وبنت المقدس لكن يد الفرقة لم تلبث أن دخلت بينهم فلم تنعد تلك المشاريع حدود الخيال.

لم الانكاس ما كانت قتلاشي الدهشة الأولى التي أحدثها في نفوسهم نبأ الهزيمة حتى استرجعوا عزيمتهم واستجمعوا قواهم وشرعت دور الصناعة في القسطنطينية تشغل بنشاط وعزم تحت إدارة العلي علي في تجديد الأسطول التركي وقبل أن تنتهي سنة كان الأسطول الجديد يعاود الكرة على المرافئ المعادية.

سرفانطيس جريح - عودته الى الجيش

عاد سرفانطيس من معركة ليبانتو معطوب
الى جريح الصدر فادخل احد مستشفيات مسينا وبامر
من جنون خوان دي اوسوريا زيد رائه ثلاث دعات
نقمة في الشهر.

وقد اكتسبه الإقامة في مسينا معرفة باحلاق القرويين
ومذاجتهم وطيب قلوبهم وحصل من معاشرتهم والاتصال
بهم خبرة واسعة ومعلومات دقيقة اودتها بعد اعوام
شانه الخالد ولاغرو ان يكون قد نظم في هذه الفترة
بعض المنظومات وصرف بعض نواحي تفكيره الى الادب
وسينا من وقته في المطالعة.

وما صادت تندمل حراحه حتى احس بالرغبة في
العودة الى الجيش. وفي 24 ابريل 1572 سنة
بنا به ينخرط من جديد في كتيبة اليوزباشي مانويل
بوسى دي ليون المتتية الى فريق لوبي دي فيغويروا

سر فانتيس يعود الى الميدان الحربى

خلال التصارى في بادى الامر ان معرضة لبيانت
قضت على سلطان الانراك في البحر وانه لن تقوم له
قائمة بعدها ولكن سرعان ما خاب ظنهم ونالوا
احلامهم فראوا الترك ولم يمس عليهم سوى نيف وسه
قد اسرجعوا نشاطهم وجددوا اساطيلهم وعادت سفانهم
تبحر عباب البحر المتوسط مصدبة لمراكيب التصارى
وتغير على مرافقهم العديدة ملقية الرعب في قلوب
سكانها فادرك التصارى حينئذ ان الميدان مازال مفتوحا وان
الحرب لم تقل كلمتها الاخيرة فعضروا في معاودة الكرة
سمى ان يقضوا هذه المرة قضا حاسما على عدوهم
الخطر وجمع حنون حوان دي اوستريا من جديد
اساطيل الرابطة في مرفأ مسينا بعد ان آب المتحالفون
الى الوفاق فيما بينهم واصبح متاهبا للابحار لا ينتظر
سوى الامر بالاقلاع من اخيه الملك فيليب الثاني
لكن الدسائس لم تكن لتهدأ في البلاط الملكى

وبذلك لما وصل ضون خوان الامر بالامحار ضان الطقوس
قد اصبحت ردينا فاقطع على كره وركب سرفانطيس هذه
المرّة ايضا احد مراكب ذلك الاسطول رغم بده المعطوبة
لضن هذه الحملة لم تكن موفقة واصطدم الاسطولان
المعاديان في خليج نافارينو الواقع الى جانب شاطئ
البلوبونيز العرسي في اليونان في ٢٠ اكتوبر اثنى عشر
الاول من سنة 1٥71 ولم يسفر هذه المعركة التي
تسمت في التاريخ باسم معركة نافارينو عن نتيجة معينة
لاحد الجانبين ورجعت المائيل الرابطة الى مرفأ مسينا
بعد ان فقدت عددا كبيرا من التوابع بسبب العواصف
التي هبت عليها وما ضادت تطلع ذلك المرفأ حتى
فوجئ ضون خوان بنأ عقد صلح معهود بين البندقية
والترك نخلت بسقطضاه تلك الجمهورية عن جزيرة قبرص
التي تألفت الرابطة من اجل حمايتها.

وفي السنة التالية جهر ضون خوان حملة جديدة
وضان سرفانطيس من حملة الجنود الذين اشتركوا
فيها وتوجه الاسطول الى الشاطئ الافريقي فاحل مدينة
نونس دون كبير جهد وعناء ولسان ضون خوان يؤمل
ان يمنح مملكة نونس لضن اخاد فيليب الثاني لم

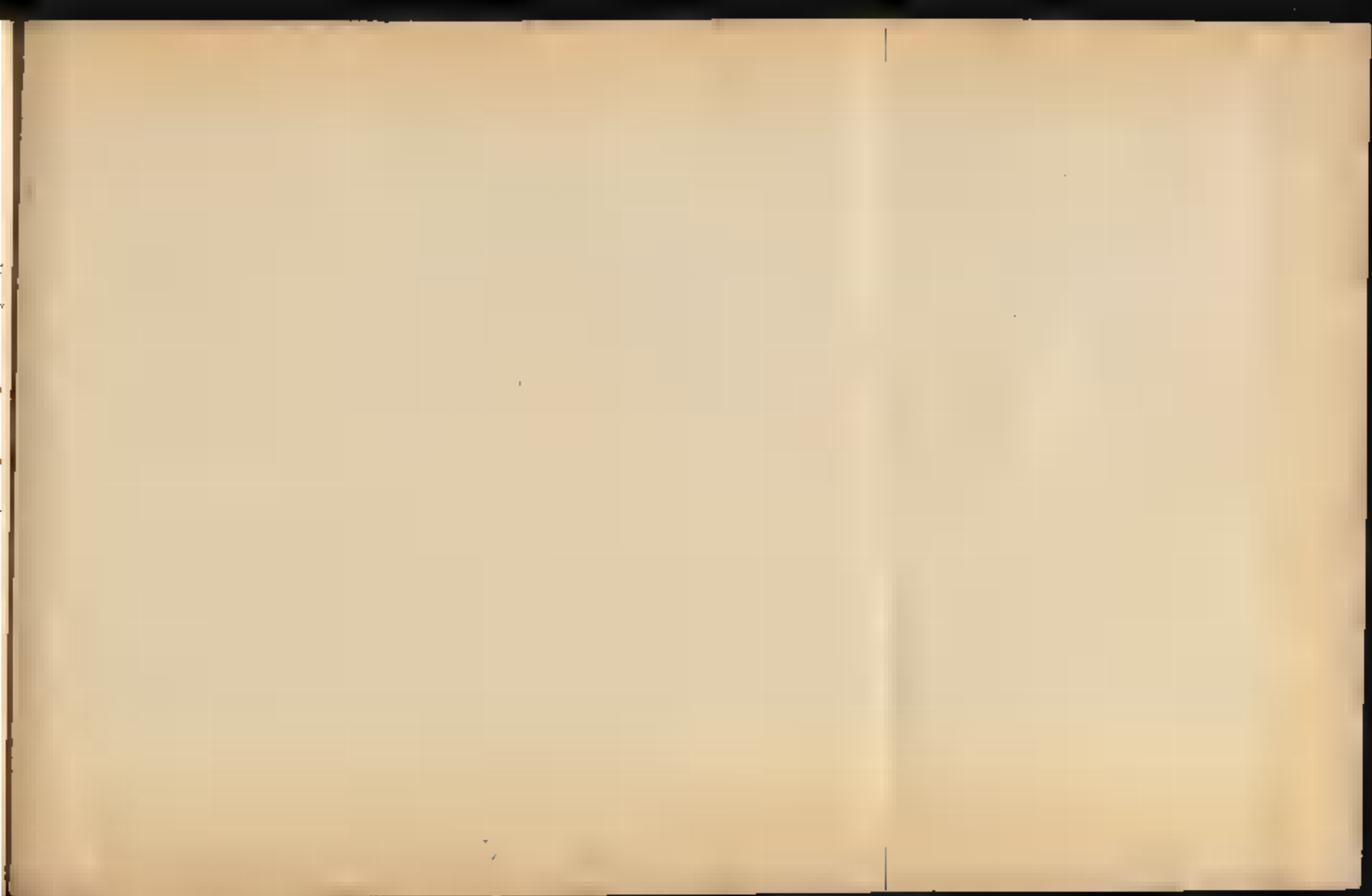
يرض بذلك . وبعد ان جدد بناء حصونها ترك فيها
حامية وعاد اسطولوه الى ايطاليا وعاد سرفانطيس ايضا
واقام في هذه المرة في جزيرة سردينيا.

وفي سنة 1574 بينما كان ضون خوان في مدينة
جنوة بلغه نبأ بان اسطولاً تركياً ضمخماً اقلع من
القسطنطينية تحت قيادة العلي تلي قاصداً شواطئ
افريقيا فبادر الى دهن القائد الاسانى ان الترك
سيهجمون لامخالة تلى تونس فكتب الى اخيه مستنجداً
لضن الدسائس كانت تعمل عليها وحين وصله الامر بنجدة
حامية تونس كانت تلك المدينة قد سقطت بين يدي
الترك منذ زمن ولاقت حاميتها اشنع مיתה.

فأبحر ضون خوان وأبحر معه سرفانطيس من جديد
لضنه لم يكسب له النصر هذه المرة. وشرق الغصير من
مراكب اسطولوه وجفت تونس بين يدي الترك وكذلك
سقط بين ايديهم حصن لاغوليطا وعاد ضون خوان الى
ايطاليا حائباً وقد تركت هذه الحساير في نفس سرفانطيس
اثراً عميقاً من الأسى وبدأ يدرك مدى الدسائس والاهوال
الفردية الجشعة التي لا تفهم عن التضحية بدماً الجنود
المساكين في سبيل مطامعها.



خريطة البلدان الواقعة حول البحر المتوسط والتي جرت الحوادث التاريخية الدولية المشار إليها في هذا الكتاب



في نابولي

قضى سرفانتس ذلك الشا في نابولي مدينة احلامه
 وكان هذا آخر عهده بايطالية لكن هذا الطور الأخير
 من اقامته ترك في قلبه اثرا لن يمحي فقد كانت
 نابولي عهدئذ مدينة راحرة بالجنود الاسبانيين والشعراء
 والملاحين وفي كل هذه الاحوال يجد سرفانتس ما يسري
 عن نفسه آلام الحبيبة وفي نابولي التقى باخيه رودريغو
 الذي كان مخرجا في احد الجيوش ايضا وفي نابولي اغرم
 حبيبنا بامرأة لم يحفظ التاريخ لنا اسمها بادله الحب
 والقتل على جراح قلبه المتألم بلسمنا غدا غللت ذكراه
 في نفسه حتى اواخر ايامه ولعل هذا الحب هو السبب
 الرئيسي الذي جعله يتشوق طول حياته الى تلك المدينة
 الإيطالية وقد ادعى بعض المؤرخين انه ررق حبيبا من
 تلك المرأة التي احبها ويستندون في دعواهم على ابيات
 له وردت في مؤلفه الشعري رحلة البارناس وفيها يقول
 مشيرا الى التقائه بشاب - بالخيال حسعا - في شوارع نابولي:

وبكل حنو عانقني صديقي. ولما عمرت بين ذراعيه
قال لي انه يشك بمقائى عنالك طويلا. وناداني "أبت"
وناديته: "بنى". وهكذا احق الحق
لحسن هذه المسألة لما ننضح ظل الوضوح.

الجزء الثاني

خرج سرفانطيس من وطنه منذ ثلاث سنوات سعيا
ورا' المجد وها هو ذا الآن بعد ان اشترك بمعركة
شلت فيها يده وحملها الضربة القاضية على العدو والسلام
لارتقائه درجات العلى يرى آماله تنهار واحلامه تتلاشى
ومعركة ليبانطو أصبحت على قربها حلما باندا لا يؤبه
له. ومن الاسطول الجبار الذي انصر في ليبانطو لم
تبق سوى بقايا سفن معطمة تعود من نافارينو وتونس
لحسن نفس كائنا اليونانية لم تكن لتخلد الى الهدوء
فما كاد يسدل السار على هذا الفصل من حياته حتى
ازاحه من مسرح آخر ليمن عليه فضلا جديدا اي انه
بعد ان اخفق في تميز امانيسه من رحلته الى ايطاليا
تحولت افكاره من حديد شطر الوطن واخذ يتبادل
الحديث في الموضوع مع اخيه رودريغو الى ان استقر
رأيهما على العودة معا

لكنه كان بحاجة الى رسائل نوعية يحملها الى
مريد، وكانت تربطه بالدوكي دي سيسا نائب الملك
في صقلية بعض روابط الصداقة لعل مصدرها شغف
الدوكي بالادب وما ابداه كاتبها من اقدام يوم ليانطلو
فقبله وعرض له فضحته، ويظهر ان الدوكي وافق عليها
لكنه اشار عليه ان ينظر بحودة ضون خوان الى
اطاليا واعدا اياه بان يسهل له اذالك مقابلة الامير الفتى

الرحيل

في أواسط يونيو حزيران من سنة 1575 وصل
ضون خوان دي اوسوريا الى نابولي وبعد وصوله بايام
قلائل حظي سرفانتيس بمقابله بواسطة الدوكي دي
سيسا وقد اشرفت المقاتلة عن اعطاء الامير كتابها
رسائل نوحبة الى اخيه الملك فيليب الثاني ليقلده قيادة
كثيفة وهو بقليد بسحقه - حسبما جاء في الرسالة -
لما ابتداءه من سخاعة واقدام ودل عليه من نبل وكرم
واتصف به من مواهب وذا

وضانت رسائل ضون خوان ورسائل الدوكي دي
سيسا وبده المعطوبة ضاقبه في خطه ليقلد ما ينمناه فيعود
للانضواء من حديد نحت لواء قائده الشاب لكن
الاقدار كانت نخبي لها غير ما حساباه فدفعتهما في
طريقين لن يلتقيا الواحد نحو الموت الزؤام في سهول
فلانديس والآخر الى الاسر الشديد في سجون الجزائر
فكانت هذه المقاتلة آخر عهدهما الواحد بالآخر.

وفي العشرين من شهر سبتمبر (أيلول) من تلك
السنة اقلعت من مرفأ غاتولي السفينة حمول (أي شمس)
حاملة على متنها في جملة من حملتهم الجندي المعبود
أيدي ميغيل دي سرفانتيس وأخاه رودريغو.

أمل خائب

اقلعت السفينة محمول وبمعيتها سفينتان اخريان
لامندونا و ايفيرا والفرح يملأ قلوب ركابها
وبالخصوص ضائبا الذي ضان يعلل النفس بالاجتماع
قريبا بالاهل والخلان بعد غياب اربع سنوات ومشاهدة
تربة الوطن والحصول على اميته الغالية التي سنسائه
على نيلها رسائل التوسية التي يحملها من اوطالها.

وبعد ان قطعت شوفا بعيدا من الطريق وتوغلت
داخل خليج ليون واصرت مرقاً المربعات الثلاث
الصغير اذا بالبحري المظلف بالحراسة فوق مقدمها ببصر
في تلك الليلة وقد اشرف قمرها على المغيب اشباح سفن
تركية تقرب فاخذ يصيح ملقبا الرعب بين البحارة
والركاب لكن قبضان المركب حافظ على رباطة جأشه
ولم يبد ادنى خوف او قلق.

وكانت السفن التركية اربعة يقودها امير القرصنة
الجزائرية ارناؤوط مامسي وقد خرجت من الجزائر
كعادتها تبحث عن سفن نصرانية لتسقط عليها وكانت
السفينة محمول قد سبقت رفيقتيها فاصبحت منفردة

ولما ابصر قبطانها الخطر حاول ان يبلغ بها الشاطئ
 قبل ان يدركها القراصنة فأمر برفع الشراع واعداد
 المدفعية بقصد ان يمر بين السفن التركية مسرعاً بينما
 المدفعية تطلق عليها نيرانها لكنه لم يمكن من تنفيذ
 خطته لان الارياح هذأت فجاءت وبقيت السفينة في مأزق
 خرج غير ان الترك لم يحركوا ساكناً في الليل بل
 انصبروا على مراقبتها الى ان اصبح الصباح واذك
 اسئلوا وفدا على فلك صغير بدعو قبطان المركب
 الإسباني الى الاستسلام فرفض الاحاطة الى طلبهم واستعد
 للدفاع.

وكان ذلك في السادس والعشرين من سبتمبر
 الاول وبعد قليل بدأت المعركة وظلت ناشبة من
 الفجر حتى المغرب وابتدت السفينة جراً كبيرة في
 مدافعة السفن التركية الاربعة وصمدت في وجهها النهار
 ضله وابل سرفانتيس في هذا اليوم ابلاء في معرضة
 لبياناته وظل يكافح حتى الليل اذ بدأت النيران تدب
 في السفينة من جهاتها الاربعة وقتل معظم رجالها وتعطلت
 مدافعها وتزقت قلوبها ولم يبق في الامكان اخماد
 النيران المتدلعة اللسن واذك فهم سرفانتيس ان كل

شيء قد انتهى وانه لم يبق له من الواقع المر الاليم
مفر ولا نجاة.

وماعو الا القليل حتى رأى احدى السفن التركية
تتقدم الى المركب الاسباني ويصعد رجالها الى متنه
فيستولون على كل ما فيه من اناس وشنائم ومن
جيلة الذين لم يلاقوا حلفهم فسقطوا اسارى كاتبنا ميعيل
واخوه رودريغو وانها والحق يقال لساعة اليمه تلك
التي اجبر نفسه فيها نقد كالعبيد وينقل الى السفينة
التركية ثما تنقل السلع لباع فيما بعد او يباحر به في
اسواق الجزائر والقسطنطينية وها هي احلامه تبده
كالسحاب واماله تنشع كالغيوم وافراحه تذوب كالثلج
تحت حرارة الشمس وها هو ذا حاجر حصين يرتفع
بينه وبين الوطن وورا هذا الحاجر ليل الاسر المظلم
الذي لا يدرت نهايته سوى عالم الغيب فلا يتمالك عن
ان نهر امام عينيه تلك الصور المؤلة المخيفة: صور
الاسارى المشدودين الى مقاعد المراكب ليجدقوا ساعات
نلو ساعات دون ان يحصل لهم ساعد او تهدأ لهم يد
وويل لمن تقاعس فجزائه ان يكون غداً الخيتان وصور
الاسارى الذين يحاولون الفرار يموتون فوق المشانق

والخواريق وعصور الجلد والتعذيب والتزاع البطي في
 منامير الجزائر المظلمة. وكلهم من مرة سبع الأسارى
 المنكين يقصون على مسعيه هذه المشاهد فاقشعر لها
 نديه وذابت لها نفسه الما وحسرة. وإذا بالاقدار ترمي
 به الآن وسط هذا العالم الذي كان بحضاه وبخارب للقبض
 عليه وعوضا عن مشاهدة الوطن والأهل ونيل الأمنية
 المشودة ها هو ذا يلقى الأسر مع ما يخفى وراءه من
 التهم وأهوال.

الفصل الثاني

في الاسر

الجزائر

قضى سرفانطيس ساعات في حالة ذهول شيق لم
شعر خلالها بما جرى حوله ولا باقتراح الاسارى ووقوعه
في نصيب دالي مالي شقيق ارناؤوط مالي واقسى
القراصنة قلبا واغلظهم معاملة ولما استفاق من ذهوله
ابصر الى جانبه اخاه روبرغو وبعض رفقا رحلته
والخل مقيد بقيود شديدة لخص قيوده اضبطها واثقها
ففهم ان سبب ذلك رسائل التوضيحية التي كان يحلها
وعليها توقع ضون خوان دي اوسوريا مما حمل القراصنة
على الخلق بان حاملها ذو مكانة رفيعة وان في الامكان
قبض كمية واهرة مقابل افكائه. عبت الدهر الخوون!
يقدم للمرء كأس الخلاوة حتى اذا قاربت شفتاه انقلبت
تلقيا وما ضان بالامس محط الامل لئيل العلى اذا نه
اليوم سبب في التضييق والتشديد.



ما كادت السفن التركية تبلغ مرفأ الجزائر حتى
انتشر الخبر في المدينة كالبرق فاقبل الناس زرافات
ووحدا كما دأبهم كلما عاد القراصنة من غزواتهم

ليخرجوا على الاسارى والغنائم - وكانت عودة القرامنة
تلاقيهم في حياة الجزائر ويعم الفرح الجميع لان كل
واحد يرى سبيلا للكسب والطرب.

ونزل رؤساء المراضب ثم اتوا الاسارى واقيد كل
الى سجن مولاد وكانت دار عالمي مامي واقعة في الناحية
الرفيعة من الجزائر وفي مسهاها مضجعة يئن في داخلها
مئات من المساجين الاسبان واليهما سيق سرفانتيس
وبعد ان رشت قبوده بررات مدقوقة في حائط المطمورة
ترك في تلك البؤرة الظلمة العنة التي لا يصاد يدخلها
النور يحرق الارم اما وغيظا وبيلل بدموعه تلك التربة
القاسية التي سيفترشها في اسره المر.

اما اخوه روبرغو فوقع في نصيب امير الجزائر
رمضان باشا.



لا نعلم بالضبط كم من الزمن امضى سرفانتيس
في حبسه المظلم محروما من الاتصال بالعالم ومن استنشاق
الهواء النقي مكبلا بالقيود الثقيلة وسبب هذه المعاملة
الشاذة كما قلنا قبل رساقل التوحشية التي كان يحملها
وخوفا عليه من الفرار امر سيده بزرجه في تلك المطمورة

المنظمة. لكن نفس صانينا التواقة الى الحرية كانت من
 تلك الحالة في جحيم. وفقد كل شهوة للطعام وهزل جسمه
 هزالا ادخل الخوف على حياته في قلوب حراسه من ان
 يودي ذلك الضعف بحياته فينقم عليهم مولاهم دالي
 مامي. اذا خسر ما يؤمله من دية لافتكاكه وويل لهم
 من نعمته! فاسرعوا الى ابلاغه حالة الاسير فامر بان
 يخفف من قيوده ولم يلبث ان سمح له بالخروج الى
 المدينة والتجول في شوارعها فكان ذلك القسط اليسير من
 الحرية بلسا لنفسه المعذبة وباب فرج امام عينيه وحافزا
 لاهته للمسعي رغم الاخطار العظيمة عن سبيل الحرية لانه
 حسبا قال فيما بعد في كتابه الخالد في سبيل الحرية
 وحدها يمكن ويجب بذل الحياة. وفكرة الحصول على
 الحرية ستكون شغله الشاغل خلال سنوات اسره الخمس
 وقد قال فيما بعد لم آيس قط من الحصول على
 الحرية. وكنت اذا عرض لي خاطر وفحصت فيه مليا
 وبنشرت تفهيدته لم جاء الواقع مخالفا لمبتغاي لا اراجع
 ولا الين بل ابحث عن امر آخر استند عليه مهما كان
 ضئيلا وهزبلا. ويقول الاب هايدو في تاريخ الجزائر
 انه كاد يفقد الحياة اربع مرات فوق الحاروق او مبقورا

بالكلاب او مجروقا حيا . وكانت هذه هي الميتات
الثلاث التي تستعمل للاعدام والثانية اشنعها وهي عبارة
عن نوع من المشقة غرر في وسطها كلاب حاد من الفولاذ
فيمرر المحكوم عليه وتكتف بداه على ظهره ويرفع بالخيول
حتى اعلى المشقة ثم يفلت فيسقط ويعلق الضلاب بذراعه
او ساقه او ببطنه ويبقى يتلوى على هذه الحالة حتى
يلتفت النفس الاخير .

فهذه الميتات الشنيعة اصيرها سرفانطيس بام عينيه
لكنها لم تكن لتوهن عزمه ونسى همه عن تدبير الخيل
لتفرار فكلما اخفقت حيلة عاد الى تدبير غيرها وهو
اقوى املا واشد عزيمة واكثر ثقة بالنجاة .

المحاولة الاولى

لم يكن قد انقضى على سرفانطيس في الاسر سوى بضعة اشهر حين دبر الخيلة الاولى للفرار. فذات ليلة استدعى بضعة اصحاب له وافضى اليهم نقصده وانفقوا سرا على تنفيذ الخيلة وكان عددهم لا يتجاوز الثمانية وضادت الخطة التي رسمها سرفانطيس تقوم على الفرار عن طريق البر الى مدينة وهران التي كانت حينئذ واقعة تحت حكم الاسبان. ولخص العقبات في سبيل تنفيذ هذه الخطة ضادت عددة فالضيق وشرة المسلك مخوفة بالاحطار وحراس الحدود الانمض لهم جنن والبدو يخسبون في تلك الجهات ولا يسهون عن مطاردة الاسارى المغاربين مقابل مكافآت سخاوتها. اما العقبة الضوود فهي جهلهم الطريق وحاجتهم الى دليل وفي بقودهم الى وهران فالخطة اذا لم تكن بسهلة التنفيذ ولا بضوضونة النجاح لخص نفس سرفانطيس الكبيرة المعدة في الاسر جعلته يغض الطرف عن بقية الاحطار بعد ان اتصل باحد المسلمين واكتسب ثقته وانفق معه على ان يكون دليلا له ولرفاقه في هذه المعامرة التي ورائها الحرية المنشودة او الموت الزؤام.

وفي اليوم المعين اجتمع سرفانتيس ورفاقه العازمون
 على الفرار وتزودوا بما قدروا على جمعه من الزاد
 والاحذية وتبخروا بزي الساعين، وناشروا السير ليلا
 وما ان جازوا المروج الخيطة بالجزائر حتى تصدت لهم
 المسالك الوعرة والبراري الخشنة المعطاة بالاشواك
 والصخور وواصلوا المشي طيلة الليل رغم العقبات كلها
 فسيحوا منهوكي القوى خائف العزم متورمي الارجل
 تكادون لايقوون على مواصلة السير.

وبعد ان بلغوا احد الاماكن ابصروا الدليل يتردد
 محيرا يقدم رجلا ويؤخر اخرى وقد التبست عليه
 الطريق، فاصبح من امره في حيرة كبيرة، وما عثم ان
 تخرج لهم بهيرته واشكال الامر عليه وحاجته الى العودة
 على عقبه ليسترشد بمن له بنلك الاراضي معرفة فاجبة
 فلم ير هؤلاء مخرجا سوى التروئ عند رغبته فابتعد
 عنهم ابتعاد غراب نوح.

مرت ساعة وتلتها ساعة اخرى ومن بعدها ساعات
 وهم ينتظرون عودة الدليل، ولما اخذت الشمس تميل
 الى المغرب بدأت امالهم برؤيته فتلاشى وما ان حصل
 الليل بظلامه حتى فقدوا كل امل وانخلعت الدنيا في

وجوعهم اذ ما ساعهم ان يفعلوا الآن؟ ان واصلوا السير
 نحو وهران بلا دليل فذلك معناه الموت الاخذ وان
 تادوا الى الجزائر فاموت في انتشارهم ايضا ولكن قد
 يسعدهم الخط باحتمال معذرة تبرر نفسيهم ان امكهم ان
 ساعوا المدينة دون ان يلقى القبض عليهم فبعد اخذ ورد
 قرروا العودة وفي تلك الليلة نفسها سلكوا طريق الاياب
 وهكذا فشلت المحاولة الاولى للفرار.

اما كيف بلغوا الجزائر في اوتهم وما اختلقوه من
 اذار مقنعة دفعا لكر عقوبة ذلك ما لا نعلمه بالتفصيل
 ولكن ما في علينا هو انهم لم يعذبوا وانما نعرف مما
 رواه سرفانتيس انه اودع السجن وفرحت عليه مراقبة
 اقسى واخفى مما كان عليه في حيله الاولى ولعل السبب
 في عدم معاقبتهم بالجلد والعذاب او غير ذلك حسب
 دليل بعض المؤرخين ان امير الجزائر الذي لم يكن من
 النساوة في درجة خلقه حساسا باننا كان يستعد في تلك
 الاونة لنسلمه مفاد الحكم الى حلفه المذكور الذي كان
 ينتظر وصوله بين حين وآخر.

ومع هذا كله فقد خيم الظلام من جديد على نفس
 سرفانتيس وحياته.

مساعي عائلة سرفانتيس لافتكاكه من الاسر

في سنة 1590 افتك بعض الاسارى الاسبان ومن
عندهم الفارس غريبال دي كاستييدا. وقبل ان يعادر
الجزائر حمله سرفانتيس رسالة الى والديه يشكو اليهما
فيها مرارة الاسر ويطلب علي التفرق التي يجدد بهما
ان يسلكاهما لنجاح مساعده. وكانت رسالة ميقبل
عليها نفس معذبة بحر الالم في انشاقها لانه قد خسر
عليه تضيقا شديدا بعد محاولته الفرار. ويقول احد
الاسارى المسى خوان بالكاريس في مذكراته انه سمعه
يسكو مرارا من سوا معاملة مولاه له. وسنفاء من احدي
الوفائق انه اضطر ان يتخلى ما لملك لان مولاه
له يكن ليعطيه طعاما ولا لباسا.

ويظهر ان كاستييدا دخل اسبانيا في اواسط
السنة وما كعاد يبلغ مدريد حتى قصد توا تائلة
سرفانتيس ليبلغها رسالته ويعلمها بعائلته وحال اخيه.
وبوسعنا ان نقدر ما نحدثه هذه المفاجأة في قلوب
افراد تلك العائلة من فرح وآلم مسرحين : فرح بالعلم

بان الاخوين المذبح انقطعت اخبارهما منذ أسرت السفينة
صول ما زال على قيد الحياة. والى لما يسعون من
تفصيل عن تلك العيشة البائسة المخوفة بالخطر والمهددة
بالموت في كل اونة.

وكانت العائلة كعادتها في حالة مادية صعبة لكن
الامل بافتكاك الوالدين الاسيرين جعلها تتعلب على
العقبات وحملها على التضحية بكل غال ورخيص فرهن
الابوان بقية نرونها الضئيلة وتنازلت الاختان عن
مهرهما لجمع الكمية الكافية لاقتدا الاخوين.

لكن كل ما جمعه بشق النفس وعظيم التضحية
لم يكن بالشئ الضئير اذا قيس بالحكمة المطلوبة
للفدية فلم يكن اداك يد من افراغ جعبة الوسائل
كلها من طلب توصيات والى وجهد واجهاد وعملت
العائلة بمقتضى نصائح ميغيل في رسالته وزيادة في
التأثير ارتدت امه ملابس الارامل واستصعبت ابتيها
وبدأت تطوف على ابواب العظماء مستعطفة مستعجدة
وكان ميغيل يلح في رسالته ان يقصدوا خاصة ضون
خوان دي اوستريا.

غير ان الحالة السياسية في اسبانيا كانت غير

مستقرة لأن ثورة فلانديس - التي صالت تدشها
 انكلترا وفرنسا في الحقا - على الحكم الاسباني كانت
 على ازدياد بحيث لم ينجح في تهدئة الخواطر واحد من
 النذير المتخذة فلا شرو ألا بعار كبير اهتمام لصير
 خمسة وعشرين ألف أسير الذين كانوا يموتون موتا
 بطينا في مقامير الجزائر ولا شرو ان تذهب سدى دموع
 صونيا ليونور والدة كائنا ودموع بيتيها اما ضون
 جوان دي اوسرنا فلم تسكن من مقابله.

وفي نهاية الامر جمعت العائلة بعد بذلها كل تضحية
 ما قدرت عليه من المال وتوجهت الام مصحوبة ببيتها
 - سلهن مرتديات لباس الحداد الى دير لامر سيد ودفعن
 ما جمعنه الى الراهب خورخي دي اوليفار الذي عينته
 بعينه تلك السنة لافتدائ الاسارى واوصيته بميعيل خاصة
 لأن الانبياء التي كانت قبلهن عن تصرفاته وعن تعرضه
 الدائم للاختار كانت تجعلهن يقلقن عليه اخضر من
 قلقهن على اخيه روبرغو فلذا كان ههنا الآن افتدائه
 املا وبعد ذلك يقض في اقتداء روبرغو.

وبعد ايام قلائل ابصر الراهب نحو الجزائر حاملا
 نروة آل سرفانطيس وآماله.

افتداء رودريغو المحاولات الجديدة

ما ان حر الراهب خورخي دي اوليفار في الجزائر
حتى سرح بانفادوصات مع موالي الاسارى لافندا من
بقدر شلته ولم يلبث مبعير ان اضل به ونفسه متعصة
تأمل في نيل الحرية عاجلا لكن آماله حابت حين تلم
مبلغ ما دفعه الى الراهب ثأله فانه وان كان غنيا
اذا قيس برونيا فانه حشيش جدا اذا قيس بسا بطله
مولاه دالي مائي ولم تسفر مساعي الراهب عن نتيجة
في هذا الباب لان دالي مائي ضاى اذ كان غائبا عن
الجزائر في احدى جولاته البحرية المعقدة على رأس
قراصنه وقد ترك تعليقات حاسمة لنوابه بان لا يتسلق
سراح اسيره نافر من القذبة المعينة ولما رأى ميغيل
انه لا سبيل لاصلاح سراحه قرر ان يقتدى بالمبلغ المرسل
احوه رودريغو عسى ان يكون ذلك الخطوة الاولى في
سبيل تنفيذ مشروعه جديد لتفراج كان قد اعده من
في قبل.

وخبر هذا المشروع هو انه كانت لحاكم مدينة
 الحزائر دار تقع شرقي المدينة على فرسخ منها، وكانت
 تحيط بالدار حديقة فسيحة الارحاح كثيفة الاشجار يعتني
 بها اسير اسباني نافاري الاصل يدعى خوان، فاستحكمت
 بين وبين ميغيل سرفانتيس صداقة متينة وزار ميغيل
 الحديقة وتفقدا انحاءها، وكان في طرفها كهف واسع لا
 يعرف بوجوده الا القليلون، رأى ضائبتا في الكهف
 وشافة الحديقة وموقعها طريقا سهلا لمدير حيلة جديدة
 للفرار، وصارت هذه نقود على ان تقترب لئلا من
 الا اتمى بالقرب من الكهف مركب اسباني بقوده بحري
 ماهر ثائم بتلك الانحاء، ويومي الى الاسارى الخمسين
 في الكهف باسارة معهودة فتغادرون الكهف ويسرعون
 الى المركب ثم يقلع هذا موليا وجهه سطر اسبانيا.
 وكان سرفانتيس قد اتمى بمشروته هذا الى عدد
 من الاسارى ومن بينهم من ينتسبون الى كبار العائلات
 فوافقوا عليه، ووافق ايضا البستاني خوان على ان
 يكون من حيلة الفارين.

وحيث كان هذا المشروع قد اعد قبل وصول
 الراهب خورخي دي اوليفار رأى ميغيل ان اطلاق سراح

أخيه سيساعده على تنفيذه لأنه سيقدر إذاك ان يعهد
اليه بالقيام بكل ما يوصيه به لنجاح المشروع ثم استحصل
على رسائل توصية من ضون انطونيو دي طوليدو من
عائلة الدوكي دي البيا ومن ضون فرنسيسكو دي فالنسيا
وكلاهما من فرسان سان خوان الى نواب الملك في
بلنسية وميورقة وتابسة ترخاونه فيها ان يبذلوا الجهد
في ارسال مركب مسلح بالقرب وقت ممكن الى الجزائر
ودفع الرسائل الى اخيه واوصاه بما يجب عليه ان
يعمله لينجح في مهمته بعد ان بلغ مدينة بلنسية او
جزيرة ميورقة.

كان الرهبان الافنديون قد فرغوا من جميع
المعاملات وناموا لمعادرة المدينة بالأسرى المقتدين لكنهم
فوجئوا بوصول امير الجزائر الجديد حسان باشا الذي
كان في اول امره نصرانيا من البندقية ثم جحد النصرانية
واعتنق الاسلام وبلغ بدهائه هذا المنصب الرفيع وفاق
من سبقه من الامراء والقرعنة بالظلم والاستبداد والقساوة
وقبل ان يتطلع المركب حاملا الرهبان والاسارى المقتدين
اصدر حسان باشا امرا بان يسلم اليه الكاهن فيانويقا

والعارس ثامورا بدعوى انهما اهلنا بعض المسلمين وان
حرقا حينئذ فخاف الرهبان الاقنانيون على الاسيرين
وحرجوهما سرا من الجزائر فنارت ثائرة الامير وتهدد
بان يصب نقمه على الاسارى اجمعين واذاك تقدم
الراهب خورخي دى اوليفار وعرض نفسه رهينة بدل
الاسيرين المهددين بالوت فقبل حسان باتنا لما رآه في
امر الراهب من باب المضرب لان رهينة الاقنانيين
لو تحجم عن بذل الفدية مهما نظمت مقابل افكاك
باسمها خورخي دى اوليفار فزع في السجن وحبل
بالسودا بينما كان المركب يقطع من مرفأ الجزائر حاملا
عندنا كبيرا من الاسارى المشددين ومن جيلتهم رودريغو
دى سرفانتيس ومعه رسال منسوبة وكان من جيلتهم
ايضا اسير آخر يدعى فيانا وكان هذا بحريا ماهرا
واميرا مقداما عالما بشؤونى افريقيا وقد تعهد بان
يسير قيادة المركب الذي سيوجه من اسبانيا الى الجزائر
لستيد خطة سرفانتيس.

وبعد ذلك بنحو اربعة اشهر اقلع من ميورقة شطر
الجزائر مركب مسلح بقوده البحري فيانا

أمل يخيب

حوالي العشرين من شهر سبتمبر من تلك السنة تلقى سرفانتيس علما بان المركب الذي يقوده البحري فيانا اقلع من ميورقة فاخذ يسرع في اتخاذ التدابير النهائية واعداد العدة للفرار حين يصير العلامة المتفق عليها المؤددة بوصول المركب وكان الاسارى العازمون على الفرار محتسعين في الكهف وقد مضى على بعضهم مدة طويلة فيه فهزلت ابدانهم وانحطت قواهم لانهم لم يكونوا يجرأون على الخروج لاستنشق الهواء الا في الليل واحدا واحدا لتلا سبورا الزينة او دفع عليهم نصر المسلمين وخاف سرفانتيس خلال هذه المدة كلها يعهدهم ساء يحتاجون اليه من ما تمل وملس تعاونه في معصية هذه المستنق خوان وحاحد اسبابي اصله من مليية بلقب بدورادور.

وفي ليلة 28 سبتمبر بلغ المركب المنظر شاطئ الجزائر وابصر سرفانتيس سلامة التعارف فغلق لها قلبه طربا واقبل على رفقا اسره بنيتهم بالخبر وبدعاهم الى الخروج من مخبئهم والاسراع الى المركب.

ونزل بعض البحارة الى الشاطئ ينتظرون الاسارى
 ليقبضوهم حال وصولهم الى السفينة، ولكن وقع ما لم
 يكن في الحسبان، وذلك ان بعض الجرائرين مروا حينئذ
 بمدة تلك الناحية فساعدوا البحارة والمركب فدخلهم
 الرعب واطلقوا ارحلهم للريح نفوسهم الخمر في المدينة
 وقد كان يوسع الاسارى ان يركبوا السفينة ويغفروا
 من ان يصل البنا الى المدينة وقائي المدة، لكن
 الدول الذي احدثه في نفوس البحارة تلك المفاجأة
 جعلهم يركبون السفينة ويسعدون بها على محل ووقع
 ان يرى في حيص بيض ورأى سرعانهم ما سيده من
 اثار عظام بنهار من جديد وانقضى سن تديسه سوى
 مرارة الحيلة والى الفصل الرابع

وما ان انصر الاسارى السفينة يعود على انقائها
 حتى امرتوا الى خبثهم واحبين وقد احسوا بسيف الموت
 مصابا فوق رؤوسهم، لكن نفس سرعانهم الكبيرة التي
 لم يكن الخوف ليعرف اليها منفذ الفت عليهم ترسا
 في رباحة الجأش وبذل الذات وانعشت نفوسهم البائسة
 نور نصيحتهما فطمأنهم بقوله انه يأخذ شئ عاذقه نعمة
 ضل هذا المشروع فلا داعي اليهم الى الخوف واليأس

غير ان نفس مبهغل لم تكن في اعماقها مطمئنة الى نتيجة هذه المعامرة، وبدأت تساورها الشكوك. ولعله بدأ يقض عليه مضجعه نبح الحيانة مجسسا في شخص ذلك الجاحد المسمى دورادور. ولم تكن خطوته خطئة فان دورادور بعد ان ساعده حيلة تلك المدة لتنفيذ خطته ادا به الان متقلب عليه وعلى رفاقه. ولعله وقد اكتشف امر المركب من ان المشروع سينكشف بكامله فلحقه العتوبة كالاخرين فظهر له ان يسبق الحوادث قبل ان تسبقه وتكون هو الخبير قبل ان يكون الخبير عنه. وفي 24 سبتمبر اي بعد وصول المرحض بيومين التمس مقابلة الامر ليفشي اليه سر خطيره. فاستقبله حسان باشا وانصت اليه فاعلمه دورادور بالقضية من الغيا الى بانها وان الاسارى مخبئون في الكهف وان سرفانطيس هو قلب تلك الخطة الساطية ودماعها المفكر. وكان حسان باشا حينما قلنا سابقا من اقسى القراصنة واغلاطهم وقد سجل في سنوات امارته اشبع صفقة في تاريخ الجزائر بغضائنه وقساوته في معاملة الاسارى النصارى. ولعل السر في هذه القساوة رغبته في ان يبرهن للترك والمسلمين كافة بانه قطع كل حيلة بالنصرانية

وانباتها لانه كما ذكرنا ايضا كان نصراني الاصل من
 السديّة فوق اسيرا بين يدي العليّ عليّ ثم جحد
 النصرانية واصنسب ثقة مولاه وبمساعده بلغ هذا المنصب
 الرّوم ويقول سرفانطيس في مذكراته انه لم يكن يمضي
 يوم دون ان يورد حسان باسا غليله في تعذيب او اعدام
 احد الاسارى لانّه الاسباب او بدون سبب البتّة فمن
 السهل ان تتصور ما احدثه هذا البأس في نفسه من غضب
 مروج بالفرح لان العادة كانت بينهم في ان
 الاسارى الذين يقبض عليهم وهم يحاولون الفرار يقومون
 تحت سلطة الامير مباشرة فيصير من حقه ان يعاقبهم
 على هواه دون ما المنفقات الى مواليهم.

ولذلك ما كاد يفشى اليه بهذا الخبر حتى امر
 رئيس حرسه بان يسير على رأس عشرة خيالة واربعة
 وعشرين رجالة مصحوبين بالدورادور كدليل الى بستان
 الخاضع حيث الاسارى مخبئون ويأتي بهم مكبلين
 بالديد فتوجه الجنود ورئيسهم الى المكان المعهود
 وعند وصولهم القوا القبض على البستاني خوان ثم تقدموا
 الى الكهف وما ان بلغوه حتى تصدى لهم سرفانطيس
 قائلا ان التبعة في كل ما جرى تقع عليه وحده اما

هؤلاء المنصاري فليس لأحد منهم شئ يعاقب عليه فدهش
رئيس الجنود لرباطة جأشه وأرسل واحدا منهم يعلم الأمير بما
وقع فعاد الجندي يحمل امرا ترحل الجمع في السجن وسوق
سرفانطيس امام الأمير فقبضوا بديه ورجليه واقادوه
بين خيابين في سوارع المدينة الى قصر الأمير.

على هذه الحالة احترق سوارع المدينة والله يعلم
كم كان الألم تحز في نفسه وهو يسير مكبلا بالحديد
تربطة لهما الصبيان وسحبهم ليمسك بين يدي أمير
تسي لا يعرف التسفئة وحها ويسمع من تنقيته العقوبة
المروعة عليه فتألمته الجسمة ولم يكن توسع مبعيل
وهو العارف باستداد الأمير ان تصور عقوبة غير الموت
التيوع على إحدى الصور المألوفة لكن رباطة جأشه
لم تعادله وقنائه لم تزل ولا خفف الخطر من حدة عزمه
فما ان ملى امام الأمير حتى ردد على مسمعيه ما صرح
به امام الجنود وهو انه هو المسؤول وحده عن تنظيم
المحاولة لقرار وان الآخرين لا يد لهم البينة في هذا
كله وخلافا لما كان ينتظره الجميع وفي مقدمتهم سرفانطيس
ذاته اقتصر الأمير على اصدار أمر بان يحبس في سجن
الأمير نفسه.

وبنينا كان ميغيل ورفقاؤه يودشون السجن كان
الجزء الثاني من المأساة ينسب على الساعلي وهو ان
الرب الذي جاء بالامس لتقل سرفانتيس ورفاقه ثم
بعد حين اخشفت امره لم يقلع عن تنفيذ المشروع
وعبر الترك عن بعد انه لم يعادر تلك الناحية نهائيا
فتمنوا لقصده وديروا حيلة لانقاذ بحارسه في الشرك
فعمدوا بعض الجنود على الساعلي ولما نزل البحارة الى
البحر خرج الجنود من محابهم وانقضوا عليهم وامسكهم
ومن جيلتهم فبانا نفسه وعظما انتهت هذه الصفحة.

دخل ميغيل المصورة مستظرا ان ينقل منها الى ساحة
الاعداء بين ساعة واخرى وانقضت بضعة ايام وهو يرى
الموت بين جفونه وذات يوم دخل المصورة بعض الجنود
وهكوا قيوده وامروه ان يسعي مقدم ميغيل بخطي
بانه حاسبا انه الى الموت يسير.

لكن ساعته كانت لم تدق بعد فقد اختارت يد
المقدر ذلك اليوم ضحية أخرى وما تلك الضحية سوى
السناني خوان الذي ضان في طليعة المسترربين بمحاولة
الفرار واعله بعد سرفانتيس المسؤول الاكبر عن كل

ما جرى تسهيله للأسارى المعارة التي كانت في البستان
المعهودة حراسه اليه. ولذا طلب مولاه من الأمير ان
يسمح له بتنفيذ حكم الاعدام بيده وهما هو ذا
سرفانطيس وبقية المساحين يقنطرون ليروا كيف يعدم
البستاني وتكون هذه المشاهدة لنفوسهم عبرة ولجماهم
ضابحا ولحماسهم رادعا.

وكان المشهد رهيبا مربعا احس خلاله سرفانطيس
بنفسه تطير من جسده وباحتائه تنقطع اسى وحزنا
واحس بالساعات كأنها قرون. وشاهد كيف نصب الحبل
فوق غصن من احدى الشجرات العالية في بستان الحام
وكيف ربطت احدى رحلي ذلك المسكين وكيف ضا
يرفع حتى اعلى العنبر ثم نفلت الحبل حتى يبلغ الارض
مرارا ومرارا ثم شاهد ورفاقه كيف بقي على هذه الحالة
معلقا في الجو ينفوي وبنائه الى ان فارق الحياة.

وعاد سرفانطيس الى مضمورته وكان لسانه قد
انعقد ونفسه قد افلست. وشعره حزن عميق زاده شدة
تفكيره بان هذا المسكين قد لاقى حنقه بسببه وبعد
ان مرت ايام عديدة اخذ مبعيل يستيق من شبه سبات
عميق واخذت نفسه تنفتح للحياة من جديد وتحس

سكيان الذي يحيط بها. واول ما باشر الى حاضره التفكير
الفرار لان نيل الحرية كان كما قلنا شغله الشاغل وفكرته
السابقة والاهوال التي مر بها في محاولتيه السابقتين لم
يكن من شأنها الا ان تزيد شغلا واقداما.

وكانت مطبوعة الامير ابراهيم متامير المدينة كما كان
هو نفسه اقصى الناس قلبا ويقول مرقاطيس بهذا الشدة:
انه وان ضان الجوع والعري بعمائنا احبانا بل
قلما لم يرض ليؤمننا شي مثل ان نسمع ونرى كل
يوم المضاعف المدممة المظفر التي ضان المالك حسان
يرضها في معاملته النصارى ففي كل يوم يشق واحدا
او بخورق آخر او يقطع اذن ثالث وثل هذا لانفه
الاسباب ان لم نقل بلا سبب السة بحيث ان الاتراك
نفسهم كانوا يعملون انه اما كان يفعل ذلك حيا بفعله
لاسر ولان القتل من طبيعته. لكن مبعيل الذي شاهد
هذه المضاعف نام عينه لم يكن لتبين له قياة او ليراجع
من شره. ولم يكن حسان باشا ليظنن اليه ان لم يكن
دحت رقابته الشديدة فاستراد من مولاه عالي ماسي
بعمساقة دينار وكان يقول: عني ضمنت هذا الاسم في
معتوب ضمنت النصارى كليهم بل والمدينة ضلتها ايضا.

المحاولة الثالثة

فقد ان مبعيل ما خاد تسليق من هذا الذهول الذي انتخب المأساة التي حثت بها محاولته الثانية للفرار حتى سرع بفطر حيلة جديدة، ولأنه عذد المرة انصر فور الفرج يسرع من حقة وعمران التي فصر بالفرار إليها في محاولته الأولى وهو يعلم الآن ان حاضها خون مارفن دي قرمبة كان اعترين سنة حلت اسيرامته في الجزائر، وقد سجن خلال اسره سبعة من صفعات السجاعة والاقدام لما نزل دبرها سرده على شفاء سكان المدينة من اسارى ومسلمين، فهو لاسك بقدر الأمور حق قدرها ولن يتردد عن مساعدة فريق من الاسارى يبعون النجاة والفرار.

ولاحث لميل هذه الفكرة كأنها بحمة الخلاص فسار وراءها مؤملاً، واكتب رسالة مسهبة الى خون مارفن دي قرمبة يسأله فيها ان يبعث بعض رجال من ذوي ثقته تكون لهم حيلة تلك الاراضي ليسانده على الفرار مع بعض الاسارى الاحيرير، ووضع الرسالة الى رجل مسلم كان قد اتصل به واخسب ثقته فحرج الرسول لكنه ما

كأن يبلغ أبواب المدينة حتى أوقفه الحراس لرئيسهم في
 مرة، وفتشوه فعثروا على الرسالة وعليها توقيع ميعيل ذي
 سرفانتيس فرفع الأمر إلى حسان ناشأ فأمر به أن يعدم
 في الخاروق، فلفظ أنفاسه الأخيرة دون أن يقضي بسر
 رسالة ضاربا بتضحيته مثلا في الوقت لا يقل نبلا عن
 وى سرفانتيس.

واقفنا صاحبنا إلى مجلس الأمير، وهي المرة الثانية
 التي تقف فيها أمامه هذا الموقف، فصدر الأمر بضربه
 على بطنه الغلي عتسا ومعنى هذا الاستدام لأن أقل من
 هذا يشهر بضمي لأقضا على حياة أقوى الناس حسنا
 وأمانهم نية.

لكن الأهم انقضت والحكم لم ينفذ، فآخذ الأمل
 مرة رويدا رويدا إلى نفس ميعيل، عبر أنه هذه المرة
 وقت قليلا بامل ويعبر في محاولاته الفائلة ولا يسعنا
 هنا إلا أن نقل الصفحة الغفلة التي ديجتها يراع المؤرخ
 ساسنيان خوان أربو في وصفه وضعية سرفانتيس النفسية
 في هذه الآونة من حياته. قال: لقد انقضى الوقت وابتعد
 الأمير، والآن ما عساه أن يفعل؟ فإذا التفت وراءه وجد
 الف موضوع للمحمر سا قام به ولخصه بجدا اضطر منها

للخوف على مصيره فيقتسر بدنه كأنه يرى فجأة اشماع
 هذه الملعنة الخطرة التي تحركه الاقدار ضمنها اذ ابن
 هي غلبة اشماعه وما هو الذي حصله مقابل ما بذله
 من جهد وتعرض له من خطر؟ فذات يوم التقى ببستاني
 مسكين اسير من مافارة ان لم يضمن فرحا كان على
 الاقل قانعاً بالاعتناء ببستانه في انتظار ساعة الاقتداء دون
 ان يعكر صفوه هدونه اي فكر آخر فذهب سرفانتيس
 لزيارته مرة وتحدث واباه ولان البستاني امام كلسانه
 وقد سحر ليه الحلم بالعودة الى الوطن وبعد ذلك بسدة
 كان يقضي معلفاً باحدى رجله في اتالي شجرة نخل
 على مرأى من رفاقه.

وكان هناك رجل مسلم ملاح من مسلمي
 الجزائر ولعله كان يعيش سعيداً متحبة زوجته وابنائها
 فتصدى له سرفانتيس ذات مرة وسلمه رسالة الى وهران
 وبعد ذلك بايام اذا به ينفذ فيه الحكم بالاعدام الايقف
 سرفانتيس امام هذه المصروف منسأماً؟

وبالي نور تنصب هذه الاشغال على خيبة ضوون كبحوطي
 المتكررة؟ انها تنصب بنور براق الى حد انها تكاد تميز
 عواطفنا كما لو اننا ضنا نرى فيها مصميم سره الرئيسي

على وشك ان ينكشف امام اشيننا. فعنالك ايضا كما هو
 الامر هنا، نية مقدسة وضعت تحت خدمة فكرة صالحة
 نعتزدهم عند مثل خطوة بعقبة كأداء. وعنالك مثل هنا
 بنفذ الخير شرا والسعي في طريق الفضيلة ينقلب
 ضررا على الساعي وحتى على من سعي من اجلهم
 ولكن هنا ايضا مثل عنالك فوق كل شيء نبل
 الدافع العاطفي الذي لا يحجم عن اي وسيلة او تضحية
 دون ما نظر الى النتائج. وهنا مثل عنالك فكرة الخير
 حرك سيف الفارس. وهنا مثل عنالك نبل مقاصد وطيبة
 غرس وكرم قلب لا ينضب بل يعود الى المعركة بعد كل
 حيلة بقوى جديدة. فعليه هذا حبه ان ينقاد الى خوالج
 نفسه فان لم تأت النتائج حسب المقاصد فبان الله في
 الساء وهو يرى ما في القلوب فالتأمل يدوم اذا قليلا
 انقضت هذه السحابة التي كانت تخيم على نفسه
 وشاء الامل اليها وعادت تنسم له الحياة. ومن بعيد
 اخذت تلوح له من جديد فطرة الفرار.

بدأ ميعيل يفكر في الحرية وسبحت افكاره في الفضاء
 لسحت عن خط آمالها الاوحد ضون خوان دي اوستريا

وكم كان يلهب للاتصال بذلك القائد خصوصا حين
 سمع صبيان الجزائر يشدون متهمين على الاسارى
 ضون خوان لن ياتي
 والنصراني هنا يموت

وفي هذه السنة (١٥٧٨) حصلت وقعة وادي المخازن
 التي تغلب فيها المغاربة على البرتغاليين وقتل فيها ملك
 البرتغال جون سباستيان ونخبة فرسان بلاده، ولما بلغ
 الجزائر نبأ نزول ضون سباستيان في الشاطئ المغربي
 هلعت قلوب المسلمين وسكنت الالسن عن شتم الاسارى
 وعم القلق والخوف جميع السكان، وبقدر ما كان
 القلق شديدا اذك كان الفرح عظيما حين بلغت بعد
 ايام الانسا بانصار المغاربة.

لكن ذلك المشهد ترك في قلب سرفانتيس نوتا
 من الامل وفتح امام خياله بابا فسيحا للتصور. ورأى
 في ذلك القلق الذي استحوذ على الجزائريين لمجرد علمهم
 بنزول جيش البرتغال في شواطئ المغرب مفتاح يساب
 الحرية، فكتب الى صديقه ماتيو باسكيس كتابا اسرار
 الملك فيليب الثاني رسالة شعرية مطولة يشرح له فيها
 الوضعية ويقعده تانه اذا جرد الملك اسطولا تحت قيادة

فمن حوان حي اوستريا ودفع به الى ميناحمة الجزائر
 فان فتح هذه المدينة يتم بسهولة كبيرة: لانه متى بلغها
 الاستول تم الخوف جميع السكان واذك بشور الخمسة
 وعسرون الف اسير وينضمون الى الاستول المهاجم فلا
 يثبت المدينة ان تسقط بين ايديهم.

لكن هذا الحلم لم يتجاوز حد الاحلام ولم يبال
 احد برسالة سرفانتيس ولم نعرها اذنى اهتمام.

المحاولة الرابعة

1579

نحن الآن في سنة 1579 وقد مر على ميغيل أربع سنوات في الأسر ضائعا أربعة قرون! ولم أصبح برى بعيدا ضل ما خلفه وراءه من أهل وحلّان وأمال وأمانى! إن فكرة الفرار قد سادت إلى رأسه ليكن أنسى له أن يحققها والطرق مسدودة والأبواب موصدة وقد زاد في الخيل بلة بلوغه نيا وفاة ضنون خوان دي أوستريا في فلانديس، ففلاشى معه ضل أمل في قلب سرقانطيس بزحف استول أسباني على الجزائر وأحلالها وانفضاك الأسارى الذين فيها.

ولكنه مع هذا ضله لم يفتح للياس إلى قلبه طريقا وخل يترقب الغرض ناظر صاشة وعين يقظة.

ففي سبتمبر من تلك السنة تعرف بجاحد أسباني اسمه خيرون أصله من غرناطة كان ينسب إلى عائلة رفيعة من تلك المدينة. وقد تسمى بعد إسلامه باسم عبد الرحمن. ويظهر أن خيرون هذا قد ساورت نفسه

الشكوك وداخل قلبه الندم على اسبغائه دينه بدين آخر
 وبرتت نفسه الى العودة الى احضان النصرانية. وكان
 تعرف سرفانطيس به وهو في هذه الحالة من الشك فحفر
 به خباثتنا الى العمل بما يوحيه اليه قلبه من الندم
 والعودة الى دين آباءه. واقترح عليه ان يسهل له السبيل
 لعودة الى اسبانيا فقل خبرون فرحا شاذرا. وهنا
 اخذ ميعيل يهيئ مشروعه الجديد. وكان قد اتصل سابقا
 بآخر اسباني من بلنسية اسمه ايكساركي من اهم
 تجار الذين كانوا يتاجرون بين اسبانيا والجزائر
 وحدثت له ماجر عظيمة في الجزائر وفي بلنسية وتربطه
 صداقة بكثير من الجزائريين. وتتمتع باحترام كبير بين
 التجار المسلمين ولا يتأخر مني شيء الامر عن اقتداء
 بعض الاسارى فاليه افضى ميعيل بمشروعه الجديد
 وقوامه ان يقدم ايكساركي المال الكافي على سبيل
 القرض لسرا مركب مسلح باسم خبرون الذي لم يكن
 شير الريبة لاشتباره مسلما. ويعلن ان المركب معد للقرصنة
 تحت قيادة صاحبه عبد الرحمن اي خبرون. وفي حقيقة
 الامر يكون معدا لقرار خبرون وسرفانطيس وعدد كبير
 من الاسارى.

وبدا تنفيذ المشروع فاستري المركب واعلم ميغيل
اصحابه المقربون واتدت العدة وتاهب الاسارى العازمون
على الفرار وشددهم ببلع السبر، ولما لم يبق سوى
يومين لركوبهم البحر اذا بمفاجأة جديدة تهدم كل ما
بنوه من امل!

وحبر ذلك انه كان في الجزائر في تلك الآونة
رجل اسانى اسمه خوان بلانكو دي باث اسمه
من مونتسولين في مقاطعة اكسنيسادورا يدعى
انه راعب وانه معوض محكمة الفينش، وكان ذا طبع
حاد وخلق سيء بخساره جميع الاسارى ولا يعرف بالتحقيق
سبب قدومه الى الجزائر وكل ما يعرف انه كان ينافق
ويخاقل وذات يوم التقى به القس خوان خيسل من
رهينة الانبا المنسين وسأله ان يثبت باوراق رسمية صحة
دعواه فلم يمكنه ذلك وظهر نفاقه وكذبه وتجاوز الشك
الى صحة نرهبه، ولعله ان كان في الحقيقة قسا كان
من هؤلاء الافراد القلائل الذين يتحذون من الدين
ستارا يخفون وراءه مظالمهم واهوائهم.

فهذا الرجل الحسود كانت تؤلمه شهرة سرفانطيس

بين الأسارى. وبلغ به الخد أن امتنع عن صادقه التحية
ولم يكن يفتأ يحول له الشباك ليوقعه فيها.

وكان عدد كبير من الأسارى على علم بمشروع
سرفانتيس لكن بلانكو دي ثاث لم يكن على بيته من
هذا الأمر. وقد عني كاتبنا شاة خاتمة نالا ينسرب إلى
عليه. غير أن الإقدار شات أن يسلعه الخبر قبل موعد
الإقلاع من المرسى يومين. فنارت ثاترته على اقتضائه
عن تدبير مشروع كهذا وأمره خفنة نجلا في صميم
عزرفته. فألى على نفسه أن ينار من ميغيل ومباصريه
وأعمل التفكير في طريقة يبلغ بها الخبر إلى مسامع الأمير
دون أن يسل بين يديه بنفسه. فافضى بالأمر إلى جاحد
فلورنتيني الأصل اسمه ضايان وهذا بدوره نقل الخبر
إلى حسان باشا. فاستفسره هذا عن مصدر البأ فلم يسعه
إلا أن يدلبي باسم بلانكو دي ثاث فاستدناه الأمير وسأله
عن القصة فأطلعه على كل ما في علمه وأمره حسان
باشا أن يترك الأمر سرا وعرضه من ذلك أن ينيح
للأسارى الفرحة ليجتمعوا في التركب كي يلقي القبط
عليهم أجمعين.

بالرغم عن احتياطات الأمير ما لبث الخبر أن انتشر

في المدينة فجزع الأسارى وعلعت قلوبهم خوفاً وشرع كل من له اشتراك في المحاولة يبحث عن مخبئاً ينقي فيه غضب حسان باشا. وقد تسرب الذعر إلى قلب سرفانتيس نفسه لأن هذه هي المرة الثالثة التي يطلع فيها الأمير على محاولته للفرار. فلا شجب أن يحاول النجاة. فهرب من دار مولاه واخبأ في دار صديقه الفارس ديميو كاستيلانو الذي كان أسيراً أيضاً. ولما رأى حسان باشا أن خطئه للمقبض على مدبري المشروع قد أفسدت عليه ابرق وارعد. وأرسل منادياً ينادي بأن من يخفي سرفانتيس يعاقب بالعدام. فارتداد الخوف بين الأسارى واضطرب التاجر البلسي الكساركي وخشي سوء العاقبة على ماله وحياته أن اكتشف الأمر.

لكن سرفانتيس لم يلبث أن بدد مخاوفه إذ ما ضاء يطلع على الأمر الذي أصدره حسان بأن الموت جزاء من يخبئه حتى خرج من دار صديقه وهرع إلى دار التاجر الكساركي فطيب خاطره وأعلمه بأنه قد سزم على الاستسلام إلى الأمير. فعرض عليه الكساركي أن يخفيه ثم يبعث به على من أحد مراكبه إلى إسبانيا ويدفع من جيبه فديته. لكن نفس سرفانتيس الالية لم تكن

ليرضى بالنجاة تاركة عرضة لمخطر الرفاق الذين شاركوه
 في تدبير الامر فود على ابكساركي بقوله: يوسفك ان
 تعود مطمئن البال وان تكون على ثقة بانه لا عذاب فيها
 عظم حتى ولا الموت نفسه يكاف بان ادني باسم واحد
 وامي وقل للاخريين ان يلجحوا الخوف جانباً لانني
 اعدت على شائقي عيباً هذه القضية كله وان كنت
 ماضداً بان الموت يستشري ورثها وقد اشار الى عزمه
 هذا بعد سنوات بكلمات وديعة يرى خلال بساطتها نيل
 تلك النفسية قال: تزلت على الاسلام لتلا بلحق الاذي
 بصراحي خبائي عنده وتلا يبحث الملك ان لم يعثر علي
 على اسير آخر يعذبه ويعرف منه حقيقة الامر .
 وهذا اعطى معبيل ثراً حديداً في الوفا
 والاخلاص رافضاً النجاة ومفضلاً عليها التضحية بذاته
 نسلم الآخرون .

ودهب يبحث عن صديق له حاحد يسمى مورانو
 الرئيس ويلقب بالخرابيو سان دا مضافة لدى الامير
 فاشلعه على ذنبه وعلى عزمه ان يقابل حسان ناشا
 ليعترف له بالحقيقة فطلب له مائرايو المقابلة ولما
 مثل بين يديه اتلمه بالامر واتقى التبعة ضلها على نفسه

كما فعل إمامه في المرة السابقة فهدد بالمعذيب والموت
لمقرر باتساع شركائه في المؤامرة 'ممن لا يؤمن ولا الوعيد'
كانا ليجلده على البطح بسره الخدين وأحبار ربط حول
عقه جبل المسنقة ورأى الموت منه على قاب قوسين
فلم يلق عرمة ولم تحرك شفاة.

فما كان من حان ناسا إلا أن ازداء عجا
والأسير تقديرا وأتسارا ومن أعجب العجائب أنه لم يفرض
على سرفاطيس أنه تعوذة الله. وهذا ما سمح له أن
يقول بعد الحادثة بسوان في معرض كلامه عن هذا
العهد من حياته وعن قتال حسان ناسا. ولم ينجح
معه سوى حدي إساني اسمه فلان ذي سايدرا فإنه
بالرغم مما قام به هذا من أمور مستقى في حافظة هؤلاء
القوم سبن مؤنثة وألها من أجل الحصول على الحرية
لم يعصه قط ولم يامر بعصوه ولم يقل له كلمة سوء
بما كنا جميعا نحس أن يحرق على أقل واحد من
الأمور الكثيرة التي أتى بها كما أنه خشي ذلك هو
نفسه أكثر ما من مرة.

لكنه وإن لم يفرح عليه تقوية تعذيبية فقد أمر
بسجنه والنضيق عليه دفعا لخطر محاولة جديدة.

لم يبق أمام سرفانتيس باب للمخرج ولا طريق
للتحدي. ومما نزع من قلبه كل أمل عليه بانتها مدة
أمره حسان باشا واستعداده للانتقال إلى القسطنطينية
بمواله ووسائله وخدمه وعبده. وكان سرفانتيس يؤمن
بأن الخلاص من القسطنطينية فيما إذا نقل إليها يتصاد
صون مستحيلا فلا تحجب أن يشد حزنه وتجزع نفسه
وسراحي عمه. ولكن ما المبرر أن الفرار مستحيل
أثر المراقبة حوله شديدة وضوء خوان دي أوسريسا
مد يوي بعيدا في فلانديس ورساله إلى مانيو ناسكيس
بشر نلا حواب. وراة في القطن نلة انتشار وباء القاتلون
في الجزائر فكان الأسارى سونون بالمآت كل يوم
فرأى ميغيل أن الأبواب قد افطمت في وجهه طلعها ولم
يبق أمامه سوى الاستسلام إلى العناية الرئانية لتفعل
به ما تشاء.

ولكن هذه الحرية التي أصبح يصرها في عالم
الاسجيلات ضاقت أقرب إليه منها في أي وقت مضى
وسأله من حيث لم تكن في الحسان!

في طريق الحرية

في التاسع والعشرين من شهر مايو من سنة 1581
 بلغ الجزائر راهبان من رهبانية الاباء المتولين احدهما
 اسمه الاب خوان حبل والثاني الاخ انطونيو دي لاسلا
 وانتشر الخبر بين الاسارى كتاليرق قدب الامل الى
 القلوب وتم الفرح جميع النفوس وسرعان ما اتصل
 سرفانتيس بالاب خوان حبل الذي اتباد عن حال اهله
 وامعانه وعن حالة الملاء شامة واعلمه بان غائله
 اعطه ثلاثمائة دينار (سكودو) لافدائه فرأى ميغيل
 اماله تتلاشى من جديد لان حسان ناشأ يبغي به الف
 دينار اذ قد انقرا من دالي مامي بخمسمائة بقصد ان
 يربح به خمسمائة اخرى ومن القمص ان يرضى باقل
 من هذه الكمية ولا سبل الى جمع الفرق لانها كسبه
 باهظة وحاول الراهب ان يطيّب خاطره واصدا اياه
 بانّه لن ياتو جهدا من اجل اتمكاسه لئلا يفسد
 صلاته له تكن لطمش ما كان عليه من جشع حسان
 ناشأ وقساوته.

ولم يلبث الاب حبل ان نبت بنفسه من ان ميغيل

كثير مخمقا في تخوفه لان الامير لم يكن ولم يرع باقل
من الالف دينار فلما واحد فأنصرف الى تدبير امور
اسارى آخرين اسهل اقتدا من مبيع وفي شهر اغسطس
(آب) اقلع مركب يحمل العنة الاولى المؤلفة من مائة
وسباني اسارى وعلى رأسها الاخ انطونيو دي لايسلا
ونقي الاب خوان خيل يكافي في سبيل انصاك اسارى
آخرين.

واقبل شهر سبتمبر (ايلول) واقرب موعد خروج
حسان باننا من الجزائر فاخذ بعد العدة للسفر وامر
بغل اموله وحريمه وخدمه وعبيده واساره الى المراكب
الهيئة لنقله ومن جملة الاسارى الذين نقلوا ميعيل
سوفانطيس وما هو ذا اليوم التاسع عشر من ذلك
السفر يوم سفر حسان باننا قد حل والاسير لا يرى
سيلا الى الحرية وما هو ذا مخلص بالحديد في احد
حوائب المركب ينتظر ان تقطع بين ساعة واخرى فيقاد
الى القسطنطينية ليباع في اسواق رقيقها كما تباع الدواب
فوداعا ايتها الحرية ووداعا يا تراب الوطن! وداعا الى الابد!
واطبق جفنيه كي لا يرى القلوع تنشر والمراسي
تقلع والمجاذيف تحرك لكنه ما لبث ان فتحها حين

سمع صوته بناديه واذا به يرى امامه طلعة الراهب
 خوان خيل! فخيّل له انه ملاك يري انسان! لكن الراهب
 لمّا نه وأخذ له انه قد أصبح حراً فقد قبل حسان باشا
 في آخر ساعة ان يطلق سراحه مقابل خمسمائة دينار
 فاقترض المائتين اللتين كانا تنقصان لتكمل الخمسمائة
 ودفعها الى الامير وترجمته القيود من يدي الاسير
 ورجليه ورأى اذاك بملء عينيه انه في الحقيقة حر
 طليق فنقدم الى الراهب وعانقه والدموع تقطر من
 عينيه وبصحبه غادر المركب.

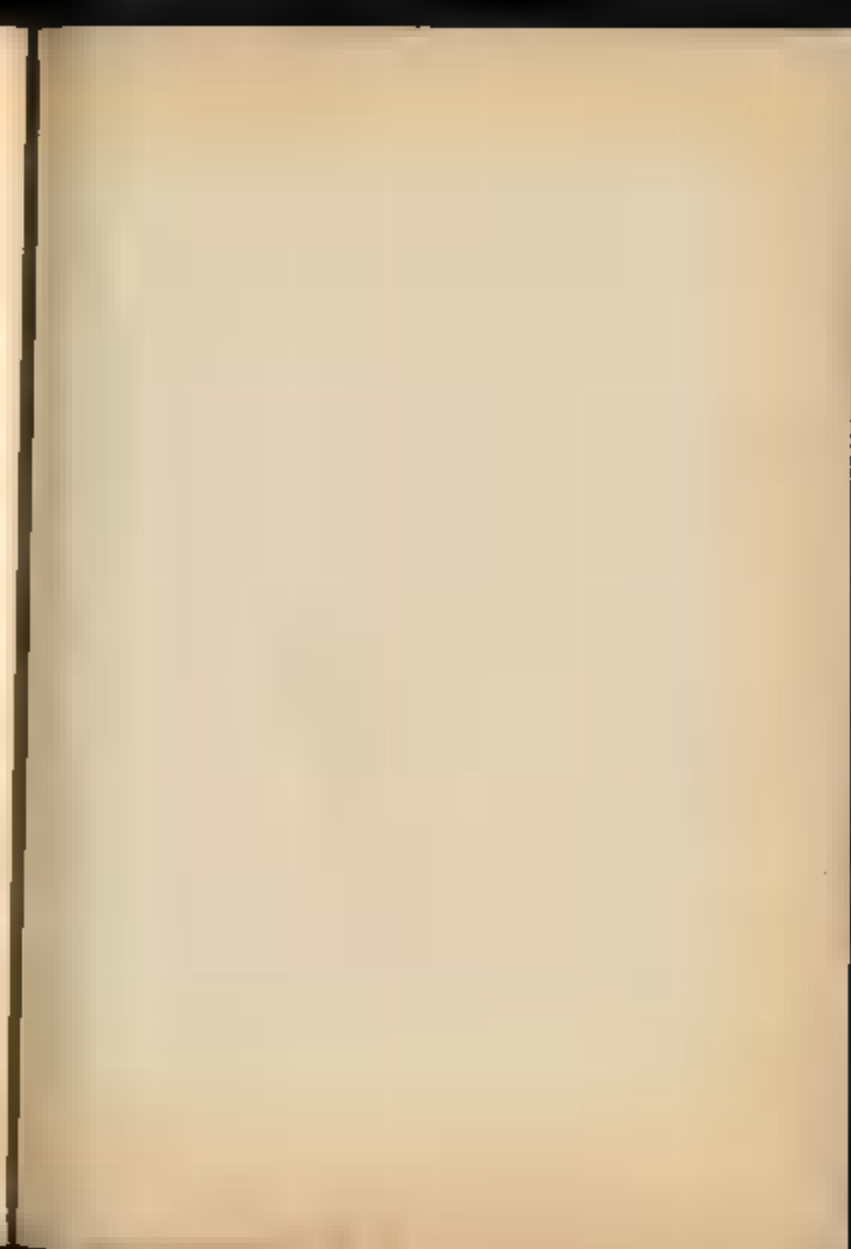
سرفانطيس يجمع البيانات على نبل تصرفه في الاسر

خرج سرفانطيس من المركب الذي كان مزمعا ان
ينقله الى القسطنطينية ليعاء في اسواق رقيقها واطل
على حياة الحرية كمن يسفيق من سبات عميق فيها
هو ذا الان بعد خمس سنوات من العذاب الاليم نال
ما دانت تصبو اليه نفسه وما لم تكن تمانف من بذل
حياته في سبيله ولكنه لم يوجه همه الى الأبحار حالا
لانه كانت تشغله قضية اخرى تفوق في نظره قدرا
الحرية نفسها وذلك ان المسمى بلانكو دي باث ذاك
المارق الذي وشى به الى حسان باشا عند محاولته
الاحيرة للفرار كما اشرنا الى الامر سابقا لم يكن عزمه
لنهن في ملاحقة كاتبنا والقدح به واحط من ضرامته
فما ناد يطلع على خبر افتكاضه حتى اقبل على الاب
خوان خيل ورفع اليه ان ميغيل سرفانطيس ارتكيب

اثنا المدة التي قضاها في الأسر عددا غير يسير من
الجرائم العمومية والخصوصية ونلتعت وشأينه كاتبنا فلم
يصبر على هذا الضيق وفضل على الإسراع في الإبحار
مع ما كان في نفسه من شوق إلى الوطن أن يبقى
في الجزائر الوقت الكافي ليمد من أعم تدوده وينبت لليلة
ببعض صفحته وبغير سيرته.

وفي فاتح شهر اضمور (شربين الأول) من سنة
1580 التمس نغريرا من حبانه خلال أسره في الجزائر
من الأب خوان حسن نفسه الذي كان يسكن في الوقت
نفسه ملك اسبانيا والنا ابي السلطتين الزمبية والروحية
ففي التحقيق تاتظمة امام الكاسب العدل الرسولي
بيدرو شي ريسيرا وقرع منه في الثاني والعشرين من
الشهر نفسه واسفر عن منح الأب حيل كاتبنا شهادة
مشرقة ختمت بما يلي: واثنا أسره قام بأعمال مجيدة
تستحق من جلائكم أن يضاف عليها. وفي هذا التحقيق
أدلى عدد كبير من نخبة الأسارى الاسبانيين بشهادتهم
ونخص بالذكر منهم ذلك الرجل التزيه الفاضل منال
التضحية والحبر الذكور ضون الطونيو دي سوسا
مجمعين كلهم على أن سرفانطيس كان منالا في فكران

الذات والسعي وقدوة سالحة بسيرته وأنه بذل في سبيل
 وفاته في الأسر مجهودا كبيرا مخاطرا بحياته من أجلهم
 وأنه مختصر القول كان لهم أبا وأما وبشير المؤرخ
 ضون نيقولاس ثبات دي بن خوميه في كتابه الحقيقة
 في أمر الكبخوطي المنشور في مدريد سنة 1878 أن هذه
 الوثيقة اكتشفها ثبات برمودث في قصر اللونخة بأشبيلية.
 وتجدر بنا الإشارة هنا إلى أن هذه الشهادة لم تنفع
 صاحبها كما كان يؤمل ولعله كان يعتقد أنه حسبه أن
 يباع مدريد ويعرض بده العطوبة وشهادته المشرقة ويذكر
 باسم ضون خوان ثبات جراه المنتظر لكن الواقع جاء
 معاديا لثبات ما كان يؤمله.



الفصل الثالث

سرفانطيس يطأ تراب الوطن

في يوم لا يعرف تاريخه بالضبط وانما يرجح انه
حوالي الرابع والعشرين من شهر اكتوبر من سنة 1580
وطأت رجلا سرفانطيس تراب اسبانيا فالركب الذي
كان يحمله ارسي في بلدة دانية من اعمال بلنسية وقد
خف جم غفير لاستقبال العائدين . ويقول سرفانطيس
في وصف ساعة الوصول هذه ان الاسارى خرجوا الى
البر واحدا واحدا تأمهم في طواف وقبلوا نرايه مرة
تلو مرة ودموع الفرح تغمر عيونهم .

واقاموا اباما قليلة في دانية ريثما اشد استقبالهم
رسميا في بلنسية ثم قصدوها مشاة على الاقدام ضأنهم
يسيرون الى الاشتراك في احد الاعياد الشعبية مارين
بالقرى والمدن الساحلية الى ان انتهى بهم السير الى
عاصمة الاقليم الشرقي نغني بها بلنسية وهناك استقبلوا
استقبالا حافلا ونوجهوا نوا الى القنصلية ليؤدوا
واجبات الشكر على وصولهم سالمين وكانوا مكشوفي
الرؤوس مرتدين جلبابا ازرق هو لباس الاسارى ووراءهم
بعض الصبيان يقرأون بصوت عال لائحة الاسارى

المثدين وهي لوحة كان الانيه الافنديون يطبعونها
ثم يباع ويورع ربيعها بين الاسارى المثدين.

على هذه الصورة دخل اسبانيا من كان يؤمل
حين عاثرها لعشر سنوات حلت ان يعود اليها تودة
الاجال المظفرين!

اقام ميغيل في بلنسية نحو من شهرين درس خلالها
حالة اسبانيا السياسية ومنها ضيق الى عائلته يعلمها
بوصوله سالما ويطلب منها ان تفتح تحقيقا جديدا في
مضيقه ليضيفه الى الشهادات التي جاء بها من الجزائر
وان تكون نتيجة مهياة لوقت وصوله وفي الرسالة
عنها يلتبس من والدته بعض المساعدة خاشعا لهما
بالساسة هذا عن حالة الفقر المدقع التي تلغها.

في مدريد

في اواخر سنة 1780 وصل ميغيل الى مدريد فاستقبلته عائلته بفرح عظيم وحنان كبير. وكانت حالتها المادية قد ازادت سوءا بما اضطرت الى دفعه لاقتداء الولدين ميغيل ورودريغو. وكان هذا قد انخرط برتبة ملازم ثان في ليف خون لوبي دي فيغويروا الذي انتقل بجنوده الى البرتغال. واما شقيقته اندريا فقد ترمست بوفاة زوجها الفلورنسيني اوفاندو وبقيت تقيم في دارها مع ابنتها كونستانسا دي اوفاندو بينما كانت شقيقته الاخرى ماشيلينا تزاد يوما بعد يوم ابتعادا عن امور الدنيا وانصرافا الى اعمال البر والتقوى. اما ابواها فقد اصحبا منهوكي القوى ضعيفي العزم.

وجد ميغيل في هذا الجو العائلي ما كانت تصبو اليه نفسه من حنان. لكنه لم تمض عليه سوى مدة قصيرة حتى عاد يفكر بامر مستقبله وما يحتاج اليه من اقدام وحزم. ولا بد له للحصول على ما كان يؤمله وينتظره ان يتصل بالبلائ الملكي ولم يكن البلاط اذاك في مدريد. وخبر ذلك هو انه بعد وفاة ملك البرتغال

ضون سباستيان في وقعة وادي الخازن وولي العرش
 فيه الشيخ الكردينال هنريكي الذي لم يلبث ان لي
 ذاتي ربه بعد قليل وبقي العرش شاعرا فتقدم شدة
 مطالبين من جبلتهم رئيس دير اوكراتو وكان من
 بين المطالبين ايضا ملك اسبانيا فليبي الثاني الذي
 كانت امه ابنة ملك البرتغال.

فاستدعى فليبي سفيره كرنسوبال دي مورا وامره
 ان يبلغ اشراف البرتغال دعوى ملضه ويظهر ان قسما
 منهم لم يكن راضيا على الامر فلما رأى فليبي الثاني
 ان القضية لن تحل بالسبل الدبلوماسية امر قائده
 الدوقي دي اليا ان يزحف على تلك البلاد وانتقل هو
 ببلاتيه الى مدينة بطليوس المجاورة للبرتغال ليحول منها
 الى لشبونة متى اقتضى الحال.

قضى ميغيل في مدرسة مدة شبر طويلة درس
 انماها الوضعية السياسية ونوع خاص الوضعية النفسية
 في العاصمة واني تردد وحل لم يجد الا التساؤم وادراك
 مناقب بصيرته الانحلال الاخلاقي المسيطر على اولي الامر
 الخيطين بالملك كالسوار بالعصا وعلم مما سمعه وشاهده

ان اصحاب المناصب الربعة انما يسعون معظم وراء
ارضاً مطامعهم وان الاستشفاع بها أثار من مآثر كجندي
اولاً واسير ثانياً قد لا يؤدي الى نتيجة تذكر. وان
معرفة ليبانطو قد انطوت في عالم النسيان انطوا
قائدها ضون خوان في عالم الموت فلا فائدة ترجى من
التلويح بيد معطوبة فيها وخمس سنوات في الاسر مليئة
باعمال التضحية والاقدام لكن هذا كله لم يشته عن عزيمه
وخل متفانلاً بمستقبله ورأى شمس الان طالعة من سما
البرتغال فصمم على الانتقال الى ذلك البلد آملاً
ان يجد فيه من اتحد ما لم يجده في ايطاليا وكان ما
يقوي فيه هذا الامل علمه بان في البرتغال والبلاد
صاحبه القديم مانو ناسكيس سكرتير الملك وضون انطونيو
دي ملويدو شقيق الدوكي دي البا ورفيقه وصديقه في
الاسر واحد الذين اختبأوا في الكهف حين كان ميغيل
يعد العدة للفرار وقد نجا سالماً بفضل اقدام ميغيل وتضحيته
وكان يؤمل ان يجد من كلا الصديقين عوفاً كبيراً ولما
يكن قد علم ان السلطان ينسى الاصحاب لكنه بعد ان
بصر بهذه الحيلة ايضاً يقول بوما في كتابه الخالد على

نسان بطله: فامل ياساتتسوا! ان الوخائف تبدل العادات
واعلمك ان رأيت نفسك حاكما تنسى امك التي ولدتك!
وبينما كان بعد الوثائق اللازمة في مدريد اخذ
يتردد الى النوادي الادبية مجددا صلته القديمة بالادباء
ومنعرفا الى غيرهم من الادباء الشباب الذين كانوا قد
بدأ نجمهم بتألق. فتعرف الى التيارات الادبية الجديدة
وفرا المؤلفات الحديثة واحس بنشاطه الادبي يتجدد وكان
الثن الجديد الفاشي هو فن قصص الرعاة واعمل فكرة
قصته لاشغالها فشأت في دماغه خلال هذه المدة.

في سنة 1937

وكان ميغيل يتردد على دار اخيه اندريا وقد
نصكون في احدى زياراته انت امامه على ذكر ضوئيا
صاحبا لنا سالازار ابنة احد الاشراف من بلدة اسكيفيا
وكانت تربط عائلة سرفاطيس بعائلتها قرابة قديمة
لكن كاتبنا كان يسبح في عالم احلامه فلم يعر تعريض
شقيقته ادنى اهتمام. وانما همه الاوحد بلوغ البرفغال

في البرتغال اسناد مهمة سرية الى سرفانطيس

بعد ذلك بقليل وصل سرفانطيس الى البرتغال مصحوبا بصديقه رودريغو دي تشافيس. وكانت تلك البلاد قد خضعت كلها لسلطان فيليب الثاني ما عدا جزر ترسيراس التي ظلت موالية لرئيس دير اوراتو الذي كان يتلقى مساعدة فرنسا وانجلترا. واصبح فيليب الثاني يسعد للانتقال الى مدينة طومار الى حيث استدعى مجلس الاعيان البرتغالي للانعقاد لان الوباء كان قد انتشر في لشبونة.

واتصل ميغيل نابللا وبدا مما كان يؤمله من وظيف اداري او رتبة يورباني اسندت اليه موقفا مهمة سرية لدى حاكم قلعة مستغانم في الجزائر بالقرب من وهران. فقد خلف بحمل رسالة وتعليمات شفوية الى الحاكم المذكور والقيام بهذه المهمة معناه مغادرة الوطن من

حشد والتعرض للاخطار التي تعرض لها سابقا من قتل
 أو أسر بين ايدي القرصان، لكن نفسه الكبيرة لم
 تكن لتعير الاخطار عظيم اهتمام.

فحمل الرسالة ونوجه الى قادم لينتقل منها الى
 وهران. وفي قادم دفع اليه محاسب البحرية الملكية في
 13 مايو (ايار) من سنة 1581 نفيزا الامر ملكي مؤرخ
 في 10 ابريل 1581 على حساب المائة الاسكودو
 التي عينت له كتدفقة للسفر، اما الخمسون الاخرى
 فتدفع له عند عودته، ومن هنالك انحر شطر وهران.
 قضى ميغيل مهمته على احسن وجه وشاد الى اسبانيا
 حالا وفي قرطاجنة في السادس والعشرين من شهر يونيو
 احررا من السنة نفسها اي بعد خروجه من قادم
 اربعة وثلاثين يوما قبض الخمسين اسكودو الاخرى
 وواصل السير الى البرتغال على امل ان يلقى الان
 النقيب الذي كان يعطل النفس به، وفي 13 من شهر
 يوليو (تموز) كان يتفرج على دخول الملك فيليب الثاني
 مدينة لشبونة دخول الفاتحين. وكان يوما مشهودا
 ترك في نفس كاتبنا اثرا عميقا اذ تجلت له فيه غلظة امته.
 ورأى سرفانطيس في جيبه مائة اسكودو والحياة

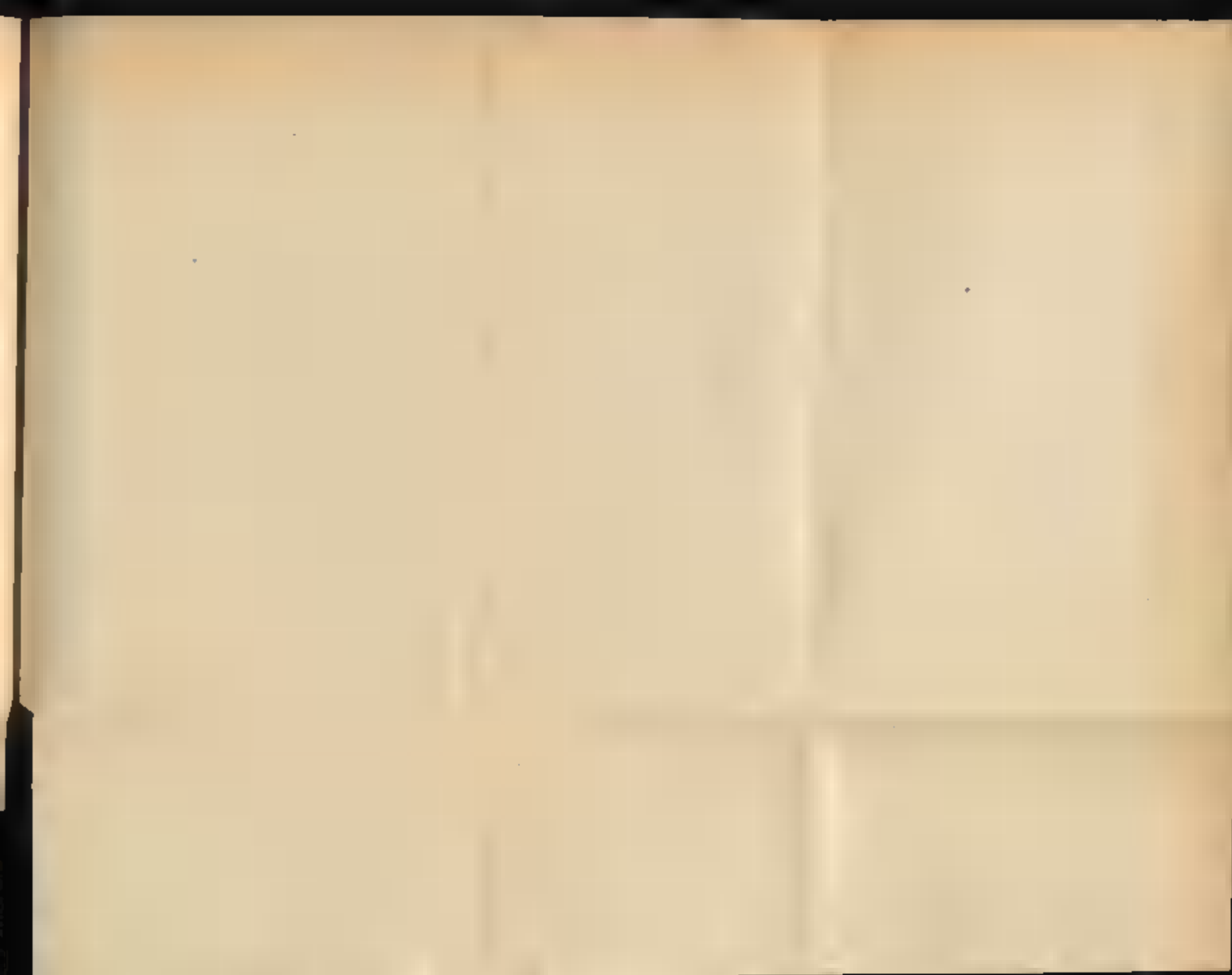
خافعة بالدغو والسرور في العاصمة البرنغالية فاستسلم
اليها مرحا كئنه نسي امر مستقبله ورأى مصيره أمنا
والحق يقال انه كان بحاجة الى اراحة بعد ما قاساه
من الم وعذاب في السواب الفاتنة. وكان من حقه بعد
ما قام به ان ينال مضيقا وانقا من مصيره وان يرجو ما
اتى به بيل ما يؤمله.

لكن جزر السعادة الأرورس كانت كما قلنا الانزال
ثائرة على فيليب الثاني مؤبدة لرئيس دير اوكرانو تساعد
خل من انگلرا وفرنسا الأولى سرا والثانية علانية
فقر رأي الملك ان يجهز حملة بحرية لاختناعتها فحشد
استوله في لتويه واستد قاده الى امير البحر الماريس
ذي سانتا كروثا وفي 12 من شهر يونيو احزن ارا
من سنة 1582 اقلع الاستول فاحدا جزر السعادة وكان
من جملة المحاربين الذين حملهم رودريغو شقيق ميغيل
الذي سجل في تلك الحملة صفحة شجدة اما ميغيل نفسه
فمسألة اشتراضه في هذه الحملة موضوع خلاف بين
المؤرخين فمنهم من يحرم ناله ان يشارك بها ومنهم من
يفي ذلك.

وعلى كل حال سوا ان يشارك بها ام لم يشارك فان



خرقة إسبانيا وفيها تظهر أسماء المدن والتعريب المذكورة في هذا الكتاب



المدة التي قضاه في لشبونة كانت من اجمل اوقات حياته. وخلالها كتب قصته الاولى التي عنوانها لاغلاطيا. ارقسيا كبيرا منها. ويرى المؤرخون انه استمد كثيرا من مصادرها من الجو الذي كان يعيش فيه حينئذ وخاصة من قبل نفسه ووليبة قلبه.

وفي لشبونة ايضا مثل دورا غراميا جديدا لاتعرف دراميله بالتصنيف. والتابيت عند المؤرخين هو انه اشهر بامرأة برتغالية يقال انها كانت من عائلة رفيعة واسمها آنا دي فرانزا وررق منها ابنة سميت باسم ايزابيل. ونرسم ان آنا دي فرانزا درست فيها بعد اما البنت فسميتي الكلام عنها في غير مكان من هذا الكتاب

العودة الى مدريد

مرت الايام تلو الايام وفرت الدناير من جيب
ميفيل واحدا تلو الآخر والعودة تأتيه تسرى دون ان
يقبل اليوم الذي يراها فيه تنقلب حقيقة ثابتة وفي نهاية
الامر استفاق من ذلك الحام اللذيذ وليس الحقيقة المرة
ناصبعه والحقيقة هي ان وعود من ضان يؤمل منهم
المساعدة مسندا على صداقهم القديسة وعلى نصحيه في
سييلهم انما هي مواعيد عرقوب فلم ير بدا من العودة
الى بيت ابيه وعودته في هذه الحالة انما كانت اشبه
منها بالخذلان.

وهنا بدأ سرفانتس يرى الواقع على علانه وبفهم
الامور على حقائقها والنفوس على اوضاعها وابصر ان
الصداقة كما تصورها ووصفها في قصته لاغلاطيا انما
هي من جملة احلامه ورأى الحياة في وسط هذا الجو
المسموم بالمضامع والاحقاد والشهوات حربا عوانا اشد
وحدة على نفسه الابية من ميادين القتال او سجون الاسر
وفهم الآن ان خروجه من الجرائر لم يكن خاتمة
جهاده بل فاتحته.

عاد اذا الى مدريد وتشرع يتصل بصيار ادباء عهده
 ويؤنس ثرى الصداقة خاصة بينه وبين خوسه خوان
 رومي غوتيريث مؤلف قصة اوسريادا ورفيق ميغيل
 في دفعة ليسانطو وعرفه هذا الشاعرين لويس شي غونهورا
 وشيرو شي باديا ولعله تعرف في ذلك العهد ايضا على
 لوبي شي بيغا الذي بدأ نجهه بألق حينئذ في سماء الشعر
 والسرور ولما يتجاوز الحادية والعشرين من سنه وفي
 هذا الوقت اتم ميغيل قصته الاغالييا وحملها برفقة
 مدته باديا الى الطباع بلاس دي روبليس فعرض عليه
 عدا ان يطبع له القصة مقابل قسمة الناس بها ونم الاتفاق
 بينها على ان يدفع له الف وثلثمائة وسنة وثلثين بليوناً
 وهي التمية لايسنها ان يهاو فوبلت بما كان يدفع اذات
 المؤلفين مقابل مؤلفاتهم وفي 22 فبراير اسباطا من
 سنة 1881 ظهرت القصة مطبوعة.

وفي هذه المدة منلت في مدريد بعض رواياته المسرحية
 منها معاملات الجزائر و نومانيا و المعركة البحرية
 ونبرها ونالت استحسان الجمهور واقباله

زواج سرفانطيس

لم تكن حالة عائلة سرفانطيس المادية كما قدمنا حسنة لأن ما انفقته لأقرباء ولديها من الأسراجهر على البقية الباقية من ثروتها الصغيرة فلما عاد ميغيل من البرتغال إلى حضن العائلة كانت هذه قد بلغت حالة يمكن وصفها بالفقر إلى حد أنه اضطر أن يرهق في شهر سبتمبر الأول من سنة 1583 ست قطع من المخمل الأحمر كانت لأخيه أندريا مقابل ثلاثين دقة.

وكانت أخيه هذه الأنقر تتحدث عنه إلى جنوبيا كاتالينا سالارار التي أسرت إليها سابقا ففعل كلامها فعله في قلب الفتاة التي اغرمت بميغيل ووقع التعارف بينهما وداخل الحب قلب ميغيل أيضا ولم يلبثا أن اتفقا على الزواج لكن عائلة كاتالينا عارضت في الأمر وبالرغم من المعارضة تم القران في 12 ديسمبر وكانوا الأول من سنة 1584 في كنيسة القديسة مريم في بلدة اسكيفيا ولم يحضر من اقارب العروس احد حفلة الزواج لما ذكرناه من معارضتهم في عقد القران.

ولم يلبث أن نشأ سوء التفاهم بين الزوجين لأن

ضوئها كإناثنا كانت لنا خلق على طرفي نقيض من
 خلق زوجها الذي نخبه حباً شديداً فهي متمسكة بتراب
 بلدنا ودارها وأملاتها نخب الحياة المستقرة العادية
 بينما هو يعشق الحرية والتنقل كالطير لا يعرف
 هدوا ولا استقراراً هي تفكر بحياة القرية والعناية
 بأرضها وكرومها وغلاتها وهو يهوى حياة الخيال والعناية
 بالشعر والقصص ونتاج الفكر هي تؤنر العيش في بيت
 الهادئ الهادي وهو يؤد العيش في مدرج الصاخة على
 النضال بالحلقات الأدبية وأرباب المسارح وأجواق التمثيل
 فأنى لهما أن يتفقا ولذا أخذ ميفيل بقسم وقته
 بين مدرج واسكيفيا ثم أخذت زياراته إلى اسكيفيا تقل
 بينها فشيئا حتى انقطع في النهاية وأصبحت زوجته
 في حكم المهجورة.

سرفانطيس ينصرف الى المسرح

قلنا سابقا ان سرفانطيس عاد من البرتغال خائبا وان امله بالحصول على منصب في الجيش او الادارة تلاشى، فلم يبق امامه الا الادب، وكان مغرما بالادب المسرحي ورأى فيه باب الخلاص ماديا وادبيا، وبمضوع خاص بعد ان رأى في رواجه خيبة جديدة. فانصرف الى المسرح بنشاط كبير ووضع في سنتي 1884 و 1885 عدة روايات منلت في مدريد ونالت استحسان الجمهور، واخذ اسمه ينتشر في الاوساط الادبية والمسرحية خاصة، لكن، نوبته هذا لم يثل لان مزاحما جديدا في هذا الميدان لم يلبث ان كسفه بين حملة من خسوفهم من امرا المسرح حتى خلا له الجو فخلق فيه وحيدا، وهذا المزاحم لم يكن سوى لوبي دي بيغا، فما ان بدأ يدفع رواياته الى المسرح حتى تقلص ظل جميع المؤلفين المسرحيين وسرفانطيس في طليعتهم.

وكان لوبي في عنفوان الصبا لما يجاور الحادية

والعشرين من سنة وقد اتاه الخط من كل جهة فهو
 تنسي الى عائلة رفيعة وشبه بحل منحصا من ارفع مناصب
 الدولة وقد منحه الله خلعة بهية ودخضا مفرطا وهو
 حسن عزف العود والرقص وهر الحسام ونظم الشعر
 ومعاراة الحسان وما شاء يدفع رواياته الى التمثيل حتى
 اخذت سيول الثروة تنصب عليه غزيرة فينفق منها عن
 عمة ويتقلب في احضان النعمة والرخاء.

ولعل سرفاطيس تعرف به في احدى حلقات
 السنين لكن المنافسة لم تلبث ان نسبت بينهما ولعلها
 كانت اقوى من جانب كائننا فان لوبي دي بيغا لم
 يكن له ما يحسد سرفاطيس عليه وقد اتسمت له الحياة
 وفتحت له ابوابها على مصراعيها ولعل ميغيل على حيلة
 قلبه ونبل نفسه وتهامته كان ينظر وهو يهوي ضل
 يوم من سوء الى اسوأ بسي من الحرارة والالم الى
 مناقسه الراجع في حبوحة من العيش كان هو يعلم بها
 ويرى نفسه جديرا بها وانه وان كان يعترف بتفوق
 لوبي في المسرح لايمكنه ان يخفق في نفسه هذه الثورة
 على من قضى على آخره امل من آماله.

وفي هذه الأونة فجع بوفاة والده ضون روضيغو
الذي اسلم الروح في 13 يونيو حزيران من سنة 1585



ابتعد ميغيل عن المسرح فاختلعت الدنيا امام عينيه
وبات حائرا لا يدري صوب اي شاطئ يوالي وجهه فلم
ير بدا من الاستعطاف والتذلل والوقوف على ابواب
الكبراء وقضا الساعات الطويلة في قاعات الانتظار سعيا
ورا وخيف بضمن له النجاة من هوة الفقر السي
وقع فيها.

سرفانطيس يعود الى اشبيلية

حابت مساعي ميعيل في الحصول على الوظيفة كما حابت آماله في التفوق كمؤلف مسرحي، واخذت الدنيا ترداه في تينيه ظلاما ففسي هذه الآونة في سنة 1588 براد يعود الى اشبيلية مدينة صباه واحلامه، لكنه لم يابها هذه المرة كما اتاها لعقدين مضيا يوم كان السباب يصع وجهه والامل يملا جوانبه والمستقبل لما يزل امامه صفحة بيضا يؤمل ان يسجل عليها سطورا مجيدة لا بل خاها الان ويباض الشهوة قد صبح مفرقه ونوالي التكمات قد حظ من غرره والفشل قد قص جناحي حاله المتقد وسود من صفحة المستقبل اسطورا شقية كئيت بما البؤس والتعاسة جاها الان كرجل عادي، ميعيل لبعض المحلات التجارية المدربية ليقبض لها ديونا من نجار آخرين في اشبيلية وقد يكون للقيام ببعض عمليات تجارية صغيرة لحسابه الخاص. كل هذا ليضمن

لنفسه بعض موارد الرزق الذي ضاقت تنسده في وجهه
اجوابه كلها.

لكن اقامته في السبيلية لم تطل هذه المرة . وما
ان قضى المهام التي جاء فيها حتى عاد الى مدربد . ومنها
انتقل الى اسكفيا . اد غراه في الخامس والعشرين من شهر
اكتوبر (اشرين الاول) بنوى هو ووجهه صفة سرايين لفتاة
فلقت ذلك النهار ما العباد في كيسة تلك السدة عبر
ان اقامته في اسكفيا لم تطل . بن عاد الى مدربد الى
تلك الحياة التي تضاد ان نضون نسرده . وتعاد الى
الضفاح في سبل العيش

سرفانطيس يعين مفوضا لتموين الجيش

استقام الامر لفيليب الثاني في البرتغال لكن
انكلترا خلت تناوته وتباعد في اعمالها الاستغرافية فأوت
رئيس دير اودرافو وواسلب مد التوار في فلانديس
سما كان قرامستها يصدون للمراضب الاسبانية
الراجعة من اميركا فسلطونهما بحمله من الذهب وذهبت
سبع احتجاجات اسبانيا اذراج الرياح وما طفق الكيل
امر فيليب الثاني ببناء اسطول ضخم في لسبونة وبلغ
الجبر انكلترا فقلقت في بادى الامر لظنها ما لبثت ان
تدق قلبها واستحوذت عليها موجة من الحماس شمت
جميع سكانها على اختلاف مذاهبهم وبدأت بدورها تعد
العدة للصراع الذي لم يكن منه بد.

شرع فيليب الثاني ببناء الاسطول وفي الوقت نفسه
سرع بتمويله وتجهيزه وكانت العادة في ذلك العهد ان يقرض
النسويين من حبوب وريث على لندن والقري كبل على
قدر اهميتها وتوضع بالمقرض ثوانح فرسل الى سلطات

كل بلدة، وهذه تجبى الكمية المقيمة حتى اذا اقبل مفوض التسوين - وهو الموظف الحكومي - استلمها وبعد مدة يدفع ثمنها من الذهب القادم من امريكا على الغالب، وكانت الحكومة شأن كل الحكومات في ذلك الزمن تتأخر اشهرًا يدفع الثمن وذلك ما يثير ثائرة المزارعين فيصبون حام غضبهم على مفوض التسوين الذي كانت مهمته لهذا السبب شاقة في الصعوبة.

وقد ساء حظ سرفانتيس الذي كان يكافح الفقر والعوز ان يعين مفوضاً للتسوين في احد اقاليم اسبانيا الجنوبية، واضطر الى قبول هذه الوظيفة التي لم تكن بالمغرية لضيق ذات بده وخيبه في الحصول على غيرها مما كان يصبو اليه.

وفي اواخر سنة 1586 او اوائل السنة التالية انتقل الى اشبيلية ليستلم وظيفته، وتوجه الى فندق طوماس غونبيرث الذي كان في اول امره ممثلاً وصاحب جوق للممثل وكانت تربطه بكتابنا صداقة قديمة من ذلك العهد، ثم تخلص عن حرفته السابقة وفتح له في اشبيلية فندقاً كان يعتبر من ارفع فنادقها وفيه ينزل كبار الضيوف والزائرين سوا قدموا من بقية افحاء اسبانيا

ام من الخارج وقد مد لسرفانطيس يد المساعدة في غير
 ما مرة. لكن كاتبنا انتقل بعد مدة الى فندق آخر اقل
 فخامة وارخص ثمنًا.



ما كئيد ميغيل يصل الى اشبيلية حتى توجه الى
 ربانة المأذون ديفو دي فالديفيا نائب مفوض التموين
 اعام ضون انطونيو شي غيبارا الذي كان اذالك غائبًا
 عن المدينة. وبعد ايام قليلة خرج سرفانطيس من اشبيلية
 متوجها الى بلدة استجة ليلتشر القيام بهام وخلقته الجديدة
 لكنه لم يلبث ان اخذ مصطدم بالعقبات والمصاعب لان
 المزارعين كثيرا ما كانوا يمانعون بتسليم الغلة المفروضة
 عليهم لتأخر ميقات الدفع وبدلا من ان تجبرهم السلطات
 المحلية على تسليمها كانت تكفي بما يدفع اليها من
 ضريبة خاطر - ولم يكن الا القليل - قاركة امر استعمال
 القوة الى المفوض الذي يصبح والحالة هذه قبله احقاد
 الجمهور اصف الى هذا ان بعض رجال الكنيسة كانوا
 من جملة الذين يستنعون عن تسليم التموين ولذا ما
 ضاد يسر على ميغيل سوى وقت قصير في الوظيفة حتى
 استندم بالمستعين الصدمة الاولى وكان ذلك في بلدة

استجة حيث اضطر لحجر كمية من الحبوب والزيت
 صان قسم منها تلك الكنيسة والقسم الآخر ملك رجاها
 فصدر حرم كنسي بحقه واُضطر الى الذهاب الى اشيلية
 وبعد أخذ ورد رفع الحريم عنه وارجع المحجور الى أصحابه
 وقد وقع له حادث آخر منته في بلدة كاسترو على ريو.

لكن تصرف منفي في وظيفته رغم سدنة الخارجية
 اضرب له اعجاب المراقبين وتقديرهم لانهم رأوا فيه
 موطئا نزيها وما اقلبه في ذلك العهد. ولذا حين وجهت
 اليه التهمة مرتين بأنه اسبقى لنفسه بعض ما جناه
 للبحرية هب هؤلاء الذين كانوا اكبر معاندين لاوامره
 أنفسهم ليدافعوا عن نزاهته وبشهدوا ببياض صحيفته
 وصدق تصرفه.

وفي سنة 1588 اردادت وظيفته انستعا اذ عهد اليه
 فضلا عن مهنة السابقة امر طحن الحبوب ونقلها وبعد
 مدة اُضيف اليه امر حبرها وشحنها فصاد المستحقين ان
 يغرق في هذا البحر الخضم من الاعباء التي لم يخلق لها.
 وكان تردده على اشيلية في هذه الآونة قليلا
 واقامته فيها حين يزورها قصيرة اما علاقته بالادب
 فكادت ان تكون مقطوعة ولم يبق بينه وبين المسرح

ملة فانه لم يكن يوماً مؤلف ثلاثين مسرحية فوطلت بالاستحسان
في نفس مدريد لا ان حياته الآن حياة عمل لا تمت الى
الادب بصلة واشغاله العديدة تستغرق كل مجهوده
الجسمي والعقلي والجو الذي يعيش فيه والمحيط الذي
يحده به لا يعرفان للادب معنى.

في ١٩٠٤

في ١٢ يوليو تموز من سنة ١٥٨٨ خرج الاسطول
الاسباني من مرفأ لا فورتويا الواقع في الشمال الغربي
موليا وجهه شطر انكلترا لخص الحملة اسفرت عن
اندحار كبير سببته العاصفة الهوجاء التي هبت وسوا
الاية قائدها مدينة صيدونيا وفي ١٢ سبتمبر ايلولوا
من السنة نفسها وحملت بقية الاسطول الاسباني المتدحر
الى سانتندير ومن الثلاثين الفا الذين خرجوا من
لا فورتويا لم يرجع سوى عشرة الاف واعتبر هذا الانكسار
اعظم انكسار اصبحت به اسبانيا لانه عجل تدهورها ودل
العالم على ضعفها وانحلال قواها واعتبر مبدأ عهد
انحطاطها.

وكان سرقانطيس حينئذ في اشبيلية فتألمت نفسه
ثامنا شديدا وهاجت عواطفه وسألت قريحته فتناول القلم

ونظم قصيدة عامرة فياضة بالروح الوطنية والعاطفة
القومية وختمها بندا حار موجه إلى الملك فيليب الثاني
يدحوه إلى اعداد اعدة لغسل العلم الاسباني من ادران
هذه الهزيمة والنار لحد العار.

لكن الوضعية في اسبانيا كانت قد تبدلت
والتمسية انقلبت واضفي بالقلا نعة الانكسار على العاصفة
واسدل السار على المأساة كأن شيئا لم يجز. وذهب
صبغة سرفاطيس كمن يفتح في واد ولم يحرك فيليب
الثاني ساطنا واقصر على فرداد الكلمة التي فاده
والده الامبراطور كارلوس الخامس (شارلكتين) بعد
هزيمته في وقعة البسروك ان الله لم يرده.

سرفانطيس يحلّم باميركا

لم تزل التكاثرات تنصب على سرفانطيس، فها هو ذا
الآن بعد أن أصيب الاستول الأسافي بالانكسار بمضى
مد وطيفة مفر المدين آمال له تنفق منه ولا مورد
يراه فصاد بصبي ثالثة على صدقائه ولا شعيب ان
رأته في هذه الحالة فصره الانفال ان اميركا لان هذه
الفترة صامت حسنة فنية الحسب ومخط آمال التكوين
المسمن فاحذ معبل بعد العده لسفر اليها

وفي شهر فبراير اشباحا من سنة 1580 قدم لائحة
لرءها بأسماء مغاظة بما افقه في ما تحته من الجيوب
في استحة وقد جا في اللائحة: اقدم بانه وبشارة الصليب
ان ختل ما ذكر افقه على الضعن وفصلا عن ذلك
انفقت كميات اخرى لم اقبدها واني توقع هذا البيان
باسمي الخامس في ١٠ فبراير اشباحا من سنة 1580 .

وبعد هذا التاريخ عدة قلطة نراه يستوفي من احد
اقاربه المسمى خوار دي سرفانطيس حسيمن دقة قد
يكون اسلفه اياها حين كانت حالته اختار يسرا

وفي يونيو حزيران من السنة نفسها وقع لصديقه
 القديم توماس غونثيريث صاحب الفندق الذي اشرنا
 اليه من قبل في استيلاء سندا مائيا يسفاد منه ان ميغيل
 كان مدينا له بكلمة من المال وقضى فصلي الصيف
 والخريف وهو يقدم لإدارة المائبة بيانات عن حساباته
 وكانت المائبة مدبنة له براته ضله لانها كما قال احد
 المؤلفين لم تكن تدفع لوظيفها رواتهم ومع هذا كانت
 تطالب منهم حسابات واضحة .

وفي هذه المدة علم بان بعض الشاغب شاعرة في
 اميرنا فطمعت نفسه الى شغل احدها ولذا بعد ان
 فرغ من تادئة حساباته الى المائبة وسقى قضاياه الخاصة
 تناول الغلم في شهر مايو (ابر) من سنة 1590 وخطب
 الى رئيس مجلس العهد - وهو المجلس القائم اذالك
 بإدارة توفون اميرضا - العريضة التالية:

مولاي: يقول موقعه ميغيل دي سرفانطيس سافيدرا
 انه خدم صاحب الجلالة في المعارك البرية والبحرية التي
 وقعت منذ اثنين وعشرين سنة ونوع خاص في المعركة
 البحرية (البيانطو) حيث اصاب بعدة جراح وفقد يده
 بسبب حلق ناري وفي السنة التالية شهد معركة فافارينو

ثم معركتي تونس ولاعولبطا ولما كان شائدا الى هذه
العاصمة في المركب حول مرودا برسائل من مولاي
خير خان والدوكي دي سيبا لينعم عليه صاحب
الجلالة بما يستحقه وقع اسيرا هو واهله خدم جلالتهم
في المعارك نفسها ثم اقيدا الى الجزائر حيث انقضا ما
كان لهما من مال لاقتدا "نفسهما من الاسر" وكذلك
اقتدا كل ثروة والدينهما ومغر احبيهما اللتين بقيتا
فقرتين لتفتديا اخويهما وبعد افكاحهما من الاسر
حدهما صاحب الجلالة في البرتغال وفي الجزر الملنات مع
الابنيس دي سانطا كروت وما زال الان في خدمة
جلالتهم الواحد في فلانديس بربنة ملارم اما الآخر ميعيل
دي سرفانطيس فهو الذي حمل الرسائل والتعليمات الى
حاكم مستغانم وذهب الى وهران بأمر من صاحب
الجلالة وبعد ذلك ادبى خدمته في اسبيليس في تسوين
الاستول تحت اوامر انطونيو دي غيبارة كما هو مذكور
في الافادات التي لديهما وحول هذه المدة ضلها لم ينعم
عليه باية وظيفة ولذا فانه ينتمس ويرجو بطل نواضع
من جلالتكم ان تمنعوا عليه بوظيفة في الهند (اميركا)
من الثلاث او الاربع الوظائف الشاغرة الان وهي: محاسب

مصلحة عريضة الجديدة أو حاكم سوكونوسكو في بلاد
توانيبالا أو محاسب المراكب الملكية في قرطاجنة أو
صاحب المظالم في مدينة لاياث فاية وثليقة منها انعمت
بها عليه جلالكم قبلها لأنه رجل حادق ودو استحقاق
ضاف لتعم عليه جلالكم بوليقة ولأن رغبته في البقاء
ابدا في خدمة جلالكم وحتم حياته لما ختمها سلفه من
قبله وفي حاجة منه بآتي حبرا وأقرا .

قدم سرفاتيس العريضة وحمله أمل بان عليه
سبب حجاب فكون خاتمة احرائه وفاتحة تهدد السعادة
والرحا ونسما ضان بسفر الجواب الذي لم يكن بموعده
الا تحققا لاماله نزع سم ما نفى له من معاملات ففني
الا من شهر يوليو انورا وقع نوكللا لخلل من روجه
خونيا كساناليا واحته خونيا ماغديليا لتوباعته في قبض
ما يجب له سوا كان مالا ام سلعة والمراقبة في سائر
فصول الخصاء ان اقتضى الامر .

وانتقضى الصيف كله وتبعه الحريف ومبغبل في
انظار الجواب على عريضته في انبيلية وكاد يقبل
الشنا برمبربره وحمله نحت من سبي الى اسوأ الى

ان عجز عن شراء كسوة شتوية يبقى بها البرد القارس
 فاضطر الى اللجوء الى اصدقاءه وفي ٤ نوفمبر اشترى
 الثاني اشترى خبسة اذرع ونصف من القماش الردي من
 امان ميعيل دي كافيدس وشراؤه وامضى بتمنها
 وقطره عشرة دلائل سدا مائتا يستحق بعد مرور ثلاثة
 اشهر وكفله صدقة القنصقي ملوماس غونيريش الى هذه
 الدرجة من الفقر بلغت حالة كاسيا في هذا العهد

وبعد مدة بلغ ميعيل القرار النهائي في الجواب على
 عرضته وقد وقع على اسمها ان تبحث عن وظيفة
 تسد اليه داخل البلاد الاسبانية

وما ان بلغه الجواب حتى اعلنت الدنيا في وجهه
 من حديد وودع امانيه المعسولة واماله المذهبة ورأى
 نفسه في الهوة من جديد كأنه لم يكتب له سوى مرارة
 الحنة والى الشقاء

عودته الى مفوضية التموين

في الاشهر الاولى من سنة 1791 قدم اسيلية ضون بدرو دي اسوسا وكانت تربطه سرقاتطيس صداقة قديمة لمشغل منصب ادارة التموين في اسكندرية الجنوبية بدل انطونيو دي شبارا الذي اشفي من هذا المنصب فكان وحموله يرادوا وسلاما على قلب مغيب الذي رأى فيه بابا امل جديد فخط اليه مساهما مسعطفا فمرض عليه اسوننا ان يعود الى وظيفته كمفوض التموين ولم يجد مغيب له بدا من القبول لاسداد حاجته الى مورد المرزق فقبل على مضض وعاد الى حياته السابقة حياة التنقل بين المدن والقرى وجمع المؤونة والاعطاش بالاربعين المعاندون وفي سنة 1792 ثم اسيلية مدير جوق تمثيلي شهر في مدريد اسمه روبرتو اوسوريو وكان سرقاتطيس يعرفه من عهده السابق اذ كانت تمثل مسرحياته في العاصمة وليس من السعيد ان يكون اوسوريو نفسه قد مثل مسرحياته فانشرح لهذه الملاقاة صدر كتابنا

وانتفعت نفسه وتبليت افكاره واستفاقت ميوله
الادبية من سائها العميق وشادت الى مغيله
ذكرى تلك الايام البعيدة ايام كانت مسرحياته تمثل
في مسارح العاصمة وتقابل بالاسحسان الكبير والتصفيق
الحار وكان الذكرى جددت في نفسه الرغبة التي كادت
ان تكون ميتة واسرجع الثقة بنفسه والامان بقيسته
وتغريته فوقع مع روبرتو اوسوريو تقدا بتعهد موجه
ان يقدم له ست روايات مقابل خمسين حدة عن كل
حدة يقدمها له عند حذره وتمثل ضمن العشرين
يوما التي طر التسليم ومن حيلة ما حان في العقد وهو
ثلاثة شلى ثقة سرفانتيس بنفسه واذا ظهر بعد التمثيل
ايضا من احسن المسرحيات التي مثلت في اسبانيا وحب
نزه دفع الكمية المذكورة واذا ظهر انها ليست من
احسنها كان في حل من دفع اية حصة كانت

سرقانطيس في السجن

لأندري أن ضان سرقانطيس قد وُجِعَ المسرحيات
التي وعد بها لم لا وعلى الأرحح أنه لم يضعها وعلى كل
حال من المات أن واحدة منها لم تمل وبدا لها
كان يؤمله ما مال ويحد إذا نه بزج بقعة في السحر
لنقاسي امر الإلاء واشبع الولادات

وحبر ذلك هو أن الاحلاس الفاحش الذي كان
يرتكبه مفوضو النورس في ما تصل إلى أيديهم حدا
بالحكومة بعد أن استندت الحبر عنا في نذارك الأمر
إلى تعيين مفوضين على المفوضين لظن الدوا حيا
أقبح من الداء وما كان يفعله المفوضون صار يفعله
المفوضون وعليه يزيدون وهذا التدبير أوقع المفوضين
في أخرج مارق فمن جهة معارضة الشعب وممانعته
ومن جهة ثانية كيد الأعيان والضار ومن جهة ثالثة
كيد المتقنين الذين صنفوا معظمهم يعملون لحسابهم
الخاص أكثر مما يعملون لصالح الدولة.

ونكب سرقانطيس بمفوض من بلدة استجة اسمه
فرنسيسكو موسكوسو فكان هذا يضمرف مفوضنا المسكين

حفدا كبيرا لعله يعود الى العهد الذي كان فيه سرفانتيس
جميع المؤونة من تلك البلدة مما ان ضادت ثيلغه
ونالة بان سرفانتيس اخرج ثلاثمائة فسقة من القمح
من مخري استجة حتى وجه امر اذون سابق تحقيق في صحة
الوساية الى بلدة ضاسترو وذل ربو حيث كان سرفانتيس
يقوم بهام وخيفته ليلقي عليه العطل فحاول ان يثبت
براهه لكن محاولته ذهبت اذراج الرياح وعلى مرأى
ومسمع من الجميع اقتيد الى سجن البلدة ورج فيه.

وقد شغل السجن في نفسه ما لم تعلمه المضيات
ولا الاخطار ولا اسواف الاسر المحس مع ما رافقهما من
الاعمال الا انه رأى في حسه على هذا الشغل بعديا وظلما
ومسما واغرك هذا مدى السر الانساني ومدى ما يفعله
الحمد في النفوس وان اي حد من العظم والسر يدفعها
ولم ينعه عن الابتعاد عن جادة الخير سوى طيب نفسه
وندمها هذا النبل الذي لم يعارقه قط في ايام السدة والشقا
نما خرج من السجن حتى وجد رئيسه وصديقه
اسوثا في حقيق سبب وشاية رفعت به يزعم فيها ان
معاون سرفانتيس واسمه نقولا ينطو استولى على كمية
كبيرة من الشعير الذي للجيش الملكي وانه وان كانت

الوشاية موجهة ضد المفوضين فقد قررت هؤلاء جانبا
ووجهت التهميات ضد رئيسهم اسنونا بقصد ايقاعه في
المصيدة ومحاكمته مع تعريض شخصه لخطر السجن واعلا
خطر الحجر وعلم مبعين الوشاية فلم يتردد في التصدي
للدفاع عن نفسه وحليفه ووجه رسالة الى الملك يلتمس
على عاتقه كل نعمة في هذه القضية مؤكدا براءة اسنونا
الامة ومنعهذا بتقديم ضمانة من كل ما وجهت له
التهمة وطالما ان ربح اسنونا ادلى ابراج بسبب هذا
لا في شخصه ولا في ماله.

لكن نحس الحاسبات لم نعر رسالته كبير اهتمام
وخللت القضية قائمة وما حلها سوى وفاة اسنونا التي
حدثت بعد ذلك بقليل فعنصره من المحاضرة وما قد
يعقبها من حجر وسجن.

خلف اسنونا في رئاسة ادارة المؤونة في اشبيلية
الحاسب ميغيل دي لوبندو ورغم الحادثة الاخيرة ظل
سرفانطيس في منصبه وشهد اليه هذه المرة جباية المؤونة
من القسم الغربي من اسبانيا الجنوبية فطاف عددا كبيرا
من المدن والقرى وجمع المؤونة على حسب عادته لكنه

أصبح أقل نشاطاً وأقل مرحاً وأصبحت نفسه التعبية تنوق إلى الراحة والمهدوء.

وفي هذه المدة يسما كان يجتاز تلك المرحلة المؤلمة من حياته كانت والدته العجوز ضونيا ليونور دي تورييناس تات النفس الأخير في دار حقيرة من شارع ليعانيطوس في مدريد ولم يكن حولها لعمى جفنها سوى ابنتها أندريا وماغدينا أما ابناها ميغيل ورودريغو فلم تتعم مساعدهما قبل أن تسلم الروح. وكان ذلك في أوائل نوفمبر تشرين الثاني من سنة 1788.

وفي ربيع السنة التالية انتقل ميغيل إلى مدريد لتصفية بعض القضايا مع إدارة المالية. وفي هذه الرحلة انضم الفرحة لتصفية بعض قضايا الخاصة ومن حملها تدبر أمر ابنه غير الشرعية ابرام دي سايدرا التي كانت مسجلة رسمياً كخاتمة الوصو ورودريغو وآنا فرانكا قدر ميغيل الأمر بحيث لا تبقى الفتاة مهملة وبعد ذلك بسنوات في 11 أغسطس (آب) من سنة 1790 تعهدت اخيه ضونيا ماغدينا بعقد ثنائي بأن تتخذها لخدمتها وتكفل بتربيتها والتعهد من هذه الصورة احفا الحقيقة عن زوجة سرفانتيس.

وبعد ما صفى ميغيل ظل القضايا واعسد العدة
 المرجوع الى اشبيلية اذا به مفاجأ نبأ العاهة مفوضيات
 المؤونة واعادة تنظيم تسوين الاستول على اسس جديدة
 فانقض النبا عليه كضائقة ورأى نفسه من جديد
 دون مورد رزق يرده مما كان منه الا ان استأنف
 الالتماس والالاح حتى حصل احيرا على وظيفة جديدة
 بواسطة رجل اسمه اغوستين دي سنبيا ضان من
 دي قل خاسبا في اشبيلية وهناك تعرف به سرفانطيس
 وادانت الوظيفة الجديدة جماعة القبالات المتاخرة في
 مملكة شرناخته وادان اند قبل اسلامها من تقديم
 ضمانة مالية فكيف العمل وميغيل لا يملك شروى تغير
 ويعز عليه ان تذلل لامرأته لضمته واخيرا وجد ضامنا
 في شخص رجل اسمه فرنسيسكو سواريث دي تاراكون
 لكن الضمانة التي قدمها هذا لم تكن ضافية وفي آخر
 الامر لم ير ميغيل بدا من اللجوء الى زوجته فاقنعها
 لتساعده على امنيته وفي 21 اغسطس (آب) من سنة 1594
 وقعت امام الكاتب العدل خبرونيمو فليكس تعهدا بالضمانة
 المطلوبة وبعد يومين صدر المرسوم الملكي بتعيينه في
 الوظيفة فودع زوجته واخيه وخرج في مغامرته الجديدة

وكانت الوظيفة صعبة التنفيذ اضطر حطرا وتعقدا
 من الوظيفة السابقة ففي اواخر شهر سبتمبر (الاول)
 دعي مدينة وادي آس وفيها باشر القيام بشهام وظيفته
 لكنه سرعان ما وجد ان القسم الاضيق منا عهد اليه
 حذاته قد جبي سابقا وانفق بين روائب الجباة والكتاب
 والخاصيين ونفقات تنقلاتهم وانفسه الاخر جبي ايضا لكنه
 موقوف على تصفية الحساب فلم يجد سوى قدر ضئيل
 ومن ثم انتقل الى بلدة ناعما واحططد فيها نفقات جديدة
 اخرى ان يطيل اقامته فيها اضطر مما كان يؤمل ولهذا
 لم يذبح بلح - مائة كان الاحل الذي عين له قد انصرم
 فكتب الى مدريد لنتمس ائتمانه ثمرين يوما واستجيب
 اليه فانتقل الى مالقة ومنها الى رندة في 11 ديسمبر
 الاول ومن ثم واصل السير الى مطريل
 فساورينيا وعبر الجبال في قلب الشتاء حاملا ما امكنه
 ان يحصله ودخل اشبيلية معموما معهورا تقضى عليه
 مصححه تلك الحسابات التي لا تعرف اولها من آخرها
 دخل اشبيلية ثم توجه الى مصرف سيون فرايري
 ودفع اليه قسما من المال الذي بيده وسلمه مقابلته حواله
 على نميله في مدريد كي لا يقوم بالرحلة من اشبيلية الى

مدريد حاملا المال كله، لخص حظه العاثر أبى إلا أن
يسنى بنكة جديدة، وذلك أنه قبل أن يبلغ مدريد جاءه
الخبر بفلاس مصرف سيون فرايري، فعاد على اعتاقه إلى
أشبيلة مسرعا وحين وصلها وجد أن عماحب المصرف
قد فر من إسبانيا بينما كان الحجر جاريا على ماحلقه وراه
من أملاكه وبعد أيام قليلة تلقى ميعيل من مجلس
المحاسبة رسالة تهددته فيها إذا لم يوفق إلى اسرجاع
الكمية التي سلبها إلى المصرف فعظم همه وزاد غمه والتجأ
إلى ذوي النفوذ وجادل ونضرع وبعد اللبثا واللبثا أمكنه
أن يسترجع الكمية كلها وبعد من نفسه شبح السجن
المتمثل سيفه فوق رأسه.

الجزء الثاني

لم يرجع سرفانتيس إلى مدريد للمنول أمام مجلس
المحاسبة بل فضل المقام في أشبيلة ولم تعد نفسه ترغب
في الوظائف وانقضت سنوات عديدة لا نعلم عن حياته
خلالها شيئا البتة وأول خبر عنه يعود إلى اشتراكه بعد
ذلك بمدة طويلة بمساراة شعرية أقيمت في سرقسطة
بمناسبة تطويب سان خاسيطو قديسا، ونيله الجائزة
الأولى فيها.

في اشبيلية

بقي سرفانطيس في اشبيلية ولا شغل يستغرق وقته وجهوده فانصرف الى التفكير والتأمل واخذ يستعيد في عالمي اشبيلية الهادئة ذكريات الماضي واحلامه الخائنة وآلامه الصائفة ويقابل بين ما كان يؤمله وما صار اليه فماتت تتحسم في دماغه فكرة ساورة منذ تعد فكرة تصوير القلب السيل سائما وراء التل الاعلى فتعظم في دل دلوة بعقبة اقامتها النفوس الساردة وما نضجت هذه الفكرة في دماغه سراع بوضع مؤلفه الخالد جنون ليخوطلي لكن الحياة حواله ظلت حائرة في معاربه العادية متعبة باحلامه عرض الحائط ومن حملة حوادث هذه الحياة قضية المقالات التي لما تكن قد انتهت اضف الى ذلك ان حساباته منذ ان كان متوخا للمساكين لم تصف بعد فكل هذا كان بساية حذر دائم يهدده وما لبث مجلس المحاسبات ان ابلغ منته في اشبيلية ان يطلب من سرفانطيس تقديم ضمانات عن الكليات التي مازالت في دمه من المقالات وان يسد عليه الى العاصمة لتقديم الحساب بلا تاخير والا فليقبض عليه ويقده معقلا الى

مدريد، فاضتني منى المجلس بحبه في سجن اشبيه
ومنه ارسل مبغين طلبا الى مجلس المحاسبات يالسيس
اخلاق سراحه نظر القصة الكلبة الناقبة في ذمته ولاستحالة
ترتيبه اوراقه ما دام في السجن فاستعجب طلبه واطلق
سراحه بعد ان قضى مجبنا ثلاثة اشهر.

وفي السجن تعرف على الكاتب الشهير مانو اليسان
مؤلف قصة فرمان بن الفرج من امهات قصص الشطار
الذي قضى في ذلك السجن ولمسب نفسه سنوات عديدة
وتعرف ايضا على كبير من مساعده الحياة واسرارها
باخلاصه بذلك العدد الكثير من المساجين الذي كان
يتجاوز الالفين من مختلف الطبقات الاحتماعية.

خرج من السجن وعاد الى حياة السقا والبؤس
وتلفظي السموم دون ان يعرف عنه شيئا التة وجل
ما تعلمه هو انه في سنة 1517 تضم موشعا في رنا الشاعر
هيريرا الذي كان موشوع احتجاب سرقة انطيس في ايام
الضبا وفي سنة 1518 حين حر فصل الحرف واقبل
البرد اضطر الى شراء كموة تنوبة وكان يراها هذه
المرّة بالدين ايضا وكفله المادون فرسيسكو دي اغيلا
ويعرف انه بعد ذلك نقل الى في نوغمبر (تشرين

الثاني) اشترى قطارين من السكك الحديدية العادية بست
مئات وكان الشراء بالدين ايضا وخفله رجل يدعى
خرونيمو دي بينيفاس ويستنتج المؤرخون من سند هذا
الدين الذي ما زال محفوظا ان سرفانتيس كان يقوم
خلال هذه المدة بعمليات تجارية يعيش من ثمنها ومن
حتمتها يبيع المؤونة للمرابح يساعد على ذلك ما اوجده
نفسه من علاقات ايام كان مفوضا للمعوين.

على ان المهم من هذه الحقة كلها هو انه خلالها
وضع القسم الاول من مؤلفه الخالد ضون كينخوطي،
وسجل على صفحاته خلاصة ما قاساه وعلمه من اسرار
الحياة في هذه المدة وما قبلها.

في 12 سبتمبر (ابول) من سنة 1598 فارق الحياة
الملك فيليب الثاني فعمت اسبانيا من اقصاها الى اقصاها
موجة من الحزن عميقة واقامت في البلاد باسرها الجنائز
والصلوات، وشاركت اسبانية مشاركة فحمة بهذه
الاحتفالات، وبنمايينها وضع سرفانتيس موشعا ابن
فيه الملك الراحل.

وما ضادت تنهي هذه الاحتفالات حتى قدم اشيلية

الشاعر الكبير لوبي دي بيغا الذي كان اذاك في اوج الانتصار وقد قارب الاربعين من سنه ، ولم يعرف منذ العشرين سوى الانتقال من نصر الى نصر وايضا حل انفتحت امامه ابواب المسارح وقوبلت رواياته بالاعجاب وكانت العداوة بينه وبين سرفانتيس قد بلغت اذاك اشدها ، ولا سبب لها على الغالب - والحق يقال - الا هذا الحسد الخفي الذي كان يشعر به سرفانتيس حين يرى رميله مطوقا باساور النعمة متقلبا في احضان النعم بينما حياته هو تنصرم في بؤرة من الشقاء والنعاسة مع علمه بصفاته ونبوغه .

قلنا ان لوبي قدم انجيلية فقبول بما عهد ان يقابل به من الحماس في الاوساط المسرحية والادبية لكن زمرة الخائبين ومن حملهم سرفانتيس هؤلاء الذين لم يجدوا في الحياة سوا منها المادية او الادبية غير الخيبة والفشل نالوا عليه ورشقوه نبال اهاجيهم وكان سرفانتيس في الطليعة فنظم بحقه قصيدة لاذعة الهجاء لكن ميغيل حين اتسم له الخط فيما بعد عترف ان يتجرد من حسده ويرجع على اعقابه فيقدر لوبي حق قدره وينوه بنبوغه وشاعريته .

اسطورة ارغاماسيا

قلنا سابقا ان هذه الفترة من حياة سرفانتيس
عاطلة بالعموم فلذا حامت حولها الاقاويل والافتراضات
ومن جملتها ما ساء المؤرخون باسطورة ارغاماسيا
وارغاماسيا هذه بلدة تقع في مقاطعة سيوداد ريال .
ومفاد الاسطورة انه اسندت الى سرفانتيس مهمة
تحصيل المشور التي كانت مرتبة على سكان البلدة
نحو رئاسة دير سان خوان . لكنهم ثاروا وكاتنا واعتقلوه
وسجنوه . وتقول رواية اخرى ان سبب سجنه في هذه
البلدة هو انه تعهد اليه القيام بمهمة تتعلق بعمل البارود
الذي كان فيها فاضطر لتسيير العمل الى الارتفاع من
مياه وادي بانه مما اضر بالسكان الذين كانوا يستعملونها
لدي . وتقول رواية ثالثة انه حبس في الطوبوس
بسبب تعريضه لاحدى نساء تلك البلدة .

هذا وان المؤرخين المعاصرين قد نفوا صحة هذه
الروايات لعدم استنادها على اساس صحيح . لكنه منذ
مئة عام كان سكان ارغاماسيا يروون حديثا بلغهم
بالتواتر يؤكد فيه ان سرفانتيس سجن في تلك البلدة

ويذكر ذلك الحديث مطلع رسالة يقال ان سرفانطيس وجهها من سجنه مستغيثا الى رجل من بلدة قصر سان خوان يدعى خوان برنابي سايدرا لعله كان من اقاربه. وتقول الاسطورة انه اشار الى سجنه في ارغاماسيا حين قال في مقدمة كتابه انه وضعه في السجن. وسواء صحت هذه الاسطورة ام لم تصح فالثابت - حسب قول احد المؤرخين المعاصرين - هو انه حين عاد هذه المرة الى مدريد كان يحمل معه مخطوطة الحساب.

الاحتياطي

ولابد لنا قبل ان ننقل الى هذه المرحلة الجديدة من حياة كاتينا العظيم ان نتوقف هنيئة لتشير الى مראה ساحته رغم سجنه مرارا بسبب حساباته مع ادارة المالية فان دخوله السجن انما كان من قبيل ما نسميه اليوم بالسجن الاحتياطي دون ان يكون على المسجون اي دليل يثبت انه مذنب وان هي الا من جملة المعاملات الادارية المألوفة في ذلك العهد فكل موظف يتأخر في تادية الحساب كان يصدر بحقه امر بالسجن الاحتياطي ولا عجب ان يتأخر الموظفون عن تادية الحسابات خصوصا متى ضاقت من نوع المعهود بها الى سرفانطيس

كسيرة التعقد. ولو لم يكن سرقانطيس بري الساحة
 من كل تهمة لما عين بعد خروجه من السجن بقليل
 لحماية القبالات الملكية من مملكة شرناطة. ويؤيد برأته
 ضلالمه في معرض كتاباته عن سجنه دون اسنحيا ولا
 خجل. فلو لم يكن برينا لما امكنه وهو الانوف العزيز
 النفس ان يشير الى سجنه دون ان يورد لنفسه
 الاذكار الكثيرة.



الفصل الرابع

سرفانطيس في بلد الوليد

بعد ان توفي فليپ الثاني خلفه ابنه فليپ الثالث وكان ضعيف الإرادة قليل العزم فسلم شؤون الملك الى ضون فرنسيسكو شوميت دي ساندوبال المعروف بالدوكي دي ليرما. وكان هذا همه الاخير استثمار منصبه الرفيع واسناد المناصب العالية الى اقاربه وما بقي منها اسناده الى من يحسن الرتبة فنقل البلاط الملكي الى مدينة بلد الوليد مقابل كمية كبير من المال تلفاها من سكانها حسبما يقال. كما انه فيما بعد تناول من سكان مدريد كمية اخرى اخبر منها لارجاء البلاط اليها. وهذه الطلبة الموجزة كافية للدلالة على الفساد الاحلاقي الذي كان مسيطرا في ذلك العهد على الدوائر الحكومية ومن جراء هذا عم الفساد المجتمع باسره واخذت اسبانيا تتدحرج بسرعة نحو هاوية الخراب.

على هذه الحالة خانت بلد الوليد سنة 1603 حين قدمها سرفانطيس لخصه قبل ذلك مر بمدريد وكانت

قد سبقته اليها شهرة كتابه الذي كانت بعض مقاطعه قد صارت تتداولها الايدي وترددها اللسان في النوادي الادبية وفي الفنادق وبين مختلف الطبقات فما ان بلغ مدريد حتى تقابل مع الطباع فرانسيסקو دي روبنس - نجل الطباع الذي نشر له قصة لاعلاطيا منذ عشرين سنة - واتفق معه على طبع الكتاب ولا شك انه اسلفه قسما مما تم الاتفاق عليه لضي بقدر على المول امام اهله بظهر لائق.

وزار اخته ماشدلينا التي كانت تسكن الان وحدها بمعية ابنته ابرائيل بصفة خادم كما قلنا سابقا لتسكن من بريمنها دون ان تثير شبهة في نفس زوجها ثونيا كاطالينا. وضافت العائلة قد فجعت منذ ستين بوفاة شقيقها رودريغو في فلانديس في وقعة لاس دوناس وابلغ ميغيل شقيقته رغبتة في ان تجتمع العائلة ويواجهون ما بقي من العمر منضمين تحت سقف واحد. لان الشيخوخة قد بدأت تهدد وحدته وصار يشعر بالحاجة الى العيش بين اهله. فهللت شقيقته للفكرة ورحبت بها.

ومن ثم انتقل الى اسبانيا حيث كانت زوجته

التي لم يرها منذ سنوات ولعلها بدأت بدورها تشعر
بعبء الوحدة في دار واسعة لا رفيق لها سوى أمها
العجوز فانتعشت في نفسها حذوة الحب والشوق التي لم
تنطفئ قط نحو هذا الرجل الذي تزوجت به من حب
واخلاص بالرغم من معارضة أهلها وممانعتهم فما كان
منها إلا أن لانت أمام وشود ميغيل واقتنعت بمغادرة
اسكيفا ومرافقه إلى بلد الوليد لعيش معه ومع أخيه
وانته التي أصبح أمرها معروفا لديها وبلغ بها الحب
والضحية أن رضيت ببني النماء ومعاملتها ضما لو
كانت ثمرة أحسانها.

وانتقل إلى بلد الوليد مصحوبا بزوجه وأخيه
وابنته فاستقبلته نقيقه اندريا مفتوحة الذراعين وكانت
قد قدمت هذه المدينة مع ابنتها منذ مدة وفيها كانت
تعيشان من أحراف الخياطة لدور بعض الكبراء وكانت
اندريا تكن نحو أخيها عطفًا كبيرًا فرحبت أيضا إيما
فرحبت بفطرة العيش تحت سقف واحد واستقر بهم
المقام في دار جديدة البنبان مقسومة إلى طابقين في الحي
المسمى بالمجزر بالقرب من قنطرة فوق نهر اسكيفا
على مقربة من باب البر.

بعد ان صفى سرفانطيس حساباته المتعلقة بالوظيفتين
 اللتين شغلها سابقا جعل يسعى من جديد للحصول على
 وظيفة ادارة هادئة تضمن له العيش في شيخوخته.
 لان الارباح التي درها عليه مؤلفه الضيخوطي وان
 ضاقت الاستهان بها لو قبولت بارباح المؤلفين في ذلك
 العهد فانها لم تكن بكافية لعاياله هو وعائلته العديدة
 الآن ولرفع معيشتهم الى ذلك المستوى الذي كانت
 سوق اليه نفسه. فاستأنف ذلك العهد المطوي منذ نحو
 من عشرين سنة ايام عاد من البرتغال الى مدريد
 وكان يهبط درجا ليصعد آخر ويعادر شقة انتظار ليدخل
 اخرى متقربا الى الضيق ملحا في الالساس وبعد ان
 امضى شهرين في الانتظار - حسبما يروي المؤرخون -
 حظي بمقابلة الدوكي دي ليروما لكن الدوكي - حسبما
 يقال ايضا - استقبله باردا ولم يعر مطالبه ادنى اهتمام
 فخرج من هذه المقابلة بخفي حنين وعاد الى الاشتغال
 بالادب والتجارة كعميل ولذا قيل عن حياته في بلاد
 الوليد انه ضائع يكتب وينعاطي التجارة ولا عجب وقد
 سدت امامه ابواب الرزق وعلى عائقه عبء عائلة كبيرة.

في طليطلة

في شهر يوليو (تموز) من سنة 1504 توفيت في بلدة اسكيفيا حماة سرفانتيس- فقدمها بعية زوجته ضونيا كاطالينا، وعادق على قسمة ترصة العقيدة بين وارثيها ضونيا كاطالينا واخيها فرنسيسكو دي بالاسيوس.

وفي شهر أغسطس (آب) من السنة نفسها انتقل مصحوباً بنسيبه هذا لبيع بعض العقارات، وفي هذه الرحلة والرحلات التي تلتها إلى تلك المدينة الثقي سرفانتيس دون شك بالتأخر لوبي دي بيغا.

وكانت العداوة القديمة بين الادييين قد خمدت نارها وتلتها فترة تقارب في علاقاتهما يشهد عليها ما جاء في مقدمة رواياته دراغونيطا التي طبعت سنة 1602 في مدريد من ابيات تقرظية للمؤلف وضعها سرفانتيس، لكن هذه الفترة لم تطل واذا بهما في سنة 1605 قد عادا إلى العداوة السابقة التي بلغت هذه المرة من الحدة ما لم تبلغه من ذي قبل، وقد افرغ لوبي جعبة حقه في رسالة وجهها تلك السنة إلى صديق له في بلد الوليد وقد جاء فيها: اما عن الشعراء فحدث

ولا حرجا وناهيك عن في هذا الجبل! فكثيرون منهم
 سفتح اضمامهم في العام المقبل لكن ليس بينهم من
 يسفل الى درجة سرفانطيس ولا من تبلغ به البلاهة
 الى تقريظ ضون كيوخوسي . وليس من الصعب ان
 تستم من هذه الحملة الاخيرة رائحة الحسد فان لوبيي
 الذي كان ينظر خلال عشرين سنة من عمل الى سرفانطيس
 لابد ان يكون قد احس بطعمة في كبرائه حين رأى
 شهرة ضون كيوخوسي قد ضربت في الافاق والمؤلف
 لما يكمل طبعه.

الفصل الثاني

عاد سرفانطيس الى بلد الوليد بعد ان اتمى القضايا
 التي قادته الى طلبلة . وشاد الى تلك الحياة العادية
 بين ذويه واصحابه وكان في السنتين اللتين مرتا على
 حلوله في هذه المدينة قد نوطدت اوامر الصداقة بينه
 وبين جملة اشخاص نخص بالذكر منهم ضون سدرو
 دي توليدو مولى قرية هيفارس الذي تعرف به ميعيل
 في اشبيلية والتاجر الجنوبي اغسطين راخيو والبرتغالي
 سيون منديس جاني . اعشار البحر في مملكة قشتالة
 وخاضت له ايضا صلة بالكوندي دي سانداليا ابن الدوكي

دي ليما وبالكوندي دي ليمونس وضون خوان دي
اورينا كاتب الدوكي دي سابويا وكان الثلاثة الاولون
كثيرا ما يرددون الى داره فيتسامرون ويدور الحديث
حول شؤون شتى من تجارة وسياسة وادب ويتخلل
السر قراءة ميغيل بعض المقاطع من كتابه الخالد الذي
كان تحت الطبع

وكلما تقدم الطبع ارداد كاتبنا فرحا واطمئنانا
وثقة بنفسه وتحسنت حالة العائلة ماديا ومعنويا فامكنهم
ان يتخذوا خادما للقيام بشؤون البيت واخذ الجميع
ينظرون بشي من التعاؤل الى المستقبل ومن التقدير
والاعجاب الى ميغيل.

ظهور الكيخوطي

في 26 سبتمبر (الول) من سنة 1604 صدر الاذن الملضي
بشر الكتاب لكنه لم تصدر الا في اوائل سنة 1605 لما
استقرته من وقت معاملات التصحيح والتسجير فقبول
برواج لم يعرف له سابق نظير وانتشرت نسخه في كل
مكان وبين جميع الطبقات والكر بين معجب ومكبر
وقد فاق الرواج الذي صادفه كل ما كان يصور اليه
سرفانطيس او يعلم به من قورا وتكررت الطباعات في
مدة قصيرة وفي 11 ابريل (نيسان) من السنة نفسها وسع
سرفانطيس التفويض الممنوح للطابع فرسيسكو دي روبلس
بعمله شاملا للارتفاع والارتفاع ونطسية وقطلونيا وفي
اليوم التالي في 12 نيسان امضى له توكيلا يفوضه به
لملاحقة الطباعات السرية.

وامام هذا النجاح الذي فاق كل حسان والشهرة
التي تعدت كل حدود وامندت الى سائر الانحاء شعبر
ذاتنا باستقرار داخلي وطأئية باطنية جات الان في
الشيخوخة لتعوض عما اقلت من بديه من الكليل المجد التي
كان يؤمل ان تزين جبينه في ريعان الصبا ونشوة الفتوة.

دعوى اسبيليطا

في ليلة 27 يونيو (حزيران) من سنة 1805 حوالي الساعة الحادية عشرة بينما كان سرفاذليس قد آوى الى الفراش وزوجته وابنته واحناة وابنة اخته قد ذهبن الى الضيعة اذا بناوعات تشرق تكون ذلك الليل وموت ضعيف منقطع يستند ويسعيت لكن الاستغاثة ضادت تذهب ادراج الرياح في ذلك الليل البهيم وسرعان ما خف من بلغت اذانهم الى الغلاق نوافذ بيوتهم يسترقون الخبر دون ان يجروا واحد منهم على مد يد الاغاثة للمستغيث لانه طالما انقربت الاغاثة ويلا على المعين سبب تصرفات العدالة في ذلك العهد.

لكن واحدا من الناس في ذلك الجو الموبوء ما زال نبيل النفس عالي الهمة لا يبالى بالخطر اذا كان لابد منه لمساعدة العبر واحدا لم يحجم في عهد القضا - منذ ثلاثين سنة - من التول مرارا بين يدي امير ظالم حقوق مستبد والقا المسؤولية كلها على عاتقه وفيها عن اصحابه لم يعد عنهم كل شر او اذى. وها هو ذا الآن وقد قارب السنين تكرر تلك الساذرة النبيلة التي جرت

نفسه بين بني قومه من الولايات ما لم يحجره عليه في
الأسر بين الأعداء.

اجل! سمع سرفانطيس نداً المستغيث فذهب من
براشه وهبط الى الشارع مصحوباً بفتى في الخامسة عشرة
من عمره كان يسكن مع امه في نفس البناية في البيت
الواقع ازاء بيت كتابتها وما ان بلغا الباب حتى وجدوا رجلاً
مريضاً يقارب الثلاثين من عمره يتقدم مترنحاً والدم
محطّر شديداً من جراحه وما زال السيف بيده اليسرى
والرس بيده اليسرى فحملاه الى دار ضونيا لوبسا مونطويا
ام الفتى الذي رافق سرفانطيس وهناك هيأوا له فراشاً
على الأرض واستدعوا جراحاً لمعالجته فعلا الجراح ووجد
فيه جرحين بليغين وشرع يعضمهما ولحق ما عثم
ان اقبل مأمور العدالة وعلى رأسه قاضي التحقيق
دريستوبال دي بياروبل وشرع بالتحقيق.



كان الجريح شاباً من نافارة اسمه غاسبار دي
اسبيليتا يعيش في بلد الوليد تحت كنف الماركيس دي
فالنيس رئيس رماة الملك وكان اسبيليتا لا شغل له سوى
مسامرة الماركيس والانصراف الى حياة اللهو والسرور.

فعلى مائدة الماركيس كان يتناول الغداء والعشاء ويقوم
 في غرفة في احد المثلوي وان كان لا يأوي اليها ليلا الا
 في القليل النادر حسبا شهدت بذلك فيما بعد ربة الفندق
 وبستفاد من التحقيقات التي اجريت انه كانت له علاقات
 غرامية بزوجة كاتب يسمى غاليلان ، ويظهر ان هذا
 اطلع على امر تلك العلاقات فاضمر في نفسه الانتقام
 من اسبيليتا وفي ليلة ٢٢ يونيو احترق ان اكن له مقنعا
 عند القنطرة القريبة من دار سرفانطيس لعله انه سير
 بها ، ولما بلغها اسبيليتا تصدى له وصحلاهما بسلاحه
 واسفر الهراز عن اصالة اسبيليتا بجراح خطيرة فتعامل
 على نفسه وتابع سيره مسعيا ولا معيث حتى قارب
 دار كاتبها وعلمت انه اسعائه فتمت لاسعائه على الوجه
 الذي ذكرناه سابقا.

وقد اتى عدد وافر من الشهود بافادات تؤدي كلها
 الى ايضاح القضية على الوجه المبين ، ومن جملتهم ربة
 الفندق الذي كان يعيش فيه اسبيليتا وقتاة التقت
 به قبيل اصطدامه بخصمه والتقت بهذا ايضا وهو مقنع
 وشهادة زوجة الكاتب غاليلان - التي احفظ القاضي
 بضمونها - واقرار اسبيليتا نفسه الذي اعترف مرارا ان

خسبه لم يغدر به وأما ساررا تبارز الفرسان ولاداعي
إلى التحقيق وبالرغم من وضوح القضية شئت إرادة
قاضي التحقيق الملتوية الأمر في نفسه سلك سبيل آخر
والانحياز عن الحقيقة والتمسك بحجج أوهى من خيط
العكروت والقاء التبعة على سرفانطيس وعائلته.

وبعد يومين توفي أسبيلطا رشم ما أحيط به من
عناية. وواصل القاضي تحقيقاته الملتوية إلى أن انتهى
به الأمر إلى إصدار أمر بسجن سرفانطيس وروجنه
وأخته وابنته بتهمة مقتل أسبيلطا بعد أن حاصرت
عنفه الخصبة حكاية مفادها أن قاتل أسبيلطا هو
سرفانطيس وعزا السبب إلى علاقات غرامية بين القاتل
وأخته الكاتب وهكذا أسفر البهتان في يد قاض لا يعرف
العدل وجهها ولا للظهير صورة عن زوج سرفانطيس وهو
يقارب السنين مع كل أفراد عائلته في السجن الملكي
حزاً له على مده يد الإثابة إلى جريح يستغيث في ظلام
ليل معتم.

لم يطل سجن سرفانطيس هذه المرة، لكن الصدمة
كانت عنيفة وأنه وإن كانت نفسه قد الفت مرارة الجور
وتعت الزمان لم يكن لهذه المأساة الجديدة بد من أن

تفتح في قلبه من جديد ذلك الجرح الذي كان قد
 اوشك ان يلتئم منذ قليل عند ظهور الكيخوطي
 واضطر ما زاده غصة هذه المرة شمل عاطفته كلها
 بالنكبة. ولم يكن من السهل عليه ان يراهن جميعا
 تتحملن ألم السحن مسبب بادرة نبيل استغفره الى
 الاثيان بها قلبه الكريم.

في هذه السنة عاد الملاط الملضي الى مدريد وفي
 خريف السنة نفسها انتقل اليها سرفانتيس بعائلته فتي
 مدريد له اصحاب اقدمون وله علاقات بتواضي الادب
 وامل بالحصول يوما على وظيفة ما هذه الوظيفة التي
 مر عليه ربع قرن وهو يسعى وراءها دون ان يدركها
 وضاعت هذه سفرته الاخيرة ولن يعادر مدريد بعد
 اليوم الا ليلاتي ربه.

سرفانطيس يستقر في مدريد

عاد سرفانطيس بعائلته الى مدريد ونزل في دار
واسعة في شارع لامارالينا وراء قصر باسارانا وبالقرب
من هذه الدار كانت تقع مطبعة كويستا حيث نطبع
مطبعة جديدة من كتبه وبالعرب منها ايضا يقع دير
ريمان النعمة ودير الرهبان الملحن وفي الاول ترقد
زفت والده وله في الثاني ذكريات حية تعود الى عهد
السرد في الجزائر لان افدائه كان على يدهم كما قدمنا.
وها هي ذا حياته الآن في مدريد تنسال بهدوء
ولسائينة فطباعات ضابيه قد تكررت حتى بلغت السبع
ومدخوله وان لم يصبح اعلا لاحتلاله بين الاغنياء فهو
كأن لم يبعد عن العائلة شيخ البؤس واليوغا لها عيشة متوسطة
وفي مدريد وصل سرفانطيس ما كان قد تصرم من
الروابط بعلاقات الادب واحيا الصداقات القديمة فضلا
عن الجديدة التي اكتسبها.

وبعد وصوله الى مدريد بتقليل زفت ابنة ايزابيل

الى صون ديبغو سانس دل آغيا. وكان هذا من عائلة
 نبيلة ذا ثروة لاباس بها. واقام الزوجان في دار قريبة
 من شارع البساقين كان لصون ديبغو بعض الحقوق
 عليها. وفي اواخر سنة 1698 زرقا طفلة سميت باسم والدتها
 ابراهيم. لكن الخط لم يشأ الا ان يعبر صفو هذا
 الاستقرار فما كادت تنقضي مدة قصيرة على ولادة الفتاة
 حتى دان والدها صون ديبغو بفارق الحياة تاركا ثروته
 بين يدي ارملة ابراهيم وما ان ووري جثمانه حتى
 اضل سخر جدد يسمى ورا يدها. اسمه لويس مولينا
 وكان هذا له يزل في شرح السباب مضطرب الحياء
 منتزعا الى التجارة فضلا عن سخطه امانة سر المشرمين
 الايطاليين كارلوس وانثونيو طراحا صاحبي المصرف
 الصغير الذي كان يحمل اسمهما وقد كان زار ايطاليا
 واسر وهو شائد الى اسبانيا وسبق الى الجزائر حيث لا
 بد ان يكون قد سمع بالمآثر التي قام بها سرفانتيس
 ولم يزل ذكرها مرردا على السنة الاسارى. وبعد افدائه
 من الاسر حل ببلد الوليد وتعرف سرفانتيس وتوطدت
 بينهما شرى الصداقة وشعر كائنا نحوه بعطف كبير
 وعامله معاملة ابوية.

لكن مولينا لم يقابل انكاثب بنفس ما شامله به
 من اخلاص وصدق وولاء وانما رأى ان بعد وفاة زوج
 ابراهيم فرحة سانحة للحصول على مهر كبير ووضع يده
 على الثروة التي خلفها لزوجته وابنته ضون ديبغو سانس
 تقرب من الازمة مودعا واخيرا تم الاتفاق وعين يوم
 الزواج واحب سرفانتيس ان يعرب لابنته ومهره المقبل
 من كرمه ولعله كان يؤمل بان ربع ثمنه سيرتفع الى
 ان يسبح له بتحقيق ما نواه لانه في هذه الآونة انما
 كان مدينا للطبايع باربعائة وحسين بليوناً وخلاصة
 الامر انه في 28 أغسطس (آب) من سنة 1608 وقع
 سرفانتيس تعهدا امام كاتب شدة يلزم فيه بادية الفتي
 ذلة الى مهره ودفعه ضون خوان دي اوربينا كاتب
 الدوكي دي صابونا الذي امرنا اليه فيما سبق.

وفي 8 سبتمبر (ايلول) اجتمع في ضنسة القديس
 لويس برواج لويس مولينا وايزابيل دي سرفانتيس
 وكان كاتنا يظن ان بهذا الزواج دارا جديدة سفتح
 امامه في شيخوخته لكن آماله خانت هذه اثره ايضا
 ان مولينا لم يسكت عن النهر الذي تعهد سرفانتيس
 بباديته ولم تسعه الحال على الوفاء فلاحق خوان دي

اورينا وحصل منه تلك الكمية وادى الامر الى توتر العلاقات بين المكاتب من جهة وابنته وصهره من جهة أخرى.

الخلاصة

في 17 أبريل (نيسان) انخرط سرفانتيس في اخوية تبسب القريان الاقدس التي اسمها في السنة السابقة احد الرهبان المتلبن: وكانت هذه الاخوية بحيرة يلتجئ اليها العيو القلب طلباً للراحة النفسية والتقرب من الله وقد انضم اليها بعد سرفانتيس كثير من كبار كتاب عهده فخص بالذكر منهم فيسنتي اسبيل وليبيدو ولوبي دي بيغا لكن سرفانتيس كان اضطرهم ممارسة الواجبات الاخوية وحضور حفلاتها الدينية.

وبعد مدة قليلة فجع ثانياً بوفاة شقيقه اندريا فأملت نفسه لهذا المصاب تألماً عميقاً لان اندريا كانت المحور الذي يدور حوله الجميع وحملة الوصل بين افراد تلك العائلة ولم يمتض الا وقت قصير على وفاتها حتى اقبلت زوجته صونيا كاطالينا في 16 يونيو (حزيران) من سنة 1610 الى مكتب الموثق بلطاسار دي اوخينا واحمله من نفس بلدتها اسكيفيا واملت عليه وصيتها دون

ار تطلع زوجها على الامر واوصت اخيها فرنسيسكو
بكر املاكها ولزوجها بحق التمتع ببعض الاراضي
المذكورة في الوصية. وبعد وفاته تمتع بها ابنة اخته
كوسطانسا مدة سنتين ثم تعود تلك الاملاك الى عائلة
ضوبيا كاطالينا واوصت لزوجها ايضا بسريرهما وجميع
املاكها المنقلة عربونا - على حد قولها في الوصية - لما
تتألف من حب ووفاء واوصت ايضا ان تدفن في
كنيسة اسكيفيا الى جانب والدها.

لكنها في 30 اكتوبر تشرين الاول من سنة 1626
اي بعد وفاة المؤلف بعشر سنوات وصيها فالتت
من الوصية السابقة تلك الفقرة المتعلقة بدفنها في اسكيفيا
واوصت بان تدفن متى توفيت في دير الابرار المثلثين
حب كانت ترقد رفات زوجها. ونعليقا على هذا التعديل
في الوصية يقول احد المؤرخين المعاصرين: اجليا ان
العاطفة التي كانت تجرهما نحو اهلها المؤثرة في النفس
لحين هذه العاطفة الجديدة متى اعتسنا تربيتها واخلاقها
ظهر لنا اكثر تأثيرا وندلنا دلالة حاسمة على تلك القوة
الجاذبة التي كان يحسن بها سرفانتيس اعداء قلوب
من يعيشون الى جانبه

سرفانتيس يتشوق لزيارة نابولي

في سنة 1610 عين الكوندي دي لموس نائبا عن الملك في مملكة نابولي وكانت تربط سرفانتيس به بعض روابط الصداقة وكان الكوندي فضلا عن ذلك مغرما بالسعر والادب وله بعض التأليف المسرحية وقد عرف بعطفه على الأدباء فما ان انشر خبر تعيينه لهذا المنصب الرفيع حتى هدد له الأدباء وقل من لم يعلم منهم بالرحيل الى نابولي مع حاسيه الكوندي لشغل وتلبية فيها وكان سرفانتيس في تلبية من غلبوا النفس بهذه الرحلة لكن ما علم ان حاب امله وتردت هذه الحبة الجديدة في نفسه مرارة شديدة ونعزو معظم المؤرخين هذه الرغبة القوية بالرغم من شيخوخته في الذهاب الى نابولي وما تلا عدم تحقق هذه الرغبة من ألم شيق الى ما خلفه من دخرات في تلك المدينة امام شبابه حين كان جنديا ويرون كما ذكرنا في غير مكان من هذا الكتاب في تلك الجلفة التي جاءت في

سببه رحلة البارناس الذي وضعه تعزية لنفسه عن
فوات هذه الرحلة من بدء اذ قال: وبكل حنو شائقني
بماحيي ... وفاداني أبت وفادينه بي وهذا الحق
الحق . يرون في هذه الجملة التي يفسرونها على ظاهرها
سبب هذا الشوق وهذه المراقبة التي اعتقت الحبيبة

٢٢٦

في سنة 1811 توفيت شقيقته صونيا ماتدلين. وكانت
حالة كتابتنا المادية قد عادت في هذا العهد الى اسوأ
منما ضانت عليه فلم يسكن من دفع نفقات المأتم التي
كانت تبلغ اثني عشر بليوناً فقامت بديها زاهات سان
فرسيسكو في ديرهن شجانا لوجه الله.

٢٢٧

لم يبق الآن في الدار سوى سرفانتيس وروحه
واسية اخته. فشقيقتاه نوفينا وابنه وروحها قطعاً كل
شلاقة تربطهما به بعد ان لاحق مهره مولينا كقبيله
ومديقه خوان دي اوربيننا لتبسط البحر الذي نعهد
له به سرفانتيس بكفالة اوربيننا فكانت الدار تقفر بعد

ان كانت عامرة وحالة كاتبنا المالية رغم كل ما شـ
 عليه كتابه عادت كما قلنا الى اسوأ حال وتسادت
 الديون تراكم عليه وتثقل كاهله فلا عجب ان تخيم
 على نفسه سحابة من الكآبة تتجلى في ما افقه في هذا الظور.
 وفي سنة 1612 تأسس في مدريد ناد ادبي دعى
 باسم اخاديمية سلباخي وكانت الجلسات تنعقد في
 دار ضون فرانسيسكو سلبا وضم النادي كبار ادباء
 العصر وعلى رأسهم لوبي دي بيغا وهذه المرة نرى
 سرفانتيس عضوا في النادي الجديد وان كان في الجلسات
 لا يخل مكانا بارزا ويرى العدوابة به وبين لوبي دي
 بيغا قد خمد سعيها في هذا الظور.

الخلاصة

لم تخط النكبات الجديدة من عزم كاتبنا بل
 بالعكس ولدت في نفسه نشاطا ادبيا منتجا لم يعرفه
 ايام الفتوة فانهى جموعة قصصه المسماة القصص المثل
 ووضع مؤلفه رحلة البارناس واتاد النظر في مسرحياته
 ليجدد طبعها ولعله سرع بكتابة بعض قصول من
 جرميليس وفي الوقت نفسه كان يواصل الكتابة

في القسم الثاني من مؤلفه العظيم ضون كيوخوطي
 ففي هذه السنوات العشر كتب اضرر مما كتبه
 فيما مضى من شعره وسيكتب في السنوات الست الباقية
 ما اضرر مما كتبه في تلك العشر.



سرفانطيس يشترك بمباراة شعرية

كانت مدريد تستعد للاحتفال في 12 أكتوبر (تشرين الأول) من سنة 1611 بتطويب القديسة تريسة وأعلنت اللجنة المشرفة على الاحتفالات عن مباراة شعرية يمكن الاشتراك فيها لجميع شعراء اسبانيا، وتألقت اللجنة التحكيمية من ثلاثة شبان من كبار العائلات الأسبانية، وعين لوبي دي بيغا مستشاراً فيها لهم.

وكان سرفانطيس من جملة الذين تقدموا لهذه المباراة، وهنا يقف بعض المؤرخين حبارى أمام هذه البادرة ويعجبون كيف أن سرفانطيس رغم شيخوخته - إذ كان في السابعة والستين من عمره - وما بلغه من مضاعة أدبية تقدم إلى مباراة لا يشترك فيها عادة إلا من كان حديث العهد بالشعر، لكن معظمهم يعللون تصرفه هذا باحتياجه إلى المال، ويرون في أمسه بالحصول على الجائزة المالية الدافع الأقوى إلى ذلك، وليس ذلك حقاً بالامر العجيب.

واجتمعت اللجنة وفصلت في الميمنة ومنح
 سرفانتيس جائزة وفي وسط الاحتفال اعلنت النتيجة
 وديف لوبي دي سبعا وقرأ بنفسه على الجمهور قصيدة
 سرفانتيس.



صدمة جديدة

انهاء القسم الثانى من «ضون كيخوطى»

لم يمتد على ظهور ضون كيخوطى سوى سنوات قليلة حتى انتشر في اسبانيا كلها ونجاور حدودها الى بلدان اخرى ونرحم الى عدة لغات وبينما كان سرفانتيس يشغل باعداد القسم الثانى اذا به يفاجأ في هذه السنة نفسها (1611) بظهور كتاب عنوانه القسم الماني من ضون كيخوطى بقلم فرنانديس دي ايباندا فانار الامر ثائرة سرفانتيس ولا سيما ان فرنانديس دي ايباندا اسم مسعار لشخص تحركه عاطفة الحسد المقوثة. اما الكلام عن قبة هذا الكتاب بالنسبة الى مؤلف سرفانتيس فنتركه للقسم الثانى حيث نتكلم معنولاً عن مؤلفات كاتبنا وانما هنا نكتفي بالقول ان ظهوره اقض على سرفانتيس متعبه وحرك همته للاسراع في انجاز

القسم الثاني من كتابه. فأكب بحماس لم يعهد له
 مثل سابق ولم يهدأ له بال ويسكن له روع حتى
 أتى على آخره.

وفي أوائل فبراير اشباطا من سنة 1615 قدمه
 المراقبة في مدريد وكان اذاك في الثامنة والستين
 من عمره.



المرحلة الاخيرة مرضه ووفاته

كان سرفانتيس مصابا منذ مدة بمرض عضال لما يعرف نوعه بالتحقيق. فالبعض يقولون انه داء الاستسقا، ويزعم الآخرون انه مرض في القلب وحاصل الامر انه ما كادت تقبل سنة 1616 حتى كان الداء قد استفحل وضعفت قواه فاشار عليه الأطباء بتبديل المناخ، فانتقل الى بلدة اسكيفيا لكنه لم يشعر بالتحسن المؤمل فعاد الى مدريد ليقتضي فيها آخر ايامه.

ولما حل شهر ابريل (نيسان) من تلك السنة كان سرفانتيس قد بلغ اقصى درجات الضعف والهزال بحيث لم تبق له قدرة على مبارحة الفراش، لكنه ظل تحتفظا حتى الساعة الاخيرة برباطة جأشه وصفا ذهنه، وقد ادرك ان ساعة الموت قريبة فانصرف الى الاستعداد لها وتصفية ما بقي في النفس من رغبات.

ففي الثاني من الشهر المذكور انخرط في سلك جمعية القديس فرانسيس الثالثة، وقد انخرطت فيها من ذي قبل زوجته وابنة اخيه.

وفي هذه الايام القليلة الباقية له من العمر كتب
 اهدا كتابه برسيلس الى الكوندي دي ليموس وقد
 جاء ذلك الاهداء بمثابة وداع حار يوجهه صلاتنا الى
 البشرية فيه ما يلي: تلك الايات القديمة التي طالما
 نفخى بها الناس والتي مطلعها الان وقد وضعت رجلي
 في الركاب كنت اود الانأتي في محلها في هذه الرسالة
 لاني اصاد اقدر ان ابداءها بالكلمات نفسها قائلا:

الان وقد وضعت رجلي في الركاب

نساورني الام الموت

اكتب اليك ايها السيد العظيم رسالتي هذه
 امس مشحت واليوم اكتب هذه الرسالة ان الوقت
 قصير والنزاع يقرب والامال تنقص...

وهذا الاهداء مؤرخ في 11 ابريل (نيسان).

وفراه قبل ان يغادر هذا العالم يتناول القلم من
 جديد ليكتب وداعه الاخير فيقول: الى الله ايتها اللطافة،
 الى الله ايتها المظرافة، الى الله ايها الاصدقاء المرحون
 اراني اللفظ انفاسي الاخيرة وارغب ان التقى بكم
 فرحين في الحياة الاخرى. وهي آخر خدماته التي وصلتنا.

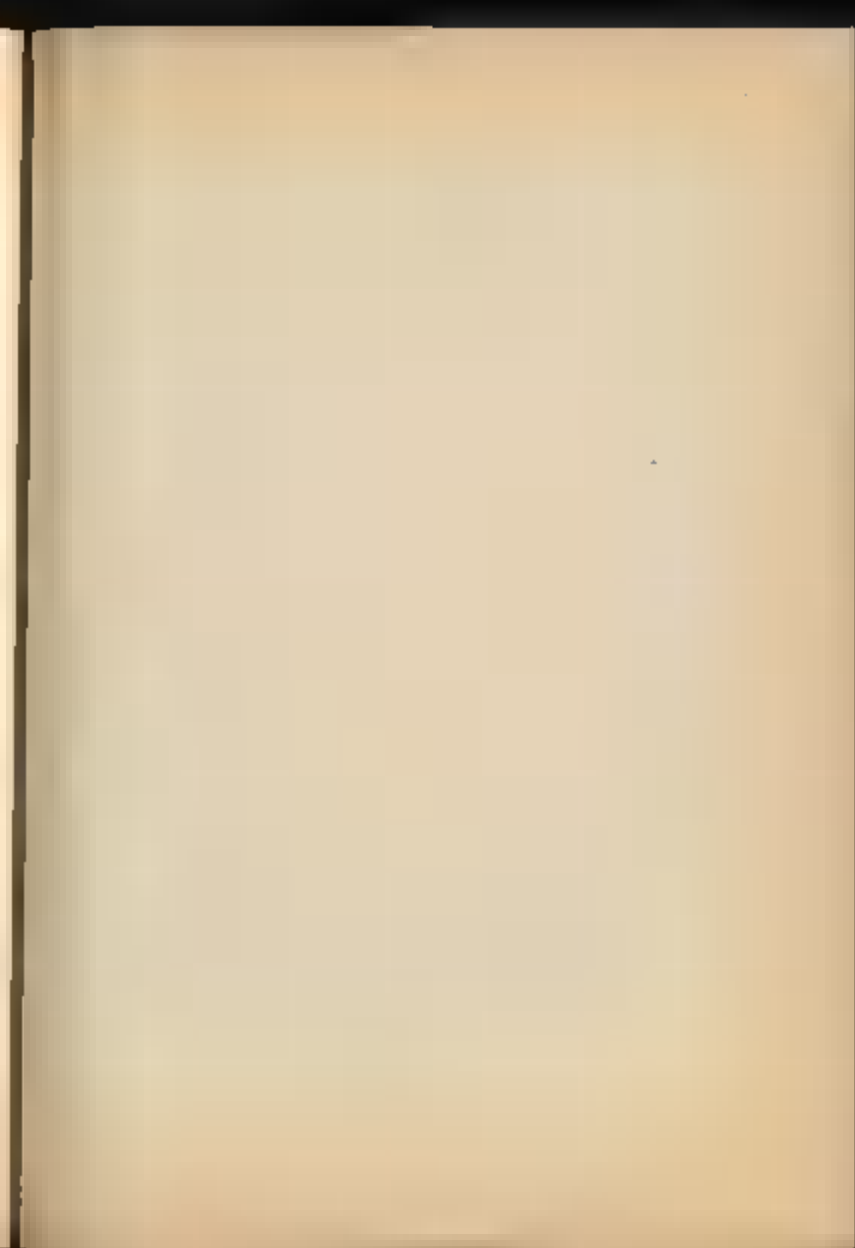
وفي الثالث والعشرين من الشهر نفسه لفظ النفس
 الاخير محاطا بزوجته وابنته وابنة اخيه والكاهن ضون
 فرنسيسكو مرتينس مرسيا. ونقل جثمانه الى كنيسة
 دير الامهات المثلثات وهنالك ووري الثرى دون ان
 توضع على قبره بلاطة او علامة تذكارية. ولم يحضر
 جنازته الا عدد قليل من اصدقائه واديان خاملا الذكر
 اسم احدهما لويس فرنسيسكو صالديرون والآخر
 فرنسيسكو دي اوربين. ويقول المؤرخون ان لوبي بيغا
 لما علم بوفاته حبا فصلى على نفسه امام جثمانه.



وهكذا بين الاهمال والحوادث دفن مؤلف ضون
 كيوخوطي. وضاع لحدّه بين بقية اللحود اذ خلعت يد
 الزمان العانية فساوت بينه وبين بقية من كانوا
 هنالك يدفنون.

لكن سرفانتيس وان ضاع لحدّه حي لا يموت،
 وما دام للادب في الانسانية مقاما وللنفس مرتبة والمعروّة
 قدرا فان سرفانتيس سيبقى قدوة الصكرام ومثال
 المفكرين وامير الادب العالمي بلا نزاع.





القسم الثاني

مؤلفاته

الفصل الاول

ظهور سرفانطيس في «عكاظ»

لقد اطلعنا بأسهاب على نواحي سيرة هذا النابغة،
وتعرفنا الى ما قاساه من أهوال في عتقوان صباه، والان
فلنقتف أثر حياته الأدبية التي يتركز عليها مدار بحثنا
هذا، منذ ان ظهر في عكاظ العصر الذهبي الاسباني
حتى النهاية. ولذا رأينا ان نوزع انتاجه، ونقسم
بضاعته الى مراحل، نسهلها بدراسة كتابه الاول المسمى
:«الغلاطية» وهو الذي مهد لمن سيحمل فيما بعد لقب
«أمير الادب الاسباني» ويحتل مركزا عالميا فيجلس تن
يمين صاحب الالباذة السبيل لدخوله معرضة عكاظ.
ذلك الحين، وتنميما للفائدة آثرنا ان نثبت هنا ملخصا
لهذا المؤلف قبل ان نشرع في تحليل قيمته وذكر
اقوال النقاد فيه.

« لاغالاطية »

الموضوع: اليتيم وأرسو. راعيان يعيشان على
ضفة نهر قاحلة. وقعا في حياض غالاطيه وهما بها هياما
مبرحاً. وهي منلهما راعية رأت نور الحياة على نلك
الضفاف. يوقفها عن متابعة الاناشيد الغرامية وصول
راع آخر اسمه ليسندرو يقص عليها خيانة كارينو
ووفاة ليونيدا حبيبة الاول. وكافت غالاطيه وفلسوريسا
جاذبين في التقاط الازهار لتجدلا منها شرائط زينة لشعريهما
عند وصول تيولندا التي تروي وقائع حبها مع أرتيدورو
التي زاد في تعقيدها تشابهها لشقيقها ليونردا وكذلك
نشابه أرتيدورو وشقيقه غالرسو. ينضم الى حلقة هؤلاء
الراعيان ترسي ودامون الشهيران وبعد العزف والعناء
يذهب الجميع لزيارة الناسك سيلبريو الذي يعيد على
مسامعهم حوادث حبه ليسيدا في نابولي. وحب صديقه
نسبريو لها كذلك. وفرار هذا الاخير الى اسبانيا خلفا منه
ان حبيبته قد ماتت. وما كان من الاول اذ ما تعذر
عليه اكتشاف مقر صديقه الا ان ذهب فتسك.
يحتفل بزفاف دارابو وسلفيريا. يستخدم الجدال

بين لينيو الذي لم يعرف الحب وبين تيرسي حول
 رافة الحب اوشره. يصل تمبريو ونيسيدا الى صومعة
 سيليريو. ويزور الرعيان عن بكرة ابيهم ضريح مليو.
 ثم تعزف قيثارة كاليوبي ثناء شعرياً عاطراً موجهاً للجمهرة
 من الشعراء الذين ما زالوا على قيد الحياة ومعاصرين
 لسرفانطيس.

يقع الجزء الاول من هذه الرواية التي يدور
 موضوعها حول حياة الرعيان في ستة كتب. وقد
 اختلف الادباء في تعيين تاريخ نشرها بالضبط. فمنهم من
 قال انها خرجت سنة 1584 ومنهم من اخذ ان ذلك
 كان سنة 1585 ويوجد فريق ثالث يقول انها الفت
 ما بين سنتي 1581 و 1583 ونشرت سنة 1584 الا انهم
 رغم تباین آرائهم فيما يتعلق بنشرها قد اتفقوا على
 أنها وضعت بعد رجوع سرفانطيس الى مدريد من الأسر.
 الامر الذي المّع اليه في الخطاب الخامس. وفي الخطاب
 السادس نشيد «كاليوبي» الذي قد يكون افضل ما يوجد
 في متن الرواية كلها. ويرى بعض الكتاب انه فضلا عن
 كون المؤلف في مجموعه قدم قربانا على مذبح الذوق الادبي
 الرائج كان وضعه لهذه القصة بدافع العوامل النفسانية

التي ايقظتها في صاحبه من ستصبح فيما بعد زوجا له
 واو انه على ما يظهر لم يعتمد تمثيلها في «لاغالاطيه»
 لا ولا ان يمثل نفسه في شخصية «اليسيو» حسبما زعم
 الا انه مثل فيها اشخاصا كثيرين من معاصريه لاناقى
 على ذكر اسماهم لعدم فائدة القارىء العربي من ذلك.
 «لاغالاطيه» ان هي الا نعت الشيطان او رواية
 عن حياة الرثيان من طراز «لادانا» لصاحبها «متيمور»
 وطراز مؤلفات مقلديه الا انها تكون حسب رأي
 «ميندث اي بلايو» النقاد الاسباني الذائع الصيت قد
 نالت قصب السبق في هذا المضمار اذ «لاقتجلى في رعيان
 ورواعي سرفانطيس تلك السذاجة التي انما هي وقف
 على من كانوا من طيبتهم على أنه في بعض الاحيان
 تنبجس منهم السذاجة الانسانية اي هذه البساطة الساحرة
 التي تأخذ بمجامع القلوب وتستولى على الالباب والتي
 ما كانت قط من صفات عصر دون آخر حتى ولا من
 مميزات العصر الذهبي ذاته بل هي من كافة العصور
 لانها تتفجر حقا من اعماق القلب.

وقال سان-ماث جبراردان: «جا» مؤلف سرفانطيس
 وشمس هذا النوع الادبي نجح الى الغروب. وكما

قال سيخادور : «ظهر ومعين هذا الموضوع كاد ينضب ومهما بالغ صاحب «لاغالطيه» في شحذ قريحته واخذنا نار تبقريته المبدعة وسعى ليودع فيها نثراً رشيقياً وشعراً أصبح دون شعر من تقدموا رقة وهلهلة فما كان ليكتب له الفلاح لان الذوق الادبي كان قد شرع يسلك سبيلاً آخر».

اما ذوق سرفانتيس فكان في غاية الجودة نظراً لولعه بالانعماء الذي كان قد كلف به كلفاً شديداً اثناً اقامته في ايطاليا ولما كان يجد وراء الراحة من حياة المجازفات لم تلق آئذ من ادب سوقه رائجة سوى هذا الذي دشّن به حياته الادبية أدب الرعيان السذي ما كان قط غير ظاهرة من ظواهر الانعماء التي تحصى الذوق وصقلها ولذا شرع يجرب فيه ميزانه الدفينة ككتائب وعندي ان هذه الاسباب التي دفعته الى هذه المحاولة هي نفسها كانت العامل الوحيد الذي جعله ان يلقي نجاحاً متوسطاً من كتابته «لاغالطيه» ولم يعرف احد مثله عيوب هذا الطراز وعيوب مؤلفه ذاته اذ قال: «احلام سكيت سكبا حسناء» فقد خلق ليكون كاتباً انبعائياً انيقاً وهكذا ظهر في كتابه الذي ما دبحه

إلا لأمراء عميق وأبعد غورا، خلق ليكون كاتباً إسبانياً
 قعاً، ورواياتاً يفرغ أشياء حسنة الديباجة لأصلة لها بالأحلام
 لقد أخذ ينبلج صبح الشخصية الإسبانية والأدب الوضعي
 عند سرفانتيس في عدة حوادث من متن «لاغالاخية»،
 وهما الصفتان اللتان يتصفونان سيرة المنتهى التي سيقرب
 فيها عند ما يضمحل طيف الأشياء الوهمية إلا أنه ترك
 نيل الزبي يجرفه لما كان منشأً ففي هذه التجربة
 برز الإبداع وبدأ الأسلوب والتعبير بخلة خاصة من
 حيث الرقة والوضوح والاناقة. وضع سرفانتيس نصب
 عينيه «لأركاديا» لصاحبها «سانتارو» و «لاس ديانس»
 لمؤلفيهما «متسبور» و «خيل بولو» إلا أنه أنجل
 كتاباً فريداً داخل نطاق هذا الحقل الفسيح ودمج روايات
 قصيرة تنذر «بالمثلي» وبالتالي ذكريات حياته الخاصة.
 أما فيما يتعلق ببعض الأفكار الأفلاطونية التي
 عرضها سرفانتيس في «لاغالاخية» وهي نفس تلك
 الأفكار التي تقوم عليها دعائم الرهد العامة ويتكون
 منها محور الشعر الأجنبي النزعة في زمانه فقد قال عنها
 مينندث أي بلايو في تاريخه عن الأفكار الجميلة: «أنه
 لمن الزيف التمسك بما تمسك به أحد السرفانتينيين المعاصرين

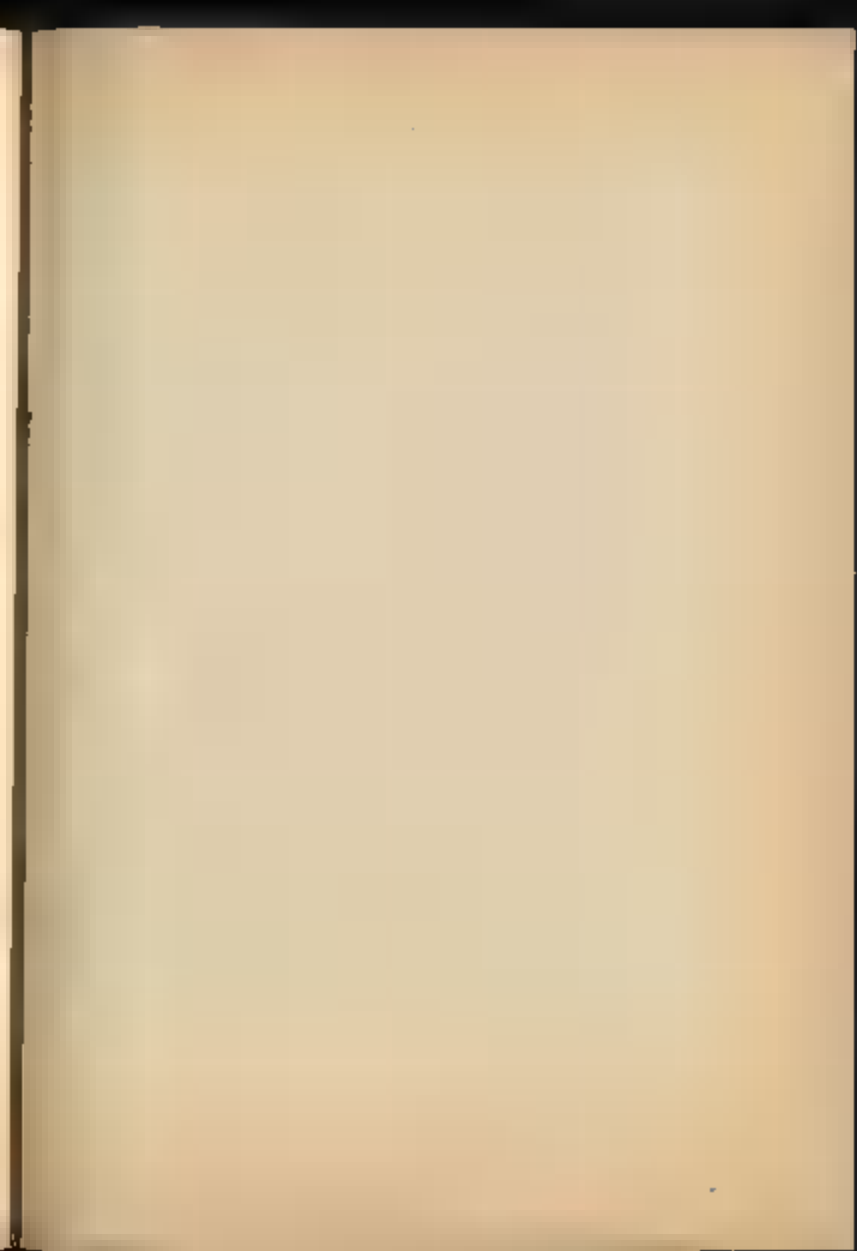
من أن سرفانتيس في «لا تالطيه» لم يرم إلا لتجديد وتعريف نظرية افلاطون. غير أنه من الأكيد أن في الكتاب الرابع من هذه الرواية التي نبحث في حياة الرعيان، باكورة العبقرية الفنية لمسلطان كتابنا ادخلت في ثناياها مشقة حب وجمال - ذات منعة المعية حتى في الشكل - بين نرسي الرعين و«لرسيو» الرجل الذي لم يعرف الحب. وان فحواها افلاطوني محض ينسب الى «ليون العبراني» حتى في استعمال الالفاظ....

وسرفانتيس نفسه - كما قدمنا - التفت الى عيوب مؤلفه وفي سياق الحديث عنه في «الكبخوطي» كتابه الخالد يقول: «اما كتابه ففيه شيء من الابتذال» يعد بسى» الا انه لا يستدل شيئا. فينبغي انتظار الجزء الثاني الموعود به. عله في التصحيح يوصل نهائيا لآحراز الرحمة التي تذكر عليه الآن.

وطبعت هذه الرواية التي ما ظهر قط جزؤها الثاني الموعود به مرتين في حياة المؤلف (الشبونة 1590 وباريس 1611) ويذكر رويس ست عشرة طبعة. الا ان الطبعة الوحيدة الصالحة هي طبعة مدريد من سنة 1863 لانها نسخة عن الاولى لسنة 1581.

وقد ترجمت «لاغالاطيه» ثلاث مرات الى الالمانية.
 ومترجمين الى الانكليزية واقبسها الى الفرنسية فلوريان
 سنة 1784. وقد ترجم الى الاسبانية كتاب فلوريان هذا
 فيشتي رودريغث اريانو سنة 1797. واما كتاب كنديدو
 ماريا تريغاروس، (عشاق لاغالاطيه واعراسهم) المطبوع
 في مدريد سنة 1798 تسميا للاغالاطيه سرفانتيس، فهو
 تقليد لفلوريان اكثر منه لمؤلف الكيخوطي.





الفصل الثاني

شاعرية سرفانطيس

يتأسف سرفانطيس في مؤلفه رحلة البرناس،
المطبوع سنة 1614 بمدريد برارة وانصار لعدم تحليقه
في الشعر فينشده:

وانا الذي دوما اجد وأسهر
كيما احل كئاسر او اظهر

في نعمة ابت السما ان نعطي...

واننا عملية تطهير مكتبة ضون كيخوشي الجزر
الاول الفصل السادس، يقول سرفانطيس عن نفسه انه
ضان اكثر توفيقا في العاسة منه في الشعر.

ولم يحجم الضباب المعاصرون لسرفانطيس او ممن
تأخروا عنه قليلا مثل سوارث دي فيغيروا وضون
استيبان م. دي فياغس، وسواهما عن من شعور
سرفانطيس كشاعر ومهاجمته.

ويكتب لوبي دي بيغا في رسالة له لاذعة فكاهية:
اما عن الشعراء فحدث ولا حرج، انها لسنة جيدة هذه!
وقد بدأ جلهم ينضج للسنة المقبلة، الا انه ليس بينهم من
يسفل الى درجة سرفانطيس ولا من تبلغ به الالهة

الى مدح المكخوطي ، وبرغم ثبات وجهات النظر واتساع
سنة الخلاف بينه وبين بطل ليبانطو عاد لوبي بعد
وفاة خصمه في كتابه غار ابولو سنة 1641 الى
انصافه كشاعر.

واما الانتقادات الواهية التي وجهها اليه بعضهم
وانصارهم عليه شاعريته افكارا مفرضاً فسرعان ما تضيع
امام اطرا لوبي ، واخرى بذلك نظراً لقيمة بعض قصائده
بالذات ، والاريب في أن اشعاره دون نثره مرتبة وهي
تسمح له ان ينبؤا المقام الاول بين الشعراء ، ولظن
لابح بحال من الاحوال ان يسند الى مثل هذا التجريده
من شخصيته كشاعر كما حاول ذلك البعض ، وكثيراً ما
سجل شاعريته في نثره ، وكثيراً ما اظهر ولعه بالاشعار
فراج يدرج من ابياته او ابیات غيره في متن رواياته .

واما فيما يتعلق بشعر العبر فقد بدا دون ما شك
أن سرفانتيس كان يفضل الرومنسارو و غرسيلاسو ،
ونقرأ بتكرار الشواهد او ما أنرفيه من الرومنسي ،
الموضح في المكخوطي وتقتضي الإشارة الى انه اكسبها
قلماً في غاية الروعة والجمال كما يسندل على ذلك من
كتاب 'لوس ثيلوس' (العيرة) حيث اتى بها على سبيل

المدح أو كالأبيات التي في مسرحيته الهزلية في بلاط
الموريك المسماة «الكابردو اسبينول» (المقدم الأسباني)
وغيرها. ولا تنحصر الأبيات الرائعة التي أوردها سرفانتيس
في الكبخوخي، مثل التي نقرأها في حادثة «التيسدورا»:

«عادة نأخذ قوى العرام

لاخراج النفوس عن مدارها

الطالة السهلة آلة

وعادة تكون الخبالة والفلاح

وبقا المرء دائما مسعولا

دافعا لسم اللوائح العرامية»

وفي رواية «الخبثانية» نغني برليوسا هذا الموشح
الجزل ومن الإبهكات الموقفة من حيث الصبغة والرشاقة:

«يا جميلة يا جميلة بك يزاد روجك هياماً

يا ذات الأيدي القضة لدى ملك البشرة... (1)»

وهذا الموشح المقضب الذي بشرح فيه حالة الفتيات
الخاديات لا يقل من حيث الرشاقة والظرافة والتعريض
اقتضاباً عن أمثاله «لعونغراء» (2)

(1) اسم جبل واقف بالقرب من غرناطة

(2) شاعر إسباني امتاز بالشعر الرمزي

«يا لتعاسة الفتيات الثلاثي جاءت بهن السبا»
 من اجل ادوار غريبة ليخدمن اربابها...»
 واما تأثير «غرسيلاسو» في الصبغوطي فجلي واضح
 لاخبار عليه اذ بينما يتحدث مع ابنة اخيه (او اخته)
 يردد مقاطع لهذا الشاعر الاسباني الكبير:

«من اجل الخلود نقتفى

هذه السبل الوترية

لبلوع المقعد الاسمي

الى حيث لا يرتقي قط

من من هناك يتدحرج...»

وفي «نسييد الكرستوسنمو» ينعقبه نعقبا حثيثا حتى
 ليكاد يظن «ترقوييه» وفي بعض الاحيان ينسج على منواله
 حتى في القافية الوسطى «ونسييد» «ميرينو» المعنى في
 «الغالاتيه» لعدم اخلاص «سلفيريا» بعيد الى الذهن
 ذلك التأوه العذب المنفجر من صدر راعيين.

واما في السونيت والمدامات الشعرية أو الهزليات
 فيخلق تحليقا منقطع النظير واشهر ما صاغه منظومة
 فيليبي الثاني في اشبيلية. وليوم دخول الدوكي دي
 مدينة سيدونيا الى قادس في يولييه سنة 1596 ومنظومة

اخرى تنسب احيانا الى كيبيدو عنوانها: «صلف دومسوط
وسروال...»

ومن قصائد النقد الادبي: نشيد كليوبي في
«الاشلاخيه» و«سفرة البرناس» ولهذه صبغة خاصة
تتعلق بسيرة حياته مثل «رسالة الى مانيو فانكث» وبعض
قطع شعرية من «سفرة البرناس» تتبع في صيغتها
اسلوب «يسري كورالي».

ولئن استثنينا الان مسرحياته فنجدد بنا الإشارة
الى ان كثيرا من القصائد التي لم نمثد اليها يد الحدثان
نخلد ذكره كشاعر على مدى الارمان. واما هذه القصائد
فهي: اربع لدى وفاة روجة قبليبي الثاني نشرت في مجموعة
مراثي صونيا ايزامل دي فالوا للمعلم لوبي دي هويوس
سنة 1581. منها مرثاة باسم الجامعة عدد فيها سرفانتيس
مأثر الخردبيل اسيوسا. وعدة قصائد اخرى موجهة
الى جمهوره من الطلاب بمناسبة نشر مؤلفاتهم الراهب
بدرو دي باتيا، لوبي ملدونادو، الونسو دي برو، خوان
روفو صاحب «لاوسيرايدا» لوبي دي فيغا في دراغوتا،
خوان يگوي دي سالس في محبي ثرويل، ملحمة ذات
مآسي سنة 1616 فرثيسكو ديات في مبحث... كل امراض

الكلي ... سنة 1588) وثلاث سونيت اخرى الى ثلاثة رجال
 دانغي الصيت (جنون ديفغو دي مندوثا، ومرثاة لهرنندو
 دي هرازا، ومديح للمركيس دي سننا كروث)، وخمس
 مرفوعة الى سان خاسينتو شطر فيها مربعات قدمت الى
 مسابقة شعرية في سرقسطة، واشية الى ناله الام تريسا
 دي خسوس بمناسبة تطويبها قديمة، ومنظومة ذات
 موضوعات شتى موجهة الى الكوندي دي سلدانيا، وقصائد
 اخرى منها ما احتشفت حديثا مثل السونيت المرفوعة
 لبرولوميو روفيسو واثنتا عشرة منظومة من ثمانية
 ابيات الى الشاعر العقلي الطوبو فنيانو وخلاهما رفيق
 لسرقاطيس في الاسر بالجزائر

الفصل الثالث

مسرحيات سرفانتيس

اظهر سرفانتيس دائما ولعا بعيد المدى بالمسرحيات ويقول في ملحق البرنس انه ألف عددا وافرا منها واخصها بالذكر اذ قال: «لو لم تكن لي لبدا الى انهما تستحق الثناء العاطرة ولما كان في اشبيلية سنة 1592 امضى تقدا عجباً بحقه مع معهد المسرحيات رودريغو اوسوريو تكفل بتأليف ست مسرحيات على حسابه وقد جاء في ذلك العقد: «لئن بررت تلك المسرحيات على اخواتها الممثلة في اسبانيا» يدفع المعهد للمؤلف خمسين دوكا عن كل واحدة وان كان الامر خلاف ذلك فلا يدفع له المعهد شيئا. والارجح - سواء نفذ العقد ام لا - ان من العشر المسرحيات المعروفة اليوم لسرفانتيس لم يؤلف واحدة لاوسوريو.

وكتب سرفانتيس سنة 1615 في مقدمة مسرحياته الثمان ومقدمة مسرحياته الثمان القصيرة (1) الصادرة عن مدريد في تلك السنة معلنا ارتياحه عن نفسه كمؤلف

(1) مسرحيات تمثل بين قصصين من مسرحية عادية. وهذا النوع من

المسرحيات القصيرة ما يسمى بالاسبانية Entremeses

مسرحي كما يلي: «شهد الجمهور المدرسي تمثيل «معاملات
الجزائر» من تأليف «وتعظيم نومانيا» و«المركبة البحرية»
حيث تجرأت وحولت المسرحيات الى ثلاثة فصول بدلا
من الخمسة التي كانت تتألف منها» ويمدح نفسه لكونه
اول من اخرج الى خشبة المسرح اشخاصا رمزيين
ونفخر بل يعتز لكونها مثلت: «دون ان ينهال على
مثليها الحيار او ما شاكل ذلك من الامور التي يرشق
بها» مثلوا ادوارهم من غير صغير وصراخ وجلبة، وتابع
حديثه فقال: «تركيت القلم والمسرحيات فدخل الميدان
من بعد» غول الطبيعة» لوبى دي ببا العظيم فخلق
«ملكية المسرحيات واعلى»... ثم اردف قوله هذا بعد
ان اتمل عدة روايات له مدة من الزمن بما يلي: «لقد
قال لي احد الوراقين انه كان مستعدا لشراؤها لو ان
احد المتعهدين لم يقل له ان من ثري ~~بممكن~~ ان
ينتظر شئ اما من شعري فلا شئ... فضجرت وبعثتها
للوراق المشار اليه الذي تولى امر طبعها واظهارها بالخلعة
التي اقدمها لك...»

وكان سرفانطيس من مناصري المجال المدرسي الا
ان مينندث بلايو يقول: انه في بعض المسرحيات التي

الفها وهو في دور الشيخوخة كالمسماة «دار الغيرة» حاول
ولوح أسلوب لوبي إي بيغا واعتقد ان في تراصم
حوادث الغيرة ينوصل الى المفعول الذي كان يحزر
عليه هذا الاخير بفضل شاعريته الغذة وابتكاره ومعرفته
الفن المسرحي معرفة بعيدة الغور.

طرق سرفانتيس الموضوعات المسرحية ضلها ووجها
من كل الابواب فاذا به في مسرحياته القصيرة يخلق
مشاهد رائعة كلها حياة ونشاط لانها من صميم الحياة
وحلتها الراهبة هي «الوضعية» وقد اقتفى السبيل الذي
اخطه لوبي دي رويديافي «السافل السعيد» ظهر اثر المسرحية
الورعة او القديسة» وفي «السلطانة العظيمة» و«حمامات الجزائر»
والاسباني المقدام» اثر مسرحية «المسلمين والنصارى»
وفي «التسلية» اثر «الناصر» وفي «ندرو دي اوردمالاس»
اثر قصة الشطار» وفي «لانومانسياء» اثر المقالة المسرحية
وفي «دار الغيرة» اثر قصة القريسان.

وجريا للخطبة التي آثرنا اتباعها نورد هنا ملخصا
لموضوع كل من مسرحيات سرفانتيس مع ما قاله
النقاد فيه وفيها:

معاملات الجزائر -

مسرحية ذات أربعة فصول، لغتها شعرية وموضوعها بسيط للغاية: «حسناً نصرانية تقع اسيرة في قبضة سيد من اكابر المسلمين فيعلق بحبها ويكلف بها كلفاً شديداً بينما خطيب الاسيرة - وهو بدوره اسير - يلقي الامرين من هيام سيدته به وهي مسلة غنية وذات ميول شهوانية وللتغلب على ارادة هذين العاشقين يقرر سداهما اتخاذ كل منهما وسيطاً لدى الآخر فهذه الوسيلة بنم للعاشقين اللقا بمبدين عن اعين الرقبا فيجدان عهدهما ويتوصلان الى حريتهما المنسودة».

ان هذه المسرحية تمثل حياة الاسارى بما فيها من شقا وتعاسة والخطط التي رسمت للتخلص من ذلك الجحيم وتحدث عن الخبائث وعن سفالة اخلاق المارقين من دينهم وعن المؤامرات الداخلية واما عيوبها من الوجهة الادبية فتتلشى امام اهميتها كونيقة تاريخية.

ولقد قال كونيرو اي فيدور في كتابه القيم «مسرحيات سرفانتيس» ان تلك الحياة المحفوفة بالاعطال والمصائب لتظهر بالواضحا في شكل مريع وفدو لعين القاري صورها ومشاهدها المختلفة وقد اكتسبت من

الحقيقة ابرزاً دون ان تمس الحقيقة التاريخية، وينجم عن هذا صحة المشهد والامانة فيما يعود الى معاملة الاسارى ويمكن التأكيد بان الشقاء كان يرافقهم منذ كانت تطأ اقدامهم تلك السواحل المرتبة الى ان ترد اليهم الحرية المسلوبة، وتصف زيادة على ما تقدم بيعهم في الاسواق العسومية الخ.

واما الغاية التي كان ينسدها المؤلف من مسرحية فتظهر من النظرة الاولى اليها: اثارة عواطف قلبهسى الثانى لضى بسم العمل الذي كان شرع فيه والده العظيم ويضع حدا لاعمال الفرسان يهدم وكرهم، واهاجة اريحية الجمهور لمساعدة الرهبان اللذين كانوا يسعون سعياً حيناً لانتقاذ الاسارى واقدماتهم فلماذا يلج في تأسفه لوفاة ضون خوان دي اوستريا وفي وصفه وصفاً مسهباً للمعاملة القاسية والعذاب والالام التى كان يعانىها الاسارى، ثم شيوع المرق من الدين وبعيد على مسامع الجمهور نص الرسالة البليغة التى بعث بها الى الكتائب ماتيو فائثكث ولئن لم يفلح في مقصده الاول فقد جا' الثانى بما كان يرمي اليه واصحاب الونتر الحساس من قلوب الناس فكم

من دموع جرت أثناً تمثيل هذه المسرحية التي تركت
في نفوس سامعيها أثراً لايمحى؟

ولما كانت هذه المسرحية مؤلفة من أربعة فصول
يتضح أنها من ثمار العهد الأول لسرفانتيس ولقد استمتع
كوتليرو من عدة نواح أنها كتبت سنة 1580 وسرفانتيس
الذي زال في الأسر ونظراً لوفرة الصحة التي تتجلى
فيها وفي الطباع الموصوفة يسوغ دون ما شك أن يقال
عن اشخاصها بأنهم اشخاص تاريخيون وهذا مما ينطبق
على أكثرتهم ومن بينهم المؤلف إذ أن منهم من يحمل
اسم سافيدرا ويقطع النظر عن هذا ففي المسرحية
بعض اشخاص رمزيين مثل «الفرصة» والحاجة» اللتين
تتخالفان وهما غير منظورتين للمغلب على حرم الأسير
النصراني في إحدى المشاهد التي تشهد بالعبقريّة والبراعة
ولقد اظهر على هذا المشهد النقد الألماني كلين الذي
يعتبر أن سرفانتيس أنها هو المبشر بالابداع الرمزي
الفائق الذي انصف به كلديرون وحتى لهو المبشر
بتطبيقات ومروعات شكسبير.

حمايات الجزائر:

وكذلك هذه الرواية تمثل عدة مشاهد من حياة

الاسارى، وتحدث عن الالعب والرقص والتمثيلات التي كان يتلى بها الاسارى النصارى في اعياد معينة واما بعض حوادثها فقد اخذت عن الاسيلفا، مؤلف «ليدروماشيا» وفقا لما لاحظته داماسو الونصو. وتشير رواية «الضابط الاسير» المدرجة في الكيخوطي الى حوادث من هذا الطراز. ويصح الالماع الى ان روايات سرفانتيس الثلاث: معاملات الجزائر وحمائم الجزائر والضابط الاسير متماسكة تماسكا متادلا وثيقا، مرتبطة بعضها ببعض السلطنة العظيمة:

مسرحية تدور عقدها حول حسنا مالقية بيعت رقيقا بعد ان اسرها القرصان في سفرها الى وهران. وتوصلت الى استهوا قلب سلطان استنبول وبفضل علو عمتها وفلاحها وايمانها الراسخ وحنوها وعطفها لاقى الاسارى خيرا جزيلا.

ان النقاد الذين حاولوا البحث عن اسس الحوادث التي ترتجر عليها المسرحية لم يتحفظوا بما يزيد على ما جاء في الموشح الذي ادرجه سرفانتيس في الفصل الثالث من مسرحيته. والحادثة على ما يظهر تاريخي الامر الذي يؤكد سرفانتيس في عدة مقامح من المسرحية

كما اشار اليه المؤرخون بوضوح وجلالة لايقبلان الرد.
ومن جهة اخرى يقول كونيليرلو ابي فيادور ان قضية
زواج الاوربيات من عرب واتراك تتضح في كل حين
وان ازواجهن يلزمونهن على المروق من دينهن واعتناق
الديانة المحمدية ولذا يشير سرفانتيس بالحاح الى تساهل
السلطان التركي بمسألة دين زوجته.

ويظهر من تركيب المسرحية انها من المسرحيات
التي تنتمي الى المرحلة الاخيرة من نشاط المؤلف المسرحي
وفي الموشح المذكور يقع التلميح الى سنة 1600 كشيء
قد مضى وعلاوة على هذا لدى الضلام عن سفير العجم
يقول في احدى المقطوعات: يدخل سفير بلباس الذين
يمرون من هنا... وفي الواقع سنة 1601 دخل رسميا
الى بلد الوليد مبعوثو شاه العجم. وتدل تلك المقطوعة
على ان سرفانتيس كان في ذلك الحين في بلد الوليد
حيث ألف المسرحية التي هي موضوع حديثنا

اما من الوجهة الفنية فالسلطانة العظيمة تعد من
افضل مسرحيات سرفانتيس من حيث الشاعرية ووصف
الظبايع. ويراعي المؤلف وحدتي العقدة والمكان الا انه
لايراعي وحدة الزمان ويقول الناقد المذكور ان الفصول

موزعة توزيعا حسنا وكلها تنتهي في نقاط تثير الاهتمام والتشوق. وكلها ذات مادة جوهرية تتحلل وتتقيد بالوحدات الصغيرة داخل نطاق الوحدة الكبرى التي تسيروها اليها وتجعل العقد تدور حولها.

ومن اكبر عيوب الرواية غياب سرعة المحاورة التي كثيرا ما تجعل من المحاورين منشدي اشعار وصفية غنائية وينجم عن هذا ان الاشخاص يستنزفون بافراط الافكار ويعرضونها عرضا لا يبق على شيء من اشكالها والوانها. يدرو دي اوردمالس:-

لهذه المسرحية من حيث العقدة علاقة باحدى المسرحيات القصيرة: «انتخاب رؤسا» بلدية داغشئا، وبالقصة المثل «الاختيان». وبطل المسرحية رجل خبيث متهتك ورعما عن انه لم يكن مجرما كان يعايش عشيرة من العجر حبا بعشوقته ويتدرب في حيلهم وخداعهم. السافل السعيد:-

مسرحية عن حياة القديسين ذات فصول ثلاثة يرجع ان سرفانتيس الفها في اشبيلية بعد سنة 1596 وقت ظهور التاريخ الذي كان له معينا. وقد يكون تم تأليفها في السنوات الاخيرة من حياة الكاتب. تند ما كانت

الفكرة الدينية تغلق راحته وتقتض عليه مضجعه، ويتضح ذلك من خلوه شكلها من أي عيب كان، ومن الروح الدينية وصيغتها المسيحية المحضة، ولأريب في أن سرفانتيس استلهم هذه المسرحية من العبرة المثلث المستقاة من وفاة الدومنيكي الإسباني الراهب كريستوبل دي لاكروث، بطل الف شمل طائش في حياته من ميزات السفلية، وأما حياة كريستوبل دي لاغو - وهذا هو الاسم الذي كان يعرف به في حياته - فكانت تسري في مسقط رأسه كما لو كانت خرافة من الخرافات. ولو ضان من المحتمل أن يكون سرفانتيس قد سمع بنهتكاته وأعماله القدسية فيحتمل كذلك أن يكون قد اطلع على هذه وثائق في تاريخ تاسيس ونمو مقاطعة القديس يعقوب في المكسيك للراهب اغوستين دافيللا أي باديا المطبوع سنة 1516. ولأريب في أن سرفانتيس نقل إلى المسرح ببراعة فريدة بمهارة فنية حسنة سيرة هذا الدومنيكي الإسباني الصغيرة المنعرجات، ولكن لما لم يكن من السهل حصر حوادث شتى لحياة معتدة وعرة في ثلاثة فصول، اضطر إلى تحويل مجرى التاريخ نوعاً فاضاف حوادث جرت في حلبشة إلى حوادث وقعت في إسبيلية

وإذا به يفتح أبواب دير المكسيك لحادث تمر في وقت قصير في حال كون وقوعها يستلزم وقتاً طويلاً. ولاحظ كوتليرو اي فيادور انه: «بدافع الموضوع رأى سرفانتيس نفسه مقيدا فاضطر في هذه المسرحية الى مخالفة المبادئ المسرحية التي يبشر بها في الكيخوطي» أكثر من مخالفته لها في غيرها من المسرحيات وخصوصاً فيما يتعلق بالوحدة المكابية ولكي يبرر موقفه ختب في بداية الفصل الثاني تلك المحاورة بين المسرحية والفضولية حيث حاول ان يتجنب مثل هذه الملاحظات على قدر استطاعته.

ويواصل الناقد ملاحظاته فيقول: «في بداية الامر يظهر كريستوبل متهوراً على طريقته ودرجة تهتكه واجرامه ادنى بكثير مما يعتقد هو نفسه ويلتف حوله اشخاص من كل فج ومن كل طراز وضرب صورتهم يد ماهرة في جميع حالاتهم ونفذت اليهم عين حاذقة لترقب ميزاتهم الفنية الامر الذي ما برع فيه احد مثل سرفانتيس. اما الفصل الاول فاقبل ما يقال فيه انه شريط سينمائي فائق يستعرض مجتمع اشبيلية استعراضاً تختلج فيه الحياة وتسير في ركابه اشبيلية العصر السادس عشر

بها فيها من اناس وعادات ولهجات ونقائص وجرائم.
لوحة اتخذت من يد الطبيعة ولا شأن للخبث السنوري
فيها. وقد قال احدهم في دراسته لثون خوان تنوريو
ان سرفانتيس هو مبتدع هذه الشخصية المسرحية
الخالدة ولا ح له انه انتزعها قبل فيرسو دي مولينا من
قلب البيئة الانبيلية ورغم وجود وجهة شبه كبيرة
بين الشخصيتين في الفصل الاول فسرعان ما يبدو
الفرق جليا اذ ان كريستوبل ما شعر قط بسيل نحو
النساء ولم يكن للمحب في مجرى حياته ادنى تأثير.
وقد حملة في أحد الايام يأسه وضيق ذات يده الى
المراهنة على كتاب ديني وقطع على نفسه عهدا انه ان خسر
يلتحق بعصابة قطاع الطرق الا ان الفتى لما ربح فضر
في هول النذر والتكفير عن ذنبه قرر ان يترهب. وفي
الفصل الثاني يشهد التبدل العميق الذي طرأ على
نفس كريستوبل دي لونغو الذي اصبح يعرف باسم
الراهب كريستوبل دي لاكروث وبصحبه رفيقه الوفي
لاغريغا الذي يترهب ايضا باسم انطونيو وتتجلى القداسة
وروح التضحية في الدومينيكي عند ما كانت
تنزع سكرات الموت ضوفا أنه دي ثريفانيو التي نظرا

لغداحة خطاياها قطعت الأمل من خلاص نفسها ورفضت
 الاسعافات الروحية التي اعتبرتها غير كافية، فهرع
 اقاربها الى الدومنيكيين في طلب النجدة فارسل رئيس
 الدير الراهب كريستوبل لاقناع الحاطثة ومن اجل ذلك
 نضرع الى الله ان يحمله نضحية تعجز عن مثلها القوى
 الشرية ان يلقي على نفسه نبعة خطابا المحصورة على
 شريطة ان نعرف ونتوب. وفي الفصل الثالث يسقط
 هذا القديس ضحية لأفطع مرض فيصاب بالبرص، واما
 حباقة التي امتدت ثمانى سنوات في حالة المرض المريع
 فقد اقتصرت على المعركة الهائلة التي اوقدت نيرانها
 على المسرح القوات الجهنمية ضد الثبات والايمان للذين
 ما ضان لينزعزعا في خدمة الله اذ انه كان قد خلع
 عليه نعمته السوية.

وقال ليخادرو: ان السافل السعيد هي في الاساس
 مأساة (دراما) تاريخية ومن احسن المسرحيات التي
 ألقت في اللغة الاسبانية اذ انها تخوض في ناحيتين من
 الحياة الاسبانية النهك والزهد ولم يتوفق احد وحتى
 سرفانتيس نفسه الى خلق مشهد سام من هذا الطراز
 الخلاشي مثل الذي تقدمه لنا المرحلة الاولى لحياة لوبي

أم مثل النموذج الورعى الطاهر الذي اختصر فتجمد في
الحياة الدينية التقوية فإذا به كاحد القديسين المشهود
لهم بالفضل، وقد امتزج في حياته الأقدام وهو صفة للبطل
بالنكاهة التي إنما كانت تنطير من الرفيق، فطلعت
علينا بصفاء الخاطر وانتقاد الذكاء والمرح، وهذه الصفة
الآخيرة إنما هي من ميزات زهادنا وقديسينا كما يحفلها
الذين يحاولون التحدث عنها دون سابق اطلاع.

وقد أكد كوتاريلو: «أن في المسرح اللاهوتى الرحب
الذى يسند من السماء حتى الجحيم حاض المؤلف وتعرض
لدرس ثلاثة أسرار كبرى عميقة الغور من أسرار العقيدة
الكانوليكية: النعمة والجمال النفساني والمحبة وهي
التي كانت تهم المؤمن في القرن السادس عشر وتشغل
الخيال إلى أبعد حد، وما ضر كون هذه المسرحية قد
مدت من صمم الحياة ولو كانت معقدة فهذا لا يعد عقبة
بأداة في وجه تبقرية سرفانتيس الذي نتر من درر
فيه على حادثة تاريخية جافة ما أضسبها روحاً أدبية
وبلاغة عذبة المنهل.

ومن ميزات هذه المسرحية البارزة: الرشاقة والمهارة

ثم براعة سرفانتيس في قرض الشعر اذ تظهر البحور التي
 نظم عليها مصقولة الالبات خفلا منحوتة القوافي نحتا.
نومانسيا:-

مسرحية ذات اربعة فصول واهم مسرحيات
 سرفانتيس على الاطلاق نقدها كوتاريلو بقوله: ينبغي
 ان تعظم قوالب الجمال المسرحي لكي تقرأ بلذة
 هذه المتوجة التي ليست مسرحية هزلية ولا بمأساة
 (دراما) بالمعنى المتعارف وقيوده. ولعلها شيء يفوق ذلك
 شيء يقوم بين النوع الفروسي والمأساة فلقد خلق
 سرفانتيس باجعة تبقرينه أو سما الرمزية وساعدته
 مساعدة جبارة على الوصول إليها اطياف اسبانيا المظلمة
 فنهر دويرو، فالجرب، فالمحاة، فالمرض ثم السمعة، وتمثل
 شيئا يفوق مغزى ومعنى بطولة شعب أبي، تمثل اضطهادات
 وشقاء الوطن وقد سطع عليها شعاع ابتسامة الامل في
 حيات قرون المجد الغابرة التي ما نظب معينها وما وقف
 عرقها عن النبض كما هو حال مرارة ذلك الحين، موضوع
 المسرحية موضوع حر خليق: الاستقلال الوطني، البطل
 الحقيقي.

نومانسيا، البلدة الشجاعة تمثل اسبانيا ونفس

اشخاص المسرحية ليسوا غير مجردات وضعوا هنالك لدعم
 المفهولية. ويلوح ان هذه المسرحية الجبارة تثير العجب
 من حيث الفكرة لا من حيث الاخراج رغم الجودة
 لأنها تبشر بانفلاج صبح جديد للمسرح مفعم بروح الانطلاق
 فسيح الأرجاء غزير المادة التي لم تعد تقتصر على التمسك
 بعصب تقليد حقيقة الحياة العارية للتخليق بها الى
 اجواء الشعر بل هي ظاهرة مباشرة لعوالي الافكار
 سخرت لها كل الفنون عن طريق الافصاح المحلل.
 ولم يكن النقاد الاجانب اقل ميالة في المديح لدى
 التحدث عن مسرح سرفانتيس وعلى رأسهم اتباع مدرسة
 استلجل الرومنسية.

ونظرا لفخامة هذا الموضوع الخليق بان يكون
 موضوع ملحمة تعد حجارة خطيرة محاولة تطبيق شروط
 الدراما عليه ولهذا يقول اسناث: «ينبغي ان لا تنتقد
 المؤلف لكونه تعرض تعرضا عاما للصفات ولانه اضعف
 من قوة العقدة في غير ما موقف دون وجود رابطة ما خلا
 العلاقة التي تربط مباشرة او غير مباشرة تلك المواقف
 بمصير نومانسيا»

ولا يقل وجاهة رأي شلي في مسرحية سرفانتيس

هذه اذ قال: لقد قرأتها وبعد ان خامرني الشك نظرا
لبساطة وسذاجة الفصل الاول، اخذت اشعر بالراحة
والاطمئنان يديان الى قلبي بشكل غريب واخيرا
اصبحت ذا شعف قوي اذ ان براعة الكاتب الذي قلما
يجاريه احد في طرق ابواب اثاره المعاطف وانما الاعجاب
خلقت في ذلك الاهتمام البعيد الغور، واعترف ان في
هذه المسرحية شيئا نزيها مما يمكن ان يوصف بالشعر
غير ان التسلط على مقدرات اللغة وحسن انسجام
القرىض يحلقان الى درجة تجعل سهولة اياضان على
الاعتقاد انه آراء مؤلف شعري.

ولست آراء شوت وسيسموندتي وترينكتور دون آراء
الاولين مقاما بل ان الاخير من هؤلاء الثلاثة قد اخذ
ان نومانسيا مسرحية سرفانتيس تحمل مركزا اعلى
بشئير من الذي يتربع فيه فوسنو، لصاحبه مارلو.

وفي سنة 1809 عند ما ضربت القوات الفرنسية
الحصار على مدينة سرقسطة امر الجنرال بلافوكس حاميتها
باصالة رأي ان تمثل مسرحية نومانسيا داخل الاسوار
فتمكن اسبان القرن التاسع عشر من التطلع الى تفاني
اسلافهم اللذين عرفوا ان يتجرعوا كؤوس الجسام من

اجل الحرية، فساد المحاس خلال التمثيل ودبت الحمية
الوطنية في رؤوس المدافعية فخرجوا لمنازلة قواد اكبر
رجل حربي عرفته تلك الايام فهزموهم وكان الفضل
في انتصارهم يعود الى اشعار سرفانطيس.

نقلت هذه المسرحية الى الانكليزية ثم نفس المترجم
تولى امر نقلها الى الالمانية.

وتقع هذه المسرحية في اربعة فصول على غرار
سائر المسرحيات التي انجلها سرفانطيس في المرحلة
الاولى من نشاطه المسرحي.



المسرحيات القصيرة

اضعف هذه المسرحيات قاضي الطلاق، واما التي تحيل اسم انتخاب رؤسا بلدية داغشتا فهي سخرية ماهرة موجهة الى الراغبين في حمل عصا السلطة، ومسرحية «السافل الارمل المسمى طرمباغوس» تضع حلا لمشكلة خطيرة هي ان يختار البطل صديقة من بين الكثيرات المرشحات الى مثل هذا المنصب ووجهة الشبه بينها وبين «الرنكونتي اي كورتديو» قريبة. واما «قصص الاتاجيب» فلاريب انه اوحى لها قصة للكوندي لوكانور وهي تدور حول اناس رفاع كانوا يصنعون اقمشة سخرية بواسطتها يرون اشياء عجيبة ويقتصر هذا فقط على الابناء الشرعيين للزوجين دون غيرهم. ومن ابرز الصفات التي لاتجاري وصف اخلاق شخصين: شنفايا وتشيرينو، والشيخ الغيور. نذكرنا بشخصية كريثالس في المسرحية المسماة الاسترامني الغيور والتي يمكن ان يكون منبعها قصة شعبية قديمة واما «المسكايينو الموه» فقيستها طنزي، والحارس الامين، تدور حول منافسة غرامية بين وافته وجندي، وكثيرا ما يعرض على المسرح الاسباني مثل هذا النزاع

وقد نسبت الى سرفانتيس المسرحية الصغيرة
 المسماة المتشدقون التي ظهرت لأول مرة في الجزء السابع
 مسرحيات لوبي دي بيغاسنة 1617 الا ان هذا صرح بانها
 ليست من مؤلفاته ولهذا منذ ذلك الحين ما برحت تعتبر
 من مؤلفات سرفانتيس. ويقوم موضوعها على ان احدهم
 اراد ان يعذب زوجته الشريرة فجاءها برجل يفوقها
 ثروة علما تنتبه الى نقصها فتصلح نفسها.

ان في مسرحيات سرفانتيس لروحا قوية وجراءة
 على العموم في السكب تحليلها متشاهد نوعية كلها حياة
 بصر فيها المعزى وتسود نفسية البيئة الهتكية وعالم
 النور اللذان نقلا الى المسرح في مؤلفات قصيرة ميزاتهما
 العجيبة الصدق والمعنى العميق ففيها يظهر السبر النفساني
 في اوسع ادواره كظهوره في خيرة روايات سرفانتيس
 الموقفة ويجري فيها التعبير الشعبي الساذج دون ما تكلف
 او اضافات غريبة واللهجة طييبة وسهلة دون ان تفقد شيئا
 من مرارتها فتبدو كأنها جاءت من تلقاء نفسها. فسرفانتيس
 في مسرحياته القصيرة يشكل الرابطة الوثيقة بين الخطوات
 الملوني دي رويدا والمؤلفات الخالدة لكتيونس دي فنانتني
 التي انما تعد كنزير لمزومات ضون رامون دي لاكروث.

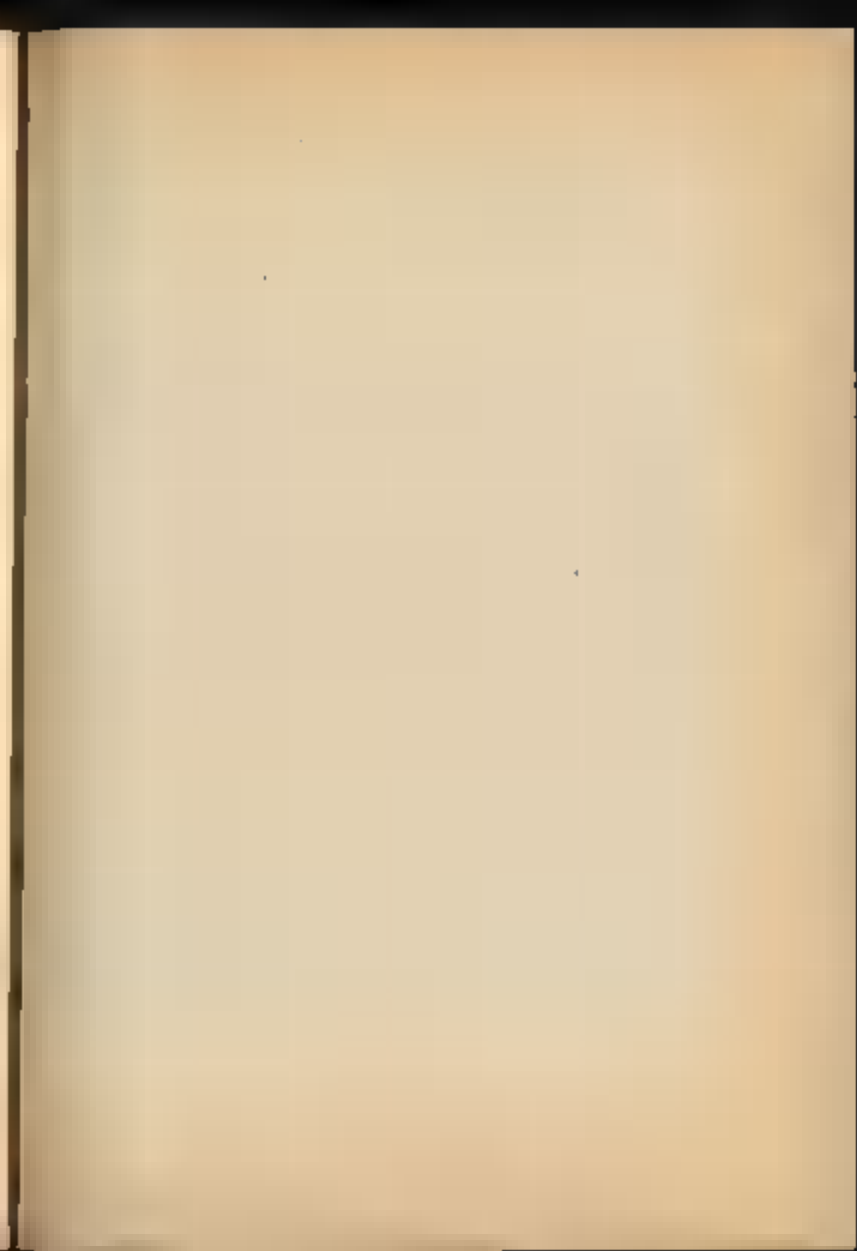
المؤلفات المنسوبة الى سرفانطيس

لقد فُسر كثير من فتاحل الكتاب مثل هرنندث
غيرا واسنسيو وضون ادولفو دي كسترو في ان ينسبوا
طائفة من المؤلفات جلها مسرحية الى سرفانطيس ومن
جملتها: رسالة نربة الى ضون ديبغو دي استوديو كريبو
تحدث عن عيد القديس خوان الفرششي ومسرحية
هزلية اسمها: ملك خوادلوبي العذراء اعاد طبعاها الطباعون
الاندلسيون والمسرحية القصيرة المسماة مسجن اشيلية،
يحتمل ان تكون للمخرج نتافس ومستشفى العلولين
والسفال والمتطلعون والموشحات وضونيا خوستينا
وضلاهورا.

وجلما يمكن ان يقال في هذه النسبة انها غير
ثابتة اذ ان الكتاب المذكورين انما استندوا في
احتمالهم هذه الى عبارات لسرفانطيس جا فيها ان
بعض مؤلفاته القصيرة يتداولها الجمهور خالية من اسم

صاحبها. وقد جاء في الرسالة التي وجهها الى الكوندي
دي لوموس مقدماً له مؤلفه المسمى البرسيلس على
ذكر ثلاثة من مؤلفاته: اساييع الحديقة، وبرناردو
النسهير، والجزء الثاني من لاغلاطيه التي لم تعرف
بل لم تكتب.





الفصل الرابع

ضون كيخوطي

ختم احد مشاهير النقاد الذي ذوى غصنه في حين
كان ينظر الشيء الجليل من اعماله واقتطاف الاثمار
اليانعة من اشغاله، بحثه عن اكبر ممثل فرنسي كوكلان
الحالد بهذه العبارات لنفس الممثل المذكور: لتصور
يوما نيوم الحشر دسيت فيه كل من السلالات البشرية
لتقديم المؤلف الذي تتجلى فيه دون ما شائبة اخلاقها
لتنال مركزا في السعيا حسب استحقاقاتها ومؤهلاتها
فعلى ما اعتقد تقدم المانيا فاوسنو، وانكلترا هملت،
واسبانيا ضون كيخوطي، وايطاليا لاديفينا كوميديا، واخيرا
تتقدم فرنسا بتواضع وعلى شفتيها قد ارتسمت ابتسامتها
الوضاعة السليمة لتلقي بدورها ايضا مؤلفها - فيسأل
العلمي، ماهذا؟ - يا سيد الاسياد هذا خرفان - حسن
أجلس عن يميني.

لكن رغم وفرة الامراء الذي وجه الى المسرحي الفرنسي
الشهير فالتقريظات التي استحقها مؤلف الكيخوطي
تفوقها بسراجل، وعلينا ان نؤكد بان سرفانطيس يعد
بفضل كتابه الحالد، احد العظام الثلاثة الذين عرفهم

العالم، وجلهم وتعجب بنبوغهم وهو احد الثلاثة الذين لم يفسد بهم يد الخدثان بسوء بل زادتهم رفعة وسنا، وكاما مرت الايام تلت قيمتهم وجل مقامهم وانه انتزع مع هوميرو وشكسبير كل ما دفن في صدر الفن الرحب: من نثر وشعر ومسرح.

ان ضريب ازمير الذي تدو وجهة الشبه بينه وبين سرفانتيس وثيقة العرى من حيث آلام الفاقة والاهمال والعيش في الظلمات والموت في الظلمات اكتسح سبيل الخلود لانه كتب وصور اعمالا خارقة العادة لالة وابطال، والمسرحي الانكليزي الذائع الصيت لانه حدثنا عن لوائح امير وعن غيرة قائد اسطول السندية وعن سقا صبين، الا انه في مؤلفاته قد طرقت امورا من ابعد ما يتصوره العقل كان يعد البطل في الفصل الاول ويموت وهو شيخ في الاخير حيث يظهر الحفارون وقد جدوا في نبش الحفرة وهم ينشدون ويشربون، وغير ذلك من المشاهد التي تنم عن وضعية مجردة تقشع لها الابدان، مما يظن انها لزعماء المدرسة العصرية ورغم كل هذه العيوب فقد كتب لادبه البقاء شامخ الجذع كازرة نسخها متأصل في اشواق الثرية تتحدى عواذي الايام بصلابتها ومناعتها وقوتها.

واما سرفانتيس فهو الوحيد الذي حائنا باشخاص
تاذيين. لقد حدثنا عن مغامرات مجنون وعن ضباة
رجل مسكين قلس ملح الحجمة - على حسد التعبير
الاسباني - فعلى هذا نفهم المؤلف الذي شبهه أرفين
بالمؤارة من حيث الأمور الدنيوية. وقال هولند ان
لهذا الكتاب المركز الاول من روايات العالم. وقال بيدرمان
بانه رجل من ان يائه النقد بضائلة. وقال المورديرون:
لدى لذة قراءة الكيخوتي في لغته تضجحل باقي اللغات
ويرى فان ابن ان في هذه المنوحة افضل درس لثقل
الخيال وبرية القوى العقلية. وعثرها امباري اعظم
حمورة شكلية نمكنت من حلقةا العبقرية البشرية. ويشير
فياردوت الى الضفاح بين المثلة والوضعة. ويؤخذ
ريوس ان المؤلف انما هو تغليد الالبادة. ويرجح بسطوس
انه عثر فيه على درس لتاريخ القرون الوسطى. ويرى
هرندث مورخون اي بي اي موليست. انه درس الامراض
العقلية. وبوتش بلانك انه تقرع بالاضطهاد الديني. وديث
دي بنخوميا انه يكاد يكون بحثا عن الفلسفة الالمانية.
وهو مؤلف يسجله الجغرافي ويعلق عليه البحري ويتبحر
فيه العالم بالحقايق ويدرسه الاديب.

ولما كان يسع منه لحظة رحية ويفتح دفتيه
 نخل ما يتعلق به أصبح من الضروري للتوصل إلى
 معرفته معرفة حقة أن تقسم دراسته إلى موضوعات شبه
 مستقلة بل مستقلة تمام الاستقلال ولهذا سنحدث: أولا
 عن ظهور الكيخوطي في الوقت الذي كانت قد جنحت
 إلى الغروب ثمن رواية الفروسة، ثانيا: بجاء كتاب
 سرفاطيس، ثبوته في إسبانيا وفي الخارج، قضية جس
 البيض، بعض النظريات التي رتبها اكتشافها في الكيخوطي
 ثالثا: أهم الشروح المترجمون صور الكيخوطي الفنية.
 رابعا: موضوع الكيخوطي، خامسا: اشخاصه، سادسا: روايات
 الكيخوطي، الفضولي المل والاسير، سابعا: تقليدات
 الكيخوطي، ثامنا: صنون كيخوطي في المسرح، تاسعا:
 المتخافة وصنون كيخوطي، عاشرا: الضيخوطي والنقد
 الوطني والاحسي

- I -

ظهور الكيخوطى

وقت جنوح شمس رواية الغروسية

الى الغروب

أكد احد مشاهير الضارب ان اسبانيا في غضون
العصر السادس عشر كانت تجري في اثر ما هو خارق
كان قصاصوها يروون ما هو بعيد كل البعد عن
الحقيقة بل المسحيل بعينه الا ان الفوران الوخشي
والضبريا وليدة الاعمال الخارقة كانا يخلعا عليها
ثوب الامر الطبيعي الممكن ان يأتيه الفارس المغوار
وما كانت لتقدر الاستحقاقات الادبية فذا كان يجتهد
الضارب في سرد الحوادث الخارقة للمعادة وكانت الحياة
الاجتماعية الاسبانية تسير في سبيل لا تقل وعورة وما كانت
سياستها اقل طموحا ولا النظام الاجتماعي والاقتصادي
ابعد عن ميادين الوهم وكان هذا الاتصال الوثيق
العري القائم بين الادب والنظام الاجتماعي يقاوم بنجاح
نفوذ المنددين والوعاظ الى ان اقبلت ايام فيلبى الثاني

والتألف المؤلفة، فشرع آتخذ الصل بالجداع واتيحت
لسرفانتيس الفرحة لتشر الضيخوطي، هذا ما قاله
فرنسيسكو كنياليس فاذا بهذا الأستاذ الكبير لا ينطق
بغير الصواب، ان الأدب الروسي الذي يزعم احدهم انه
جاء من الشرق الأقصى ويزعم الآخرون هو وليد اوربا
كان ضروريا لاذكاء نار الحجة في النفوس في الوقت
الذي اندلعت فيه نيران الحروب بين الديانتين
السيحية والمحمدية.

كانت الحوادث الحارقة للطبيعة تنير عواطف الشعب
الذي كان يميل ميلا جنوبيا نحو ابطاله فلذا كان
من الواجب خلق امر عجيب يجعل من البطل رجلا
من طينة فوق طينة سائر الرجال فلم يكن هذا سوى
سمة او بالأصح نسخة عن حروب ابطال اليونان وتروادة
التي تغنى بها الشاعر الخالد.

ففي اواسط القرن السادس عشر استحوذت
الانتاجات الروسية على التراب الاسباني غير انها في
نفس الوقت احطت من الهدف السامي الخالص الذي
كانت تتجلى به قصة الروسية الاسبانية الاولى عن
اماديس دي غولا الشهير، ولاشك انه كان في الحرب المقدسة

للأسبلا على القدس لشعرا المجولين وجوء
وكان هؤلاء يطوفون على المعسكرات فيقصون أعمال
ابطال وهيبين حملتهم شجاعته العديدة النطير على الاتيان
بأكبر ما يتصور العن من الخوارق.

ومما لا ريب فيه انه في نفس القرن الخامس عشر
اتما الحرب التي مر على عيوبها في اسافيا ثمانية قرون
ضان اولئك الذين يتربون الحصار على غرناطة ليحملوا
ابا عند الله على نسله آخر معقل يساق تحت سيطرة
احفاد طارق وموسى لايجهلون روايات اماديس وفلوريس
وبرتلينوبلس وعصرهم من ابطال الغروسية.

وعند ما انتهت الحرب الضروس التي اضرمت
نارها في اسوريا، قبض لروح الغروسية احد الكتاب
فارتفع به الى الدرجة المتلى وسكب في قالب جديد
اعمال الدونكيشوت غلار وآسنذ ظهر الحاضم غرسي
- رودريغث تي مونتلفو مؤلفه «أماديس» محصورا
اذ جعل منه رمزا لروح الغروسية وهكذا جاء اماديس
دي غولا رمزا للفرسان العاشقين والمدافعين عن
الايمان العيسوي.

وكان على المرتفي ذلك العهد ان يختار بين الطرق الثلاث:

الضخيمة، أو البحر، أو القصر الملكي. ففي الدير حياة
 عمدة مريحة الا انه تقوم الى جانبها التضحيات الضمائم
 الشوائب والحمة. والبحر يوازي ما يسمى حياة الكفاف في
 اميركا أو خوض غمار الحروب الدائرة رحاها مع تركيا
 والقصر الملكي. وان كان هو العيش في الحاشية فقد
 تكلفه البطالة القتالة، فما هي الاهداف التي التي كان
 يحام بها الشعب الاسباني؟ الغروسية وهي الشرف هدف
 ملوني وهو الحب. وهدف ديني عاطفي وهو الايمان.
 ونوال الابطال كان للدفاع عن الشرف والحب والحروب
 مع المسلمين لرفع كلمة الايمان والعزة في سبيل الملوك
 والدين والسيدة. وكان المتأفقون يحشرون المردب الحسن
 ويخوضون اقسى المعارك وكان الفرسان يتبعون اوامر
 اسبادهم طاعة عمياء مهما اقتضت عليه من اجحاف
 واستبداد، يتركون اسغالهم الخاصة وينهجرون مساءهم في
 سبيل الدفاع عن اراضي ملوكهم والمطلع على حروب
 الاسترداد يقف على الكبير من مجاراتهم ويقدر روح
 الغروسية الوثابة التي صاغت تسيطر عليهم.

ولقد قال اشوارتز ان هذا العصر لشهير من وجوه
 جديدة، وهو عصر فيه تمت وسمت اهم الاختراعات

والاكتشافات: الورق البارود: الابرة المغنطيسية: والمطبعة
وفيه يكتشف الجنوى العظيم شألا جديدا وتبدل مبادئ
سياسة الملوك والسعوب: في هذا العصر يثور العقل على
الايمان وتحدث حركات ادبية وفنية من ابهى الحركات
وكل هذا ليس ليقوى على تغيير وجهة الافكار فحسب
بل - بالعكس - اذكى النفوس وزاد في تعطشها الى
الحجارات وحب الترواات والرغبة الجامعة في القيادة والامر
والنهي وهو الشيء الذي يمتاز به رجال هذا الزمن.
وضان محقا هذا المؤرخ الصغير في قوله فقمص اعمال
ارتوس الذائعة الصيت وافعال فرسان المائدة المستديرة
وحب لانتاروتى وخينبرا ونريسطان وايسولدا كانت
كلها امورا معروفة حق المعرفة واما افعال اماديس
وبلمارين الخارقة العادة فكان يعلق عليها ونروى بشكل
لايصح معه ان يقال انها غير واقعية وكان يعتقد بها
كما لو كانت كذلك واما الكتب التي كانت تحمل في
بطونها هذه الاقوال فكادت تكون الغذاء الادبي الوحيد
للشعب الاسباني في غضون القرن السادس عشر.
ولما رأى الكتاب تعافت الجمهور على حوانيت الوراقين
واختطاف روايات المشائين الذائعي الصيت فكروا في

أن يواصلوا القص والنسج على غرارها واستخدام سير
 أولاد أولئك واحفادهم وكلما كانت تظهر الطبقات من
 جديد كانت تطلع معها اعمال جديدة، وفتحت الخوارق
 نجا واسعا وحقلا خصبا امام المؤلفين المحمومي الافكار
 الوهمية للكتابة ووصف اعمال لانتم الى الحقيقة بصلة.
 وقد احرز على نصب السبق في هذا المضمار فليسيانو
 دي سلفا. وحدث هذا الطرار من الادب في اسبانيا
 انسانا أكثر منه في فرنسا واطاليا واجتازت المشاهد
 الوهمية التي تتحدث عن الاسد الطائر والجنيات والمردة
 والافزام والاوانس المغبونات والفرسان الضرام اعتبار
 القصور والاضواح على حد سواء وفرضت ارادتها على
 صر من الطبقتين المثقفة والجاهلة واشتد الشعب المتكاسل
 الذي ما شعر قط بسيل نحو الفلاحة والزراعة معين
 الثروة اعتقادا راسخ الثنيان بخل ما رواه عليه أولئك
 انصاب المجولين مثل تلك الخرافات التي رأى فيها
 - وفيها وحدها - مستقبلا زاهرا يغنيه عن سواها، ولما
 كان يظهر من حين لآخر في تلك الصنوب ان الاوانس
 كن يرتسين في احضان العاشقين، حدا هذا بمسيري
 دقة امور ذلك الزمن وارباب الشرع والفلاسفة لان

يرفعوا اصواتهم ضد ظبيان تلك المستوجبات المملوئة
 بالترهات ولكن كيف يكتب لدعواهم التجاح وامبراطور
 زكارلوس الخامس يسلي ويروح عن نفسه بقرأة
 السليمانس دي غرائيا، وولده الوقور الزاهد فليبي الثاني
 يسلي دور الفارس المساء في الاعياد والمنارات؟ وكيف
 الشعب ان يعمل هذا النوع من العشب وقد قيل ان
 نرنسا دي خيسوس ضاقت جد مولعة بهذا الطراز الادبي
 وان ولعها بلغ من الشدة درجة حملها على التأليف فيها
 حكم الفلاسفة والاحلقبون والشارعون بفساد هذا
 النوع من الانتاج ولهذا ترى ديفغو غرائيان في المقدمة
 التي كتبها لمؤلفات خنوفتي : بالامشولة التي تلقىها
 هذا الضباب انفت في القراء الاسبان ذوق الفهم واحسنهم على
 عدم اللغات الى كتب الاحاحي والاضايب التي يسونها
 كتب الفروسية التي يفوق وجودها في اسبانيا ما هي
 عليه في اية مملعة اخرى وهي لاتصلح الا لقتل الوقت
 سدى والخط من قيمة الكتب الحقيقية التي تنطوي على
 النظريات الصائبة وهي فوق ذلك عديمة الفائدة، ولان
 مثل هذه الخزعبلات والخرائف التي نقرأ في تلك الكتب
 تخلل وتشوش حقيقة الاخرى ونفقد من صدقها لسرد

الوقائع التاريخية، هكذا تكلم واحد من اكبر الائمة التي عرفت
 في ذلك الوقت ونلاه غراناذا الوقور فاصدر الحكم الاتي:
 «والان اود ان اسأل الذين يقرأون كتب الفروسية الملققة
 والخسوة افكاه ما هو الدافع الذي يحدو بهم الى ذلك؟
 فبأنهم يرددون علي بقولهم: ان بين الاسال التي تبصرها
 عيونهم الجسمانية اثنين هما اندتها واعتجها: الجد والقوة
 انه لما ضان الموت - على حد تعبير ارسطاطليس -
 آخر الامور الهائلة وابعث سى اتند سائر الحيوانات فان
 رؤية رجل يتحلى بصفة المزدري والمتعصب على هذا
 الخوف الطبيعي: سر اشباحهم. فمن هنا يتولد تعاقب
 الناس لرؤية البراز ومصارعة الثيران وما شاكلها من
 الامور» وشبيه هذا الاعجاب - ضما بقول الفيلسوف -
 سير بصفة مسسرة جبا الى جيب وممروجا بالخبور
 والمذة اللطيفة ومن هنا ايضا يتولد اخلاذ اوصاف
 الدروع وشارات الشرف الاسلحة دون غيرها من الميزات.
 فلذا اذن شمل هذا الاعجاب الجميع ولذا لم يقتصر على
 ابقا مكائته وتصور الامور الحقيقية بل انه تعداها الى
 الخربلات والاهام. ومن هنا تولدت رغبة الكثيرين وولعهم
 بمرآة كتب الفروسية الضاربة وكما لو ضان هذا

ليس بكاف، فما هو الراهب بدرو مالون عي شايدي يقول
 في كتابه المسمى «كتاب محادثة المجذلية»: «ما هي كتب
 الحب: وديانس: ويوسكانس وجرسيلاسو وكتب الخرافات
 والخزعبلات عن اماديس وفلورياسيس وضون بليانيس
 وغيرها من اساطيل الاذائب المماثلة سوى خنجر بيد
 رجل في حالة الهيجان؟... وما عسى ان تصنع الانسة
 التي لا تضاد ذنب على قدميها فمجيء بديانته في جيبها؟
 واثن كان الكأس الجديد - كما قال احد الشعراء - يشرب
 ويحتفظ لمدة طويلة بطعم الشراب الذي يهرق فيه وكان
 الطفل والطفلة من الاقداح الجديدة وقد هرقنا فيهما خمرًا
 ساما من هذا العيار اليس من الواضح الجلي ان يحتفظ
 بذلك الطعم وقتا طويلا؟ ويتخلص من بعد الى التحدث
 عن كتب الفروسية بالسذات فيقول: «ويقرأ الآخرون
 تلك الاحلام الواعبة الكاذبة التي لا يعرف لها اول من
 آخر» والتي قد سحنت بها كتب الفروسية التي شأوا
 ان يخلعوا عليها هذا الاسم والتي لو عرفوا ان بقدروا
 شرف التعبير ويحلوه المكان اللائق لاسموها. وكانت
 التسمية افضل كتب المصوح ولو سألت الذين يقرأونها

ما استفدتم من مطالعتها لأحابيوت. قد تعلمنا الاقدام
والجراحة اللازمة لنقل السلاح. وحسن الادب لمعاشرة النساء
والوفاء والاخلاص لهن. والشرف وشلو المهمة وكبر النفس
الى الأعداء الخ. الا ان كل ما يسره له اصحاب القصر
وحلة الاقلام الزينة كان يذهب اعراج الرماح وكانت اسموانهم
من صدها في قعر الوهاد المتفجرة. ان سب القروسية
ذمت تشق سبلها دون ما عنا بل ضاقت تستقل في
الجزيرة الايبيرية لنقل الفاني وقد خلفها اذليل
النصر. وكانت مطامع الشبهة وبلد الوليد ومدينة تخرج
النبغات نلو الأحرى لتقص الاضال الخلقين الوهميين
وحلما خرجت طبعة جديدة الى الوجود تعدت معها
خصية البشر الذي نعددت منه الطبعة السالعة وخفوسها
محصية امير المسلمين امدنس دي غولا

ورفع سنة 1558 طلب الى مجلس الاعيان في بلدانوليد
النس فيه عدم السماح بطبع كتب القروسية من جديد
ان الامبراطور استقم بالنسكوت عن الجواب ولم يصدر
قانونا في هذا الخصوص الا بعد سنوات اي سنة 1578
تاريخ ارسال رد الاميرة خوانيا خوانا على مجلس الاعيان
وبعد انقضاء اجل ليس بتفسير شبه على نواب الملك والمحاكم

والولاة الأمر بعدم ترخيص طبع واتصال كتب الاحاجي
والاكاديب والتواريخ الملتقة الى مناطق نفوذهم لاي
اسباني او هندي ولئن كان قد حذر ارسالها الى الهند
(اميركا) ففي اسبانيا كانت تظهر طبعا لا تعد ولا تحصى
من هذه الكتب ولما بلغت وفرتها درجة لا تتحورها انسان
وتفاقم شأنها وسأنا اضافيتها اخذت في الانحسار شيئا
فشيئا وقررت التهاون والقبول عليها وما كانت تحف الغلوا
وتهت حرارة الواقع والحاسة لمؤلفات الفروسية حتى ظهر
اعظم تقريع حا ليرفس هذا النوع الادبي ويجهز عليه
وفي اوائل القرن السابع عشر ليس الا غابت شمس رواية
القرون الوسطى الا انه يصح الاشارة الى انه في بعض
الاحيان اعيد طبع كثير من مثل هذه التي تعقلها لعدم
اهميتها ونكتفي بالاماع الى ما بعيننا من حيث محاولة
انقاذ هذا الخراب الادبي بعد ان كان قد دفن نهائيا
والى الابد

فرواية الفروسية التي سرحت في الاضمحلال في
القرن الاخير من القرن السادس عشر ورائينا كيف طالت
نضالها من حين لآخر ونصدر عنها طبعا لم يكتب لها
البقاء في غضون القرن السابع عشر نفسه وكيف ان في

ثلاثة هذا صدرت بعض القصص إلا أن الخامس لم يعد
 مويما مما ساعد على عدم تعدد الطباعات مثلها في القرن
 السابق. وهذا لا يعني أن روح الفروسية قد قطي عليها
 تمام القضاء بل لها صفة الطابع الذي يميز تلك المرحلة
 مع وأن نوازي الفرسان والابطال من متن الروايات
 منخذوا مقعدا رفيعا في حديقة الأدب الإسباني الجديد
 وهو المسرح.

وبجرد الاشارة على هذا نروا العجب من رؤية
 لوني دي سغا يعمل على احيا معامرات المرحيس دي
 انوا وفيا مدبانا بنادي سعاد نيكفيا وموظلمان يحيى
 اعمال بطربين دي اوبغا وكسترو بترق عتاف الجمهور
 في الكوندي دي ايرلوس ومولد منيموس ومن نهافت
 نفس هذا الجمهور على المسرح السعية ونصفه نصفها
 نحوما لانتائه الخاطين آذانه بقاء من العاطفة وهم
 نادون في اسعمال الرياح والاضواء هذا وان نقل مثل
 هذه الاعمال الى خشبة المسرح حمل الجمهور على الاعتقاد
 بانها لاناس كانوا من الحب وهم واعادت الى ذكرياتهم
 اعمال غونزالو دي شوتيمان وجوان دي هرلو والفران
 دي فييروا وعونري كيجادا وديغو دي فليرا.

أما مؤلفات الفروسية فبعد أن اجترأت رقاع كل
 قصور ملوك أوربا اتخذت لنفسها في إسبانيا صيغة أصلية
 وعند ما كانت نهروا نحو الغيب ظهر ذلك المؤلف
 الخالد الذي قضى على ذلك الأدب الملقق العليل. وهذه
 النتوجة هي كتاب سرفانتيس الأسى - ضون كيوخولى.
 ولكن ما هو العرض الأسى الذي سعى وراء
 سرفانتيس لدى تأليفه كتابه هذا وماذا قصد من طبع
 معامرات أنيل المانشا التي لم ترها عين؟ لقد تضاربت
 الآراء ونباست في هذا الصدد ورأى المعلقون والنقاد ثاببات
 جد مختلفة بل انهم انقسموا على أنفسهم إلى مجموعتين.
 ولقد كتب البرنس توريس في تأييد الجرح الثاني
 من المصحوحلى أنه رأى متاراة في المادة وسعة في
 الإحلاع والاستفاده وهذا ما ينطبق على موضوعه المتبع
 بسهولة لاستعمال كتب الفروسية الصادرة على وفرتها
 والتي فنتت تعددا ونحوها من حد يقبله العقل وترضاه
 العدالة. ويرى ديث منحومه: أن سرفانتيس لم يسع
 في زمانه للقبض لا على الفروسية المثل ولا على بقايا
 الفروسية الحقيقية ولو فعل هذا لكان برهن على جهل
 الماضى والحاضر والمستقبل. ويرى كليماسين أن: في

ضون كيجوطلى صور الوجة المضحكة والنواحي الهزلية
 لافرسان المشائين وفي سنسئو حامل شرعه ما هو مضحك
 في اللذين بقدرتون ويجلون خوارق الفروسية، ويرى
 ميت انه: «ما سحر بل ما حاول قط الميل في ادنى شى»
 من افكار الفروسية، ثم يواصل اجتهاده في هذا الموضوع
 ليقول مؤكدا: «لم يتصب اللذين حاولوا التمسك بان مؤلف
 «فانطيس انسا هو هجا قارس لكتب الفروسية». ولم
 يتسع بهذا القدر بل انه توسع في دراسته وبحثه الى ان
 ابدف ارااه برأى آخر فقال: «انه ليس فقط لم ير في
 الكيجوطلى ذلك الهجا اللادع وذلك القبح الموجه ضد
 صلب الفروسية المنسوبة الى نفس الكتاب بل يعتقد
 ان غاية سرفانطيس الحقيقية كانت ترمي الى رفع شأن
 افكار الفروسية القديمة الشريفة».

ويشاطره هذا الرأى ميكال س. اوليفر في قوله:
 ان ضون كيجوطلى ليس بهجا بل تعريض لروح الفروسية
 والقرون الوسطى تلك الروح التى احتضرت على يد
 الانبياء الوثنيين، الشهوانيين، الفاقد لمعنى الاحترام المفعم
 شهوة وطموحا ونزقا وسبانا، ونصح الاشارة في هذا المقام
 الى ان اغوستين دوران كان قد كتب من قبل ان

المؤلف لم يجرّد قلمه من غمده ضد الفروسية القديمة التي لها الفضل وحدها في اسرداد الوطن وتحريره واعسا جرده ضد ذلك التصنع والزيف المستخدمين فيما بعد للتشويش او للدفاع عن قضيائنا لانتم الى تلك بصلة. وكتب العالم خيل اي ناراخي ان الغاية من كتاب سرفانتيس احية ذكرى الفروسية وتطهيرها من الشوائب الكثيرة التي الصقنها بها الجماعات المضمومة فشوهتها. عبر ان احد كبار الدارسين لمؤلفات سرفانتيس وهو مريانو امتريرا الذي أصدر في مدريد سنة 1884 نشرة تحت عنوان: «تجلبات مرفوعة للذكرى سرفانتيس» لم يوافقه على ذلك اد قال: ان مؤلف هذا الكتاب الذائع الصيت قد سدّد ضربة قاضية الى فساد ذوق زمانه وإلى العيوب التي جالت كنتيجة مخنفة لتلك القراءة الشاذة قراءة كتب الفروسية التي نشرت ظلها فوق ربوع اوربا فافسدت الاخلاق ونالت من المروءة والحصانة واغرقت العادات وسعت بواسطة الرومنتي الذي لا يقبله العقل الى اشادة جدار لا تنفذ منه الانوار التي كانت اضواؤها تتلألأ في روحه المسحفرة وبصيرته الثاقبة.

وفي غضون هذا القرن في حفل رهيب اقيم تمجيذا

الذكرى هذا العبقرى الخالد سبع سموت حجة زمانه منندث
 ابي بلايو يقول: «ان سرفانتيس لم يقصد قتل فكترة
 مالية بل قصد تحريرها ورفع شأنها اذ انه اضاف الى
 من كتابه كل هو ما شعري ونيل وجميل في الفروسيه
 ولم يأت كما زعم بعضهم بمؤلف صاف ولا برفض جاف
 قاحل بل جاء بمؤلف مطهر ومكمل .

ونكتفي الان بهذا القدر من اراء النقاد والمعلقين
 حيث ان تعددها يوازي تعدد الادواق والنسائل: من
 من هؤلاء يقترب الى حقيقة العامة التي انشدها سرفانتيس
 لدى تفكيره في موضوع كتابه ؟ فلنقف اذن على ما
 قاله المؤلف نفسه .

كتب سرفانتيس في مقدمة الجزء الاول من
 سمون كينخوسي ان مؤلفه انما هو ابتداء ضد خصب
 الفروسيه، وانه لايرمي الا الى تحطيم السلطان والمضانه
 التي اكتسحتها تلك الخصب في العالم وفي نفوس العامة،
 وانه لذلك فان يقرأه المصاب بالسويداء يضحك والطروب
 يزداد طربا والساذج لا يبرطم والزنيق يعجب من الابتداء
 والوقور الخفير لا يردريه ولا الحميم ينكر عليه الثناء

والتقريظ وبتابع فيقول: «التقصّد منه ذلك صروح كتب
الفروسية هذه التي ملأها الضميرون ومدحها السواد
الاعظم».

وفي الفصل 47 من الجزء الاول بدلي برأيه في هذه
الغضب شد قوله: «اتبر اعتبارا قطعيا انها مضرّة بالجمهور...
وما حملت نفسي قط منقّة قراءة احدها من اوله الى
آخره... فهذا النوع من الادب يقع ضمن دائرة الخرافات
التي ترمى الى اللذّة فقط دون ان تهذب... وما دام
هدفها الرئيسي ايجاد اللذّة فيعذر علي كشف النقاب
عن كيفية بلوغها الهدف المرمى اليه وهي خشوة بهذا
المقدر من الخزعبلات... واي جمال يمكن ان يوجد بل اي
مدلول عقلي في صواب او خرافة نقول ان فني عشره
ست عشرة سنة يظعن ماردا كالبرج بالسكين فيقده الى
شطرين كما لو كان هشيناً؟ وانه متى وصف لنا موقعة
يصفها بعد ان يقول ان العدو جرد لساحة القتال مليون
مقاتل؟ ثم يدعونا صاحب الغضب قسرا كي نصدق ان
الفارس انصرف على هذا العدد الجرار من المقاتلين بقوة
ساعده المقتول ليس الا... واية ثقيلة ان لم تكن همجية
ترتاح الى قراءة امور تحدثنا عن برج عظيم شص بالفرسان».

بحر شباب اليم تسفينة تجري الرياح وفقا لما تشتهي
 جنسى اليوم في مبرديا وتصبح غدا في اراضى النجاشي
 جوان دي لاس انديس او في امصار اخرى ما وصفها
 بللموس ولا رأيتها عين ماركو بولو.

لقد اتفق سرفانتيس بهذا الشكل الحكم ككتاب
 القروسية وهذا لايعني انه لم يسد النصاب في كيفية
 التأليف مثل هذه القصص ما دام فيما بعد قد كتب ان
 قصدا صاحبها يمكن ان يطلق العنان لقلمه فيصف الغرق
 والالام والحروب والمعارك والقواد الحكصا الزنا
 والاعتدا الما ديين والقباسين الا ان كل هذا ينبغي ان
 يكون باسلوب حللي هادئ وابداع حادق يميل على قدر
 الامكان الى الحقيقة نفسها فهكذا يعلم المؤلف وينجح وهي
 العناية القصوى التي يسدها كل من صاغ مثل هذه الكتب.
 يتضح لنا من هذا كيف ان سرفانتيس غربل خرافات
 هذه الكتب وفادى بتجربتها من كل ما لاحظه له
 بالحقيقة من غير ان يمس شرف القروسية ومناهلها
 الاعلى وحب المرأة الامر الذي وصف وصفا رائعا عند
 اماديس دي غولا ولفق تلفيضا خزيا عند احفاده.

لايسوغ بوجه من الوجوه لسرفانتيس أن يسخر
 من مثال الفروسية ومن اتجهود البشري لبلوغ غايته
 نظراً لما في حياته وفي كثير من مواقفه من دلائل على
 أن في صدره روح ذلك المغامر الفتح فالاعمال التي جرت
 في الأسر عندما حاول الفرار لا خلاص نفسه فقط بل خلاص
 رفاقه ثم القائه السعة على نفسه ونحمله مسؤولية هذا الذنب
 الخطير دون سواه مدعياً أنه هو الذي دبر خطة الفرار
 معرضاً نفسه للانعدام لهي من الأمور التي تتناسب مع
 أعمال الفرسان الانضالي وما ضان سرفانتيس ذلك الرجل
 المتحسب لسلالة هذه الكعب ورأى مثال الفروسية الأعلى
 قد هتكت حرمة وجات على الخطيئ انقضت قلمه من
 غيبه دفاتنا عنها ساحراً متيكما على الملق والكذب منها.
 ولذا يهزأ من بليانيس دي غراسيا لدى تحدثه عن قتي
 عمره ست عشرة سنة يقتل ماردا ضالرج قداً ويسخر
 من الأمور التي تقرأ في البوليشسني دي بوبسيا والاس
 سرغس دي اسبلنديان ولايمكن أن يصدقها بشر. ويضحك
 من البرج المسخور لصاحبه: ضونيا دلفوندوفالي المذكورة
 في فلورنسال دي لوكا. وفي وسعنا ان نأتي بامثال عديدة

من كتب الفروسية التي تعرض اليها سرفانطيس فرسقا
 بسهامه المرة اللاذنة الى ضل هذا استند سرفانطيس
 ليصور في مخيلة النبيل المانتشوي المحبوبة امورا وهمية
 لا تقع عليها بصره وانما هي وليدة تلك الخيلة الميالة
 للفروسية المشبعة بروحها فلذا عندما يصطدم بالحقيقة
 يستحيل القصور الى خافات والمردة الى مطاحن هوائية.
 فما ضون كيخوخلى اذن سوى كتاب اضيف الى
 كتب الفروسية نظرا لظنون مؤلفه كان يتصف بميزات
 عرف منها انه رجل خيالى منالى منه في دنيا الاحلام
 على شرار بعض ابطال تلك الكتب وضل ما هبالت ان
 سرفانطيس احس بالالام بحر قلبه عند ما رأى كفيف
 كانت تشوه صورة اماديس شي غاويلا واقض عليه
 متذجعه ان يحور كتاب قصص المسائين الخفايق وان
 يخفضوا الى الخطيئ زورا وهتانا جمال الفروسية الاعلى
 فعزم على الاستهزاء من السطك الذي ضمته بين عقينها
 تلك المؤلفات فلهذا قابل بين خطط المشا والحقيقة اي
 الرؤية الثنائية للاشياء اذ قد يستحيل خلق روح الفروسية
 التي يرمز اليها الشرف والحب والسيدة وانما يسكن

تطهيرها وغربلتها من كل ما علق بها لجمال من كرامتها
 على مير الزمن ومن العوائد التي اخذت تتسرب اليها
 فانتقى كل ما احنوت عليه كتب الفرسان المشائين
 من شريف ونبيل وشعري وتلوي وغيرها من الميزات
 المشتة فجميعها وحلق بها وفي وسعنا ان نؤكد مع
 العبقرى الخالد منددت اي بلانو ان سرفانطيس لم
 يقتل فكرة سامية بل انه حورها ورفعها.



- II -

نجاح كتاب سرفانطيس

ليوتيه في اسبانيا وفي الخارج: قضية حس النبض
بعض النظريات التي رتبها تصنيفها
في المصحوظي

يمكن ان ينفذ ظهور الكيخونى لنجاح مطبعي
ظهر اذ قبل ان يعرض في واجهة ورفوف مكتبة الوراق
خوان دي لاسكوسا خان موضوع حديث الخلفات
الدينية والمجتمعات التي انقسمت انشاؤها الى عبيدين
ومستعدين.

واخيرا سنة 1605 ظهر الكتاب وشرح المبيع
المؤلف الذي انما جاء ليرفع رواية القرون الوسطى
المحطة نظرا لما فيها من القصص والخرافات عن الفروسية
التي ساد منتوجها في اسبانيا قبل قرن وخمس على
سائر العوامل الادبية الاسبانية، واما شرح خنون كيخونى
فكان سنة 1605 لاسنة 1604 كما حاول ان يثبت ذلك
بعض الكتاب، وليس من الصعب اثبات هذا الامر حيث

انه في سجل اخوية الطباعين في مدريد قد اتضح انه
 سلبت بتاريخ 26 مايو سنة 1604 نسختان من الكيخوطي
 تحتويان على 83 دفترًا وان الامير المصنوع من الملك
 اطبع كتاب سرفانتيس مؤرخ في بلد الوليد 26 شهر
 سنة 1601 ولئن كان الامر كذلك فينبغي الامناع الى
 ان المصحح سلم بدوره بعد صدور الامير الملكي النسخ
 الى الطابع في شهر دجبر وفي نفس هذا الشهر اعيد
 الكتاب الى بلد الوليد ليقوم السادة اعضا المجلس بتعيين
 نسخ النسخ ثم اعاده هؤلاء السادة في اواخر الشهر المشار
 اليه حيث انهم تسوا لمن النسخ في 20 منه وفقا لما في
 التعريف الذي يسهل فانهم جعلوا ثمن كل دفتر ثلاثة
 مراييدس ونصف الخ. فبيكنا اسنادا الى هذا ان قولنا
 ان الكتاب عرّض للبيع في اواخر شهر يناير سنة 1605
 وريادة على ما تقدم لم يقع العور على النسخة
 المدرجة التي نرتم صدورها سنة 1601 والتي اشارت
 اهتمام المصنفين في السيرة السرفانتية.

ونعيد هنا كما قدمنا ان ظهور الكيخوطي عند
 نجاحا متبعيا باهرا واعتمادنا في القول على عدد الطبعات
 التي ظهرت سنة 1605 ولئن شاعرنا بعض المصنفين

في السيرة السرفانطينة اراهم تعلمنا انها تسع: ثلاث
منها في مدريد وثلاث في لشبونة وثلاث في بلنسية.
وقد اشار احد المؤلفين بالادب الاسباني وهو فولسه
موسك في مقال نشره في المجلة الاسبانية الى التناقض
الواقع في الطبوعات البلنسية الثلاث التي ظهرت سنة
1666 وهذا التناقض هو نفس الذي حصل في الطبوعات
التي ظهرت في لشبونة وانما افترض على الصورة التي
يحملها دقة الكتاب.

ويعتقد كوناريلو اني موري ان هناك طبعة اخرى
ظهرت في برشلونة ولا سكن الجعد من ان كثيرا من
الكتب التي كانت تطبع في مدريد كانت تصدر معادا
بعها في برشلونة في نفس السنة. اما حسب سرفانطيس
فهي بعيدة كل البعد من هذا القياس حيث ان رواية
الغلامية لم تطبع في برشلونة حتى سنة 1618 وانقصص
الملك سنة 1613 ولم يهرقمبعة برملونية المسخرة البرناس،
والسرخيات والمسرحيات القصيرة في القرن السابع
نشر انسا ظهر فقط في مدريد وبرشلونة في نفس السنة
المؤلفان المسيان: انرليس وساخيوندا وما قيل

في هذين المؤلفين يطبق على الكيخوتي من حيث ظهوره في هذه المدينة.

وهناك من يؤكد ان طبعة من الكيخوتي ظهرت سنة 1805 في برنلونة اسنادا الى ما جاء في مقدمة الجزء الثاني من الكتاب نفسه: وعندي ان ما يربو على 12,000 نسخة قد ظهرت من هذا التاريخ والا فلنكم المرتعاه، وبرنلونة وبلسية حيث وقع طبع المسح المشار اليها وثلاوة على هذا فقد ساء وداع انهم يطبعون منها في امبارس... وقد تكون المؤلف حسب برنغال وروسالس وبلسية وحسب الصغاف برنلونة عوضا عن بروسالس ومن مجرد مقارنة صورة الدقة للتعليبين المدرجتين يظهر انه حيث فس في الاول الكوندي دي بلنتر وضع الصغاف الكوندي دي برنلونة ونجزم ايضا ان الذين يعتقدون ان رورنا الطباع البرنلوني الذي نشر الكيخوتي سنة 1817 حبان قد ابتدأ الصغاف واقمه سنة 1805 ما زالوا في ضلال.

ونعلق بشر الكيخوتي مسألة خطيرة جدا الا وهي قضية ظهور السيرة الشهيرة المعروفة بقضية جس النبض وما دار في حلدنا قط ان مؤثفا مثل الكيخوتي

احرز على نجاح منقطع النظير كان في حاجة الى اعلان
ليسترعي انتباه الناس.

والنشرة المشار اليها مع ما فيها من رشاقة وبراعة
للتجاري انشاء الروائي الذي لا يقلد بل تدل في حد
ذاتها على ان ادولفو دي كسرو كان واقفاً على عدد
وعير من التعبيرات والحقايق المعوية التي كان يستعملها
المؤلف المذكور. الا انه كان في الامكان ان تلقى ارياحا
عظيما لو لم يقصد منها جعل مزيج الزنك والنحاس في
مقام البر الخالص الامر الذي قلبها رأسا على عقب وحمل
الانفس على الاستمزاز منها واحداث جدالا حامي الوحش
بين الذين كانوا يعتقدون انها لسرفانطيس والذين
يسادون ويؤكدون بانها خديعة

اما حكاية هذه النشرة فهي كما يأتي: «يعطلون ان
الكيمخوطي قابله الجمهور ببرودة وان مؤلفه حبا في حب
الفضولية واسترعا الانتباه دفع الى المطبعة نشرة مغلقة
الا انها تتوقد براعة ورزاعة انتقد فيها سوريا الكيمخوطي
انتقادا يوضح انه هجاء مغمم بالارشادات والظرافة سعي
ورا استئصال قراءة صائب الفروسية المستفحلة وان
الأشخاص وان كانوا صنيع الخيال ليسوا من الخيال في

حد ذاته. الخيال الذي يجردهم من الاوصاف ففي الكتاب تصوير بعض اعمال كروميس الخامس القروسية واتعمال الفرسان الذين قلدوه وشبههم من الشخصيات التي كانت تسير دقة الحكم السياسي والاقتصادي للمملكة. وقد قرأ الصيحويني الذين دفعوا الى ذلك بروح الفضولية فاعترفوا بفضلها واتجبوا به واحصوا تسحر مهارته وترصيبه وبهذه الوسيلة بلغت فطرة سرفانتيس المأرب الذي سعى اليه المؤلف.

وبقول لما كاسرو نفسه لدى نشره قضية جس المسن سنة 1818 ان المخطوطة من مخطوطات القرن السادس عشر او القرن السابع عشر وانها نسخة لمخطوطة أخرى امليت على اغوستين دي ارغوني ابن غوثالو ثانيضو دي مولينا وانها فيما بعد انتقلت الى حوزة بسكوال دي غمدارا ويكتب اخيراً ان المؤلف هو لسرفانتيس ويشهد بذلك الاسلوب والبراعة في الاشياء وانه حافل بالنكات وانه من المؤلفات التي تشرف الخرافة الاسبانية وانه من افضل الكتب التي ديجتها يراع سرفانتيس وينجم عن ذلك ان القصة مشوشة لدرجة ما اذا اخذنا بعين الاعتبار ان غوثالو دي مولينا توفي قبل سنة 1597 بقليل

دون ان يترك اولاده وبخصوص الاسلوب نشاطه
 رودريغث مارين رآيه القائل «ان في وسع لي خان من
 عساكتنا اليوم ان يعدد - بلاريه - في «نشرة قضية جس
 النتن» كما يسهل عليهم ان يفعلوه في «العمة المتظاهرة»
 ومن الحالات الظرفية والتعابير التي لم يستعملها
 سرفانتيس قط دون ان يخشوا من الوقوع في زلل ولا
 حاجة لكيخوطي سرفانتيس ان يسمى «بقضية جس
 النتن» لاسترعاء انتباه الجمهور اذ انه طبع ست مرات
 سنة 1604 ونشر سنة 1607 في بروسالس واعيد طبعه سنة
 1608 في مدريد وسنة 1610 طبع في ميلان وسنحت
 الظروف مؤلفه برؤيته مرجحا الى الانكليزية والفرنسية
 حيث انه سنة 1612 طبع في لندن وسنة 1611 في باريس.
 وفي بحر القرن العشرين ظهرت نسخة جديدة
 لقضية جس النتن فطبل لهاورمر على حد التعبير العامي
 من على اعمدة «الامبريال» المدرية. والعبارة منها
 البرهان على ان تقليد كيخوطي سرفانتيس لاونصو
 فرنندث دي افياندا هو من تأليف عبريال ليونردو
 البيون وانطونيو دي ميلا دي مسكواوا. وفي حديثنا عن
 تقليدات الكيخوطي سندفع الى التي رسمها انسطاسيو

ريبارو صاحب «سر سرفانتيس» وهو عنوان نشرة قضية
 جس النبش الجديدة. ونحسن بنا الإشارة هنا الى ان
 جمهرة من مشاهير الأدباء قد اوضحوا انه يتعذر قبول
 الموضوع والاستدلالات التي جاء بها مؤلف «سر سرفانتيس».
 وعلينا ان نبحث في احتمالات نعمت عن طابع
 الناصر خوان دي لاكويستا الذي ظهر على صورة دقة
 طبعا الكبخوطي التي صدرت عن مدريد سنة 1606
 و 1608 و 1615. وكما شملت افطار اشباع الفلسفة
 (السرية) الحكيمة التي نصها: «بعد الطامات انتظر
 النور» وكما اثار من مباحكات وتبارى الكتاب في تفسيرها
 واما تعليق ديثا بنحومية القائل ان الشارة ترمز الى
 الكتاب فلا تستند على شيء من الصفة ولا ترى من نسبة
 بين سارة كويستا وشعار يهود ليون وجنيف وان صح
 استعمال يهود البلدين فيما مضى لهذا الشعار الذي يدل
 على انهم كاسد نائم ينظرون بحجب النور او المسيح.
 اما في اسبانيا فالشارة او الطابع الذي نحن في صدد ما
 كان له قط هذه الصفة او هذا المعنى وانما هو مجرد
 تناقل من ناشر الى آخر لهذه الخرافة.
 ومن الامور الاخرى التي ينبغي الإشارة اليها ايضا

الاحتمالات العديدة التي مهد لها السبيل كتاب سرفانتيس
 فمنهم من توهم انه انتقاد لحكومة الدوكي دي ليرما وعند
 البعض انما هو هزء من الامبراطور كرايوس الخامس
 وقد قال قائل انه هجاء مر لحلس التغميش الديني وهكذا
 راج كل من المؤولين يرى فيه ما يشتهي ذوقه غير
 ان كل هذا لم ينل من مجد الكتاب على قدر قلامه
 وقد تأكد ان في الكخوخى وصفا للاعمال الحقيقية
 والخيالية على حد سواء وان فيه صفحات من سيرة
 المؤلف الا ان هذا لا يحط من فكرة المؤلف المتلى ولا من
 درس شخصيتي ضون كخوخى وسانشو درسا تاما اما
 هذه الاحتمالات ضلها والمربات فتسحيل هيا امام
 الاستبارات القيمة التي يدعى الحسافها في هذا المؤلف
 الشهير كل من جولينوس وفباس معند الاول ان القصد
 من تعيين سرفانتيس مكانا لضون كخوخى في لاماتشا
 - ومعناها اللطخة - هو لاننا جئنا الى العالم ملطخين بالخطيئة
 الاولى وهى الجهالة ولا يسعنا التخلص منها الا بالعمل
 والمبارزة والافلاس يمثلان: التعاسة والعوز اللذين يقاسى
 مرارتهما ارباب العبقرية. وسانشو هو ذلك الرجل الذى
 تنعكس فيه صورة الشعب وفي المديرية وابنة اخيه: المجتمع

والعائلة في ذلك الوقت. ويقول لنا كذلك ان المفكر هو ذو شخصية قوية وروحانية وانه رجل واعى الذاكرة نبيه للغاية فلذا يجعل سرفانتيس من ضون كيخوتي رجلاً مبكراً امام رسالا فنمل الشهرة او الحكمة. ويرمز الى الرومنسية كون ضون كيخوتي بعد دفن تريسوستمو يذهب في اثر الراتية. وخوان هندودو هو الممثل الرمزي للبطلانية المسعفة. وحست الخلاق الذي اتخذه ضون كيخوتي تلى انه حودة هو 'ساح الملكى' ويقول البطل انه حودة مسحورة وهو سلاح عجيب ملحقا الى حقيقة معناه نبر ان الحودة التي نرمر الى الساطة العالمية ما هي سوى حست خلاق تلى رؤوس الملوك الفارغة، ويواصل المؤلف تعداد كثير من مقاطع الرواية البديعة مع ذكر تاويلات لها.

وعند فباغس انه في بطل دلاماتشا يتجسد التفكير الحر الاصلاحى وفي سانشو ننصا الشعب الانانى العامى وفي السكاهن والخلق الاغراض المخلوقة في النظام الروحى والمادى. وفي دولسينيا الكمال. وفي رسالا استقلال الكنيسة وما حست الخلاق سوى وسيلة للتحدث عن الملكية. وفي مريطوريس صورة الكنيسة وفي ضون

ورندو الملك وعلى هذا النمط يقتضي اقر كافة الاشخاص
الدين يلعبون دورا في الرواية.

ولدى مقارنة مؤلف بولينوس عن السكيخوطي
مؤلف فياغس في نفس الموضوع نتضح ان هذا الاخير
هو ابن الاول الا ان فياغس يحلل مغزى الكثير من
مقاطع كتاب سرفانتيس.

والان يجوز لنا ان نسأل بعد درس مؤلفي
الكاتبين المذكورين ما يلي هل المعنى التأويلي
وجود في السكيخومني؟ عند ما سمع سرفانتيس على
وضع مؤلفه اولا به عند ما شرع في كتابته من بعد
فصر في المعنى الرمزي الذي شرع عليه الكاتبان المشار
اليهما؟ يمكن قبول ما قاله بولينوس من ان سرفانتيس
عند ما كتب يقول ان فياغس دى الاروزا ثلاثة اثواب
سبح الى سر الثالوث الاقدس؟ وهل يصح ان نقبل رأي فياغس
في ان اسواق الحرير في بلد الوليد ان هسى الالهيات
تشيئية لمركز رئاسة اسبانيا الروحية؟ لايسعنا ان نقبل
من ان سرفانتيس رسم خطوط هذه الاحتمالات كلها
لانه في قبولنا هذا الامر امكننا ان نواحل التفسير فنقول
ان الثلاثة او الاربعة اضراس التي فقدناها من كيخوطي

من جراء قرع الرعاة له بالحجارة تمثل الثالوث الاقدس
او الانجيل. ومن بعد ان نرى في قوله ان له في جهة
خسنة اضراس يعنى الخواص او قوائم الكنيسة الرئيسية
او اسرار الغبطة والام. ويمكننا بهذه الوسيلة ان نستنتج
احتمالات فلائم كل الاذواق في حين انه لا يصح سوى
القول ان الكيخوطى لو كان كتابا غايته الوحيدة
السخرية من كذب الفروسية لانتهدت مهمته على اثر
انتصاره على الكذب الالفى الضرر الا ان سرفانطيس
لدى نايف الرواية حقق بكسب انتقامها شيئا من مشاهداته
العديدة في الحياة وبصف انمالات وحوادث حقيقية وقعت
قبل ذلك الوقت بقليل وكان يضيف في كل اونة
مخطوطة الى مخطوطاته فيها ما فيها من الحقيقة والتاريخ
وما اختبره وعاشه ويات هكذا شيئا فشيئا الى ان اخرج
رواية ذات وقائع حقيقية وخلع على اشخاصها الذين هم
من صنعته شيئا مما يسمى بالعقربة الخاصة التى لا يقوى
على منعها غير الفنانين العاقرة المبدعين وفي عبارة
اخرى انه نفخ فيهم حياة. فلذا يثير اليوم الكيخوطى
الاعجاب اكثر منه في ايام ظهوره اذ انهم في ذلك الحين
كانوا يرون فيه مؤلفا يستهزئ بسائر انواع الادب وانه

يسير الى شرب تلك المقالات الخرافية وانه يسخر من
تلك الورطة التي تخلقها الاعمال الخارقة للطبيعة والتي
يجبها الذوق السليم. واما الان وقد تقلص ظل تلك
القراءات غير المقبولة فلامندوحة من ان يبقى المؤلف
الانساني الاجتماعي الفكري والفلسفي وان يدرس
شؤون كخيوطي الذي يظهر ان مؤلفه تعلم كل ما كان
يعرفه لا لانه قرأه في بطون الكتب بل لانه رآه بعيني
رأسه ولمسه لمس البدن وذاق طعمه.



- III -

أبرز شراحه - مترجموه صوره الفنية

لا ريب في أن أسباب منزلته ثمرة الضيخوتي لا يحتاج إلى سرور بالمعنى الحقيقي - إلا أنه لما كان يهجو مقاطع الخيال المصنوع التي يقرأ في كتب الفروسية ويذكر أعمالا وقعت في زمانه ارتأى النقاد ضرورة إيضاح بعض النقاط سهلا لفهم القارئ وتوجيهه لكي يكون على بصيرة من ناحية سرفانتيس التخرية.

ففي سنة 1711 نشر مؤلف عنوانه «سيرة سرفانتيس» للعالم في الأدب غريغوريو مانس إي سيكار فيه بعض التعليقات حول الضيخوتي وهي على قلتها جد مصيبة. وفي سنة 1780 نشر المجمع اللغوي الإسباني طبعة ضخمة للضيخوتي ظهرت في مقدمة الجزء الأول منها توطئة إضافية على نص سرفانتيس بقلم فنتشي دي لوس ريوس تبحث في حياة ميكال دي سرفانتيس سايدرا وتحلل الكيخوتي وتعلق بصورة مباشرة بالمؤلف وكتابه البديع

وفيما يعود الى هذه النقطة الأخيرة ينبغي اظهار الأسف
لكون صاحب هذه الدراسة القيمة اراد ان يرى نشاطها
بين سرفانتيس وهوميرو واحصر على ان ضنون كيخوطي
منسوحى من الاليادة.

وفي السنة التالية (1781) اخرجت مطبعة ادواردو
السلون في سالسبوري طعة للمكخوطي حافلة بالتعليقات
التاريخية الانتقادية التي وضعت انموذجا للدراسات المقبلة
لكتاب من طراز كتاب سرفانتيس. واما الناقد واسمه بوولي
فقد احتفظ لنفسه بكافة العيوب التي يمكن ان نحصى
في هذا المضمار الامر الذي لم يحل دون احتسابه شهرة
عظيمة اذ كان قد شرع قبلا في دراسة اللغة الاسبانية وبعد
ان طالع عددا وافرا من كتب الفروسية وقرأ الكثير
من الكتاب المعاصرين لسرفانتيس تصدى للعمل فشرح
مقاطع من كتاب الكيخوطي كما شرح غيره من المؤلفات
وينضح انه عرف تاما كن عديدة من كتاب سرفانتيس
لان قد سبق ذكرها في كثير من الكتب التي الاشك
لم تكن غريبة عن صاحب الكيخوطي.

وبعد انصرام ست سنوات على نشر شروح بوولي
التهيرية ظهرت طعة جديدة لمؤلف سرفانتيس الدافع

الصيت مصحوبة بتعليق اختصر اسبابا من شروح بوولي غير انه ينبغي الإشارة الى كون التعليق الجديد مستقى من الاول وإلى كون صاحبه خ. ا. بليتر تمكن من الاطلاع على محفوظات المكتبة الوطنية تسهلا لعمله ومع هذا فالمواد الأولية هي من نهيد الناقد الباحث الأنكليزي ولا خلاف في انه راد سروحا تتعلق باللغة الافصاحية الشيء الذي لم نأته بوولي وانه حور بعض الافكار التي ابداهما الأخير ولحق نصيح الاعتراف بان الاسبان لم يشعروا بضرورة البحث العلمي في بحر هذه الرواية الخالدة الخضم وسير البحث لا بعد ان قام انكليزي وتصدى لهذا العمل الجبار الوعر الا وهو التعليق على مؤلف سرفانطيس سيد وامير الكتاب الاخير. فعمل بليتر يعد خطوة موفقة لاجرار تعليق لائق على الكيخوطي.

سنة 1819 نشرت في مدريد طبعة جديدة للكيخوطي احندرها المجمع اللغوي الاسباني وامدر كتابا آخر عن سيرة ميغيل دي سرفانطيس سايمدرا الفرندث دي نفريتي فيه كما لا يخفى شيء عن ضون كيخوطي.

ونشر سنة 1826 اغوسطين دي اريتيما عضو المجمع اللغوي الاسباني تعليقات جديدة على كتاب سرفانطيس

الا ان شروحه نسخة عن شروح بليشر او عن شروح
الجميع نفسه بيد انه من حين الى آخر تظهر بعض
تعليقات من بنات افكار الشارح ومع هذا فيمكن الجزم
بانها عديمة الفائدة.

وبرغم الشوائب التي تظهر في شروح كليمنتين
سكن التوكيد بجرأة انها حتى يومنا هذا من خبرة ما
كتب في هذا الصدد وهي اوسع ما حرر في ذلك الوقت
وقد اقتفى الناقد اثر بويلى وبلير واتبع خطة الاول
في دراسته كتب الفروسية ولنا ان نقول في انه افضل
من علق على الكيخوشي واستفاد من رواية القرون
الوسطى. ومن افدح عيوب هذا الناقد نماديه في دم
املوب سرفانطيس ولربما كان يريد منه ان يكتب
وفقا لقواعد معينة وهو من الامور المستحيلة في ذلك
الزمان الذي انما كان يقوم فيه بتمثيل دور المحضرم
ولقد برهن جمهرة من النقاد على ان ارا كليمنتين
في سرفانطيس كانت جد مجتفة.

ثم بينما كان كتاب كليمنتين في طريق النشر
ظهر في برشلونة سنة 1834 مجلد تحت عنوان شروح
جديدة لكتاب سرفانطيس لصاحبه: ث. ج. جسطوس اي

كثيرا وقبه تعليقات نزيهة الأبنكار نعبو ورا
شروح بليسر الا انها لدى تعرضها لاشياء الفروسية
والبراز الخ... تعود فننقض عنها عبار الخول وترنقي الى
حيث لاجمودة ولو لم تظهر اباحت بوولي وبليسر لكان
لأبحاث سطوس مقام جليل ولكن بطعور اعتبال البعثين
لم يبق من سبيل المنصران بان هذا الآخر قد عرف
من موارد هاتلي قدر المستطاع.

وطلع الاساذ فرنسيسكو سالس مرير من جامعة
هر فرد سنة 1846 طبعة للكيخوطي صادرة عن سطلون
نقل موارد هات عن بليسر وضليمين وغيرهما واضاف
بعض الشروح التي تتعلق فقط بعبارات قديمة الاستعمال
وسنة 1847 صدرت عن مدريد طبعة للكيخوطي
من تصحيح وتعليق مرتينث دلروميرو، فذكر في سياق
البحث ما قاله فيها رويس في معرض الحديث عن الشروح
والذيول: اما شروح السيد مرتينث دلروميرو فلانخلو
بصورة عامة من الفائدة بل انها تستحق ان تؤخذ بعين
الاعتبار وتوزن بميزان التقدير لان احدها يشير الى
عدة نقائص وحيل ندد بها سرفانتيس ساخرا كمسألة

الغرافين وغيرها من الوسائس ونشرح بعض العبارات العربية والتعابير الفجرية والظرفانية وأماكن ومدلولات جي على ذكرها في الكيفوتي.

وما اضرب حجم النفس السرفانطي خوان هرنانديش في سروحه ودبولة للطبعات الصادرة عن ارغماسيا دي السنة 1868 وشروح ظهرت في الطبعة الصورية التي أصدرها لوبيث فايرا عن رسالة سنة 1871 وما نشر في الخيلات والصحف بل على ان هناك سروحا كثيرة متعدها تتعلق بالقصة الخائفة ويظهر ان لوبيث فايرا كان مولها لحد الجون نامدار ونشر شروح للكيفوتي وما يشهد على صحة ذلك انه طبع نشر الشروح حتى آخر ايامه على الرغم من الذبول الوافرة التي تقدم ذكرها واما التي ظهرت في المرحلة الاخيرة من حياته فجلها تصحيحات لما سبق نشره فهذا كانت تظهر في مجلة الانايو الاشبيلية ومجلة سرفانطيس المدرية تصحيحات على التعليقات التي ربما كان دافع عنها بحرارة لسنوات خلت ومن الأفضل ان يقرأ كتاب سرفانطيس على ما فيه من الشواذ والاختلاف الصرفية التي المع اليها ملباس من ان تمسك طبعة الكيفوتي المبهمة التي نولى

تصحيحها هرتزنبوش لوفرة أخطائها التي تسمح بتبويبها
إلى رديئة وشاذة وجيدة وقلما أثر - لسوء الحظ - على
هذه الأخيرة. لقد عمل مبضع تصحيحه في كتاب
سرفانتيس بشكل فطيع. حذف وزاد ما لم يخطر قط
ببال بل ولا يحمل أن يمر في خيلة المؤلف في وقت
من الأوقات ولا ينكر عليه أنه كان صائبا في تصحيحه
المقطع الذي يشير إلى حادثة سرقة خينس دي بسمونسي
لروثينو فهذا أمر عديم الأهمية إذا ما قيس بالسطط الفادح
الذي ابتكاره يوميات البطل المنشاوي وتصديقه لحرافات
سجن ارتعاسيا.

أما بحث نقولاس ديث سخوميا لنقاد «سرفانتيس»
فيمد في الذروة العليا وهو أول من تفرغ للتعليق الروحي
على الرواية بجد ونباهة لم يجاره فيها أحد من قبل
وهو المجلي في اكتشاف الغامض أو الرمر الذي شغل
افطار كبار الكتاب مدة من الزمن دون ما طائل وأثار
كثيرا من المباحكات الأدبية دون ما جدوى وهو الذي
كافح في سبيل إزال وغرس هذه الفكرة إلى أن استقرت
ونحولت إلى مدرسة أقنيس تعاليمها المبرزون من تلامذته
مثل بايول وفياغس. وله في هذا الصدد منشورات ذات

قيمة علمية لا تقدر. ونشر مقالات ممتعة في المجلة الاسبانية سنة 1878 - 1879 لها صبغة الانتقاد على الابحاث السابقة والشروح التي تقدمت. وبعد ان فرغ من كتابة سلسلة هذه المقالات في المجلات الشهيرة في مدريد وبرشلونة ختم بحقه بشرة موفقة بحمل العنوان التالي: «ذبول للشعور الروحي في الكيخوتي». كان صدورها من برشلونة سنة 1880. وفي شأن هذه الذبول قال احد مشاهير النقاد: سكن للولوعين بالضيخوتي ان يروا وينصفخوا بحنا او جرد مما فيه من رمز خاص غريب اراد ان يعبر عليه البعانة القدير في القصة الخالدة لوجدوا فيه الشيء الكثير مما يستلفت النظر ويبرر الاعجاب ويبعث على الاضبار لشخصية ديث بنخوميه الذي درس الضيخوتي ونبحر فيه معناه.

ويصح التأكيد انه حتى سنة 1905 لم تظهر طبعة للضيخوتي ذات شروح وذبول لائقة يمكن ان تضاهي ما جاء به الباحثون في اول العده وهذه الطبعة التي نشرت في الذكرى المئوية الثالثة لنشر الكيخوتي هي من سرات جهود كليمنتي كورتيجون الذي وان كان قد انتقد ابحاث كليمنسين وهرترنبوث فقد امتدح شروح

يوويل وبما ان النقد كان قد قطع شوطا بعيدا بفضل
الابحاث القيمة التي قام بها المؤلفون بسرفانتس فقد جنى
لحساب بحثه أساره المانعة وإذا سيؤلفه أوفى الابحاث
التي نشرت الى ذلك الحين وأغزرها مساهمة. ولا تقتصر
أهمية هذه الطبعة على الشروح فحسب بل تتعداها الى
المقدمات والنوخلات والابحاث الموقفة التي أوضحت
تقائما هامة تتعلق ببعض النسخة الخالدة ولم يستغن
المؤلف من رؤية عمله جاعرا ناهيا لأن يد المنون ضاقت
قد عاجلته عند تنويعه في صيانة الجزأ السادس والاخير
من تنوعة أبحاثه.

ومنذ ذلك الحين أخذت سوانى الطبقات المبروكة
شرحاً صائباً نوعاً الا ان أصحابها كانوا يصفون بالاحذ
بعضهم عن بعض وقد تسلمت الطبعة الصادرة عن مدريد
سنة 1911 لفرنسيسكو رودريكت مارين المذى رغم
استفادته من أبحاث من قدموه لو قبول درسه بدروسهم
لنفاقها دقة وسبكاً. ولقد أصدر هذا البعثة فيما بعد أى
سنة 1916 علاوة على طبعين كان قد نشرهما آنفاً
الثانية منهما كتصحيح للأولى. درساً من أفضل الدروس قيمة
يدل على انه من عارفي سرفانتس وامرار كتابه الشهير.

والى هنا نكتفى بهذا القدر من النقد الذى ظهر
 فى اسبانيا حول المخطوطى الا اننا سنحدث عن النقد
 الذى ديجته الاقلام الاجنبية وله علاقة بمؤلف سرفانتس
 ومع هذا فنبقى الاشارة الى فوشين من هذا النقد الذى
 كانت مداره المخطوطى : النوع الذى خصص لدرس الشكل
 والنوع الذى خرس لبحث الموضوع. اما الاول فقد شاع
 فى اسبانيا لعلقه بالمتعة والتعبير واسلوب المؤلف والثانى
 يندى لاشخاص الرواية وهو النوع الذى نعره عليه
 بوفرة فى الخارج.

وبين الطبعات الانكليزية التى ينبغي علينا ذكرها
 نرى عدم احتوائها على تعليقات مسبهة وانما فيها دروس
 مية ضمومات اجملية لكتاب سرفانتس نذكر
 اقدمها الا وهى الطبعة التى ظهرت فى لندن سنة 1742
 منسوبة بمعلق موجر خارفيس وطبعة اسبولت لندن
 سنة 1753 غير ان كثيرا من شروح هذا مستقاة من
 ذلك والشروح التى اضافها لوكهوت (اليدمبوغ سنة 1822)
 على شروح قيمه ومقيدة الا انها مأخوذة من بلير
 والجميع المعنوى الاسباني. والبحث الذى قام به آ. ج.
 دوفيلد جيد وشروحه كما ذكر على دقة الطبعة الصادرة

من لندن سنة 1881 مأخوذة من بوويل وبليشر وكليمنتين
 وغيرهم ولكن شروحه الخاصة تدل على حسن ذوق
 ومعرفة لا يستهان بهما لكتاب سرفانتس - وسنة 1888
 ظهرت طبعة جديدة للمصغوطي في لندن ترجمة واتز
 ولا نقصد من ذكره هنا كمن ترجم بل كبعثة لان
 دروسه المدرجة في كل جزء من الفصول المختصة
 للمنتسأ ولاماديس دي غولا ولعبور سوبرودي كينيونس
 المشرف ولباريخ خنون كميغوطي ولخرافة رولدان
 ولشعر مارلين ولغيرها كل هذه من الامور الصائبة
 التي تبرهن على مقدرة هذا المؤلف العلمية وتدلل على
 سعة اطلاعه - وتنبغي الاشارة ايضا الى البحث القيم
 الذي قام به اورمسي والسدي ظهر في صدر الطبعة
 اللندنية سنة 1880 - وكل ثنا يوجه الى شخصية جيم
 فينزمورس - كلي - قليل ففى سنة 1898 ظهرت طبعة
 القيمة لكتاب سرفانتس مرفوقة بالنسخ الاسباني ومصححة
 تصحيحا جيدا يشرفه ويجعله في مقدمة الباحثين الانكليز
 الذين تفرغوا لدراسة سرفانتس قاصباوا.

اما في فرنسا فحتى أواسط القرن التاسع عشر لم
 تظهر طبعات فرنسية تستحق الذكر - ولا قيمة للملاحظات

التي تقرأ في صدر ترجمتي فليودى سان مارتين وفلوران. ومع
هذا فتنبغي الإشارة الى ان في الطبقات الاولى الصادرة
عن باريس بعض الشروح لتتوير القراء ومثال هذا ان
المترجم يصطدم بعبارة قد غاب عنه معناها أو لانها من
تعبير الفجر أو لانها قليلة الاستعمال فيترجمها حسبما
يستطيع وعلى الهامش يورد النص الاسباني أو ترجمة
تقريبية، وإذا وقع على نصير تامي أو منل أو تلاثب
في اللفاظ عسرت عليه ترجمته أعطاه المعنى المقارب
ومما لما يسليه عليه ذوقه وعلى الهامش وضع التبعة
الاسبانية أو ترجمتها الحرفية بعد شرح المعنى بأحسن
الطرق وأقرب الوسائل المستطاعة لديه. وعلينا ان نذكر
انه تقرأ شروح الاماكن والمعادات. ولدوبورنيال مترجم
كتاب سرفانتس المطبوع سنة 1807 بعض المقاطع
التحليلية التي يستدح فيها صاحب المؤلف الاسباني الا
انه لما عاد فطبع ترجمته سنة 1821 صدرها بمقدمة قابل
فيها بين الصيخوطي والاليازه وقد أوحى اليه هذا ما
فعله ريوس في الطبعة الاسبانية التي طبعها المجمع اللغوي
الاسباني سنة 1780 وقد أبدى دي لونوا بعض الملاحظات
وأردفها بالتعليقات على هذه الترجمة المطبوعة في باريس

سنة 1821. وبعد سنوات أي عام 1826 ظهرت في نفس هذه العاصمة طبعة جديدة تتعلق بحياة سرفانتس ومؤلفاته من نمار بروسير مارييه وفي شروحها التي تشير الى ضون كبخوشي فائدة لأبأس بها الا انها تقتطع الى شروح بليتر.

ويمكن القول انه حتى سنة 1836 لم يتوصل الفرنسيون الى درس قسم حول الضيخوشي. والمؤلف الاول من هذا النوع هو من منتوج لويس فباردو وعنوانه: «أخبار عن حياة ومؤلفات سرفانتس» تقدم على الترجمة التي أصدرها هذا المؤلف لكتاب العقري الاسباني ولمنتوجته قيمتها في عالم الادب نظرا لدقة سبكها وغزارة مادتها ولا ينحصر انه في ضئيلة سيرة سرفانتس استعان بأبحاث مياضس وبليتر وفريندث دي نغراتي وفي كتابة الشروح على نص ضون كبخوشي استنجد بيوولي وبليتر وكليسنين الا ان هذا لا يحول دون الاعتراف أو الاشادة بمؤلفه. وأما المترجمون الالمان وأصحاب المطابع فلم يبرزوا في نشر طبقات ضون كبخوشي ولا بسا احتوت عليه هذه من شروح وتقرأ الأبحاث التي دارت حول هذه الرواية في المقدمات لا في الذيل المضافة

على متن الكتاب وجلها ان لم نقل ظلها لا تسترعي
الانتباه.

واما الطبعة الإيطالية التي ظهرت سنة 1822 ففيها
بعض الايضاحات للنص كالتى تحدثنا عنها في الطبعات
الفرنسية الاولى لضون كيخوطي ولم ينشر فيما بعد
في كتاب اضافي.

وفي بقية اللغات الاوربية خصص اقل من القليل
من البحث الجرد المقتصر على متن ضون كيخوطي واما
الابحاث التي نشرت فكانت نحلل كتاب سرفانطيس
من الوجهة العامة دون ان نتعرض الى تفصيل القصة.
واستنادا الى ما تقدم بممكننا ان نقول ان نشر
الكيخوطي يعد نجاحا مضياعا بامرا سوا كان فيه شيء
من الفلسفة ام لا وسوا كان هجا قارسا ضد كتب
الفروسية او انه مجرد كتاب يشير الى ضعف ينبغي
ان تكون تلك المنوجات الادبية. ولقد تسنى لمؤلف
ضون كيخوطي رؤية ترجمتين لكتابه الشهير واتيح
للانكليز والفرنسيين معرفة اعمال البطل المتشاهي
بلغتهم. ويخبرنا فيتر مورس - حلى كيف ان انكلترا
ضانت اسبق الامم الى ترجمة الكيخوطي عندما كتب:

ان كتابنا دي اراغون لدى نزوجها من هنري الثامن
استصعبت الى جامعنى اوكسفورد ولندن عددا كبيرا
من العلماء الاسبان الذين انشأوا التبادل الروحى والثقافى
بين البلدين.

ولارغب في ان اول امة ترجمت الكيخوطى الى لغتها
هى انگلترا وذلك سنة 1812 اما اذا حكمنا على ترجمة
شلتون اليوم فقد نجدها كثيرة العيوب تنقصها الرساقه
وفي بعض المقاطع بسوء الالباس فيعذر فهم النص الحقيقى
ولكن لو رجعنا للتقريب الى ذلك العصر لوجدنا ان
المترجم الانگليزى قد قام بعمله ولقلنا انه من الذين
يبنى على امانتهم اذ انه قد ترجم الامثال والحكم والاشعار
حرفا بحرف. ويقول لما احد مشاهير الكتاب الانگليز
المولودين سرفانتيس وادبه وهو دوفيلد: ان شلتون
كان رجلا ذا صبر محبا للعمل كثير الخاس لكتابه.
ويحسب بعد هذا بقليل فيقول: ان افضل الوسائل
لانعكاس النور هو الزجاج الذى يسمح برؤية الامور بجلالة
وصفاً فهذا ما ينطبق على شلتون نظرا لتواضعه وامانته
وهو حتى يومنا هذا افضل المترجمين الانگليز واجودهم

في نقل ملاحه وجمال الكيفى وطى ومع هذا فسلتوني اليوم
لايفندره غير الدارسين الماهرين.

ونقول بعد ان نصرب صفحا من ذكر عدد وافر
من المترجمين الانكليز وعن الترجمات المختصرة المعدة
للمدارس الاولى ان افضل ترجمة ظهرت اخيرا في انكلترا
هي ترجمة ر. شيبث صدرت عن لندن سنة 1881.

ولئن كان عدد المترجمين الانكليز ضخما فلا يقل
عنه عددهم في لغة راسن ومولير. وقد كان اولهم اودان
داسب ملك فرنسا الذي ترجم حرفة صغيرا من المقاطع
والى في غيرها على ذكر قصيدة المؤلف بصورة اجمالية
وبين اسلوب اودان المرحم للجزء الاول الصادر عن
باريس سنة 1614 وبين اسلوب روسه مترجم الجزء الثاني
نون شاسع. وظلت ترجمة الاثنى تظهر حتى سنة 1677
تاريخ نشر ترجمة فليو دي سان مرتين التي احرزت
شهرة واسعة واعيد طبعها مرات ومرات وقد شاعت في
غضون القرن التاسع عشر شيوعها فيما مضى فاختصرت
وانخذت عنها نصوص موجزة. ونغفل هنا ذكر اسماء
الكثيرين من المترجمين لنقول انه سنة 1821 اصدر

دي لوغوا ترجمة لاتعلو من العيوب الا انها اذا ما
قيست بالترجمات التي تقدمت لاثيرت افضل منها
وفي سنة 1826 اخرجت مطبعة ديبوشه وشركاه
الباريسية ترجمة تتم عن خطوة واسعة في هذا المضمار
ومن رشاقة وخرافة اسلوبها اتضح انها لفباردوت وبالرغم
من الانتقادات التي وجهت اليها شكلت نجاحا عظيما
واعيد طبعها مرارا ولانزال بطبع حتى اليوم ولايجمل
بنا السكوت عن ترجمة ظهرت سنة 1817 في باريس
لداماس هينارد تستحق كل تقدير واسياري برغم جملة
استنجاد صاحبها بمقاييس من ترجمة فيادورت.

وصفوة البحث يتبع ان نقول في الترجمات والمترجمين
الفرنسيين ما قدمناه عن زملائهم الانكليز ولئن سبق
اولئك هؤلاء.

واما الترجمة الاولى للسكبخوطي في الالمانية فيرجع
تاريخها الى سنة 1621 لصاحبها فون درشوهلي وليست
من الترجمات الكاملة بل مقاطع مؤلفة من 22 بابا
وحتى سنة 1630 لم نعرف سوى ثلاث ترجمات للكتاب
سرفانتيس وبعد سنوات قليلة ظهرت ترجمة اخرى تحمل
الحروف الاولى من اسم صاحبها خ. ر. ب. وهي وان لم

تكن تامة فمقبولة وتم على ان صاحبها كان جاهلا
 بأسرار اللغة الاسانية، وظهرت سنة 1734 في ليزرغ
 ترجمة جديدة ذات توطئة قيمة تقابل بين متن الرواية
 والترجمات المتداولة وقد استعان صاحبها الذي اغفل
 ذكر اسمه بالترجمة الفرنسية لفيلو دي سان - مرتين.
 وحتى سنة 1770 لم يظهر في ألمانيا ترجمة يصح ان يقال
 فيها انها خاتمة او مقبولة ومن حقنا ان نشير الى ان
 هذه الترجمة التي منعت في هذه الحقبة لم ترض
 النقد لانها علاوة على حذفها مقاطع من الكيمخوملي
 بصرف تصرفا بعيد المدى في نقل التعابير فتكون
 ترجمة برتوش وهو اسم صاحبها غير وافية لانها
 تفوق بمراحل الترجمة الصادرة سنة 1781 وفي وسعنا
 ان نوكد ان الأمار لم يحرروا على ترجمة ضافية
 للكيمخوملي حتى سنة 1790. فلو نظر الى ترجمة تيبك
 نظرة خردة اوجدت انها لا تستحق الأضواء البالغ الذي
 حله عليها شلجل كما انها لا تستأهل الانشقاق المر اللاذع
 الذي وجهه اليها هين اما الترجمة فلم تكن صائبة على
 طول الخط وقد وقعت في نفس الثغرات التي تخلق فيها
 فون درشوهلي مثل جعل اسماء العلم في مقام النعوت

واسمها 'الجنس' الا انها من جهة اخرى تستوعب اصابات موقفة من حيث ترجمة الكتاب بنفسه ونصه تدل على سعة اطلاع على خفايا اللغة الاسبانية اكثر من الترجمات الالفة الذكر. وظهرت سنة 1819 ترجمة ليونز يضا هي اسلوبها من حيث الرشاقة اسلوب تيك وتفوقها امانة وعلقت تترى الترجمات الى ان ظهرت سنة 1884 ترجمتان الاولى لبرونفر جد امية خير ما فيها التوضيحات او البحث الانتقادي الذي صدر به مؤلفه. والثانية تصحيح لترجمة برتوس بقلم ولزوجن.

وفي اللغة الانطالية ظهرت ترجمة الكيخوطي الاولى سنة 1622 بقلم لورنرو فرنسيوزيني ومقامها كمقام ترجمات شلتون الانكليزي واودان وروسه الفرنسيين وبالرغم من التحويلات الطفيفة التي ادخلها المترجم في متن الرواية فترجمته جديرة بكل تقدير. وسنة 1818 ظهرت ترجمة جديدة مقبولة لكتاب سرفانطيس لبرطولومه غيبا تحيد في مجموعتها عن نص القصة وتقل عن ترجمة فرنسيوزيني امانة الا ان اسلوبها ارقى وابلغ. ومن ميزات غيبا ايضا ترجمة الاشعار التي في كتاب سرفانطيس.

ثم صحح هذه الترجمة واعاد نشرها في ميلان سنة 1840 فرنسيسكو امبروسولى.

ونشير كذلك الى الترجمات المعدة للاطفال التي قام بها المافري ودي سان جيسنو.

ويلى الترجمات الابطالية حسب الترتيب التاريخي الترجمات الهولندية والروسية والدنماركية والهولندية والبرتغالية والسويدية والمجرية والرومانية واليونانية والتركية والبلغارية والاسبانية واليابانية والهندوسية والعبرانية والتروجية والقطلونية الخ.

وفي معرض الكلام عن ترجمات الشيخوخى الى اللغات الحية تبغى الاشارة الى ترجمة عربية موجزة منقولة عن الصنب المدرسية الفرنسية بقلم عبد القادر رشيد طبعت في المطبعة السلفية بمصر عام 1341 امان حيث قيمة هذه الترجمة فيسكى ان نقول انها مكتوبة بلغة صحيحة وتقع في مئة وخمسين صفحة من القطع الربع تغلغلها حور فكاد تستغرق نصف الكتاب على صفر حجمة.

صور الكيخوطى الفنية

لئن كان ضون كيخوطى يفتح ميدانا واسعا امام ارباب الاقلام لانهضب معيه فالحال الذى يفسحه للفنانين لا يقل عنه رحابة ، فصورة النضال نعمل على اتمال الفكر منذ اللحظة الاولى وان كان سرفاستس قد وصف بعض تقاطيع سحبه فكل قارئ يتصوره ويتوهمه حسب ما تسلي عليه مخيلته فمن "القر" من تحيله بلحية ومنهم بدون لحية ويتوارب مسرسله وعبرهم فتصوره اسبل او مجزوز الشارب وان انفقوا جميعا على انه قاحل وما قلناه في المشا او الرحالة يصح ان يقال في حامل درعه او مرافقه الامين، وكم سعلت من اضرار الحية السيد والحادم ولو تسنى لنا مشاهدة اللوحات التي اعدها ريشة الفنانين من اسبان واجانب لتمثيل هاتين الشخصيتين لآخذتنا الدهشة ولأكدنا ان ما من لوحة او رسم عرض في المعارض المختلفة نال سرف القور في مصادقة التقاطيع المناسبة لشخصى ضون كيخوطى وسانتشو كالني يتصورها القارئ من بحر هذه القصة الخالدة بلغتها الاصلية

ويؤيد هذا ما قدمناه من أن كل قاري بنصوره تصورا
تخالفا لتصوير الآخر.

وأما الصور التي نشاهد في كتاب سرفانتيس
الحال فهي تلك التي ارتأيت بها الطبقات التي صدرت
سنة 1605 عن لشبونة وبليسية إلا أن السادج لم تصنع
بطريقة خاصة لهذه الطبقات كما أن الرسم الذي ظهر
على دقة الطبعة البرشلونية المتأخرة سنة 1617 لم يكن
متسوعا لها وإنما صعدا الطبعة الثامنة التي صدرت
من لندن في نفس السنة وفي السنة الثالثة نقل هذه
الصورة صاحب الصورة التي ظهرت على الطبعة الفرنسية
المتأخرة سنة 1618 ففي هذه الصورة يبدو ضوئي
وعد لحق به سانتسو وإلى الورا جوفاً على رأس الجبل
مقابلة هوائية وقد ضتب الرسام الشهير ج. ل. بليسر:
أن هذه الصورة التي نقتبس من الخشب قد جاءت بدعة
لعمامة وبعض النظر عن سداجة الرسم الشاهر في الركوب
نحب ملاحظة قسمات الشخصين في هذه اللوحة التي
يختلف اختلافاً بائناً عن القسمات التي حدثت لحصل
منها. فضوئي فارسي شريف وذوي وأما سانتسو
فليس بذلك الرجل السدوي الحشن الجلف المتعارف عند

العامة ان نظره لثاقبة تتوقد فيها المهارة ومظهره يسم
عن سخرية مأكرة ومن هندامه بصورة اجمالية يبدو
كانه رفيق لسيد. ولولا الخوف من ان يعزى لوهم
غير مقصود او لقصد سبق تصويره لاحتث ان رأس
شون كيخوطي ليذكرني بتكسير كما واننى رأيت في
في قسماث سانتشو قسماث حون بول وقد اختلقتها
فكاهة الفنانين الانكليز .

وظهرت سنة 1657 في امستردام ترجمة هولندية
فيها 22 صورة من صنع احد الاخوين سفري ويتضح من
مجرد النظر الى شخصى شون كيخوطي وسانتشو ان
صاحب تلك الرسوم ليس ناماني . وانتقلت لوحات الطبعة
الهولندية سنة 1663 الى تروكسيل فاستعان بها الطابع
وضلف بولمانس ان يصنع له عمورا اخرى يزين بها
الكيخوطي الذي سيصدر عن مطابعه . وهكذا كان . فاذا
بصور الطبعة البلجيكية تصلح لغيرها من الطباعات .

وصدرت عن لندن سنة 1687 طبعة انكليزية فيها
نماني عمور لم تحمل اسم صانعها الذي لم يحسن تخيل
هيئة النبيل الشهير بقل رواية سرفانتيس والى جانب
كل هذه الطباعات التي ظهرت في هذه الحقبة صدرت

عن لندن سنة 1700 طبعة صورها تفوق صور الطبعات
المقدمة وتعد خطوة موفقة حاثت لتخلي كتاب سرفانتيس.
وأما الطبعات التي ظهرت في غضون القرن الثامن
عشر فهي أفضل الطبعات التي عرفت لحد الآن من
حيث الانقاف والإبداع في الصور ولنا أن نمدح رسوم
توبيل التي أريب كان ظهورها سنة 1725 أو 1724
وبذلك الطبعات القديمة التي صدرت بين 1728 و1742
الطبعة المنارة التي أخرجها الخبير اللغوي الأسباني
... في 1780 في مدريد

أما توبيل فقد جمع 24 لوحة عن عنوان بيخومي
أربين قصر تومسيه الملكي وقد استعالت هذه اللوحات
منها بعد نقلها إلى مسك وأغنى الرسامون والصورون
الفرنسيون بعد ذلك بإعادة نسخ هذه المسك لأربين
الطبعات الفرنسية العديدة.

وأفضل هذه الطبعات الطبعة الأسبانية المقدمة إلى
الكوندسا دي مونيخو وقد أرفقها صاحب المقدمة بهذه
العبارات: «لأنك في تلك تفضين الضرف عن العيوب
التي قد تعثرين علينا في الصور سيما وأن الطبعة صادرة
عن بلاد أجنبية حيث نتعذر على المبدعين الإطلاع على

الازياء الاسبانية وغيرها من الامور النافعة تمام الاطلاع والتي قد تجددين فيها بعض النقص . ولئن ضاقت الصور فائقة تثير الإعجاب فقد نقصها اللون المحلي وهذا مما يسهل فهمه إذ انها تخص وتنطق بما في البيئة الانكليزية من حياة والوان الحد يقال معه ان رأس ضون كينخوطني في اللوحة التي رسمه وهو بطالع نذرننا بهيئة شكسبير في شيء من الانعام .

واما الطبعة الانكليزية التي ظهرت سنة 1742 فقد احدثت صورها عن الطبعة الاسبانية الصادرة سنة 1738 . والطبعة الاسبانية التي خرجت في مدريد سنة 1781 نحت رعاية المجمع اللغوي الاسباني تشرف كل من ساهم في اخراجها فصورها بدبغة خارقة ساهم في رسمها اسهر الفنانين الاسبان على الاحلاق . وقد يقال ان الفنانين لم يعتقدوا الى خلق المظهر المتساوي فمثل هذا يصح ان يقال ايضا في اعظم فناني العصر التاسع عشر ففريق منهم جعله دائما ذا قامة طويلة وفريق آخر لم يراع التوازن في رسم اعضاء جسمه . ولقد قال المجمع اللغوي في تصدير طبعته انه من اجل التصوير استلهم الرسوم والصور العادية اي انه النجا الى الصور التي من عهد سرفانتيس

تكوين قصرة عن الملبوس والتجأ الى سلاح الملك
لمكون قصرة عن المعدات الحربية.

وفي الطبعة الرابعة التي اخرجها المجمع اللغوي
الاسباني في مدريد سنة 1811 صور لسرفانتيس ذات
قبلة ومع هذا فقد قصرت عن الصور التي في طبعة سنة
1780 وهذا لايعنى خلوها من النسخة المحلاة سنة 1826
ظهرت في فرنسا طبعة من كتاب سرفانتيس مزينة
برسوم بريشة خوسيه جوهانو رغه ما فيها من عيوب فية
صادقت ارتياحا عظيما واعيد طبعا مرات في مختلف
البلدان الاجنبية واعقد عليها النقد المدح والثناء ومن
افهم الطباعات التي ظهرت للكيعوخلي سنة 1839 الطبعة
البرسلونية تقع في جرمن وساهم في رسومها الفنانون
الاسبان والطبعة التي خرجت في باريس سنة 1868
رسومها لعسطفو دوره وسرعان ما تحولت لوحاته الى
ضرورة ماسة لسائر الطباعات الفخمة فاشيد طبعا في
اسبانيا والمانيا وايطاليا وانكلترا وروسيا واميركسا
فلوحاته هذه تصون في صورها جلالة الفن والمعمارية
رغم انها لم تتوفق الى خلق بطل سرفانتيس.
ويكتب سنة 1873 جوماس مرتينث في مؤلفه بعض

معلومات لتزيين الكبحوتي بالرسوم. ان كتاب
سرفانتيس لم يلق حتى الآن الفنان الذي يفهمه
ويعرض تماما بواسطة قلعه ولوحة تصويره الخلق الحقيقي
لمبطل المنشاوي أنعم هذا على ان المؤلف لم يصفه
ومما موافقا كخلا وانما سبب الخطأ في عدم احسانه
تصويره هو ان الفنانين الذين عسوا واعتسوا بذلك
انما افرعوا جهدهم في تصويره رجلا قاحلا وعندي ان في
الكبحوتي سببا كثر من هذا وحده وهو التسبيل
لوسواس تصويره وحيوته جنونا محبوما يكتب الفروسية
التي افرعت حلاصها كما يسعى في رجل معوه لما في
هذا القليل ثقافة تعلو على الحد الوسطا تقع في حيرة
عند ما يكلم او يعرض او يحرف هذه المهنة الوهيبة
ولقد اصاب الماقد فالرسامون والنصوريون والنحاتون
لم يفتنوا اتصالا مباشرا بروح الكبحوتي عند ما ارادوا
ان يخرجوا تلى ثمان الفن احمد الموضوعات التي
يوحي بها كتاب سرفانتيس فمن تحصيل الحاصل ان
يتقلب خلق انشا الشعر وفقا للمواقف والمقاطع وان
صيان الفنانون قد رسموه قاحلا فهذا لا يعني انهم قد
اصابوا في تمثيل السويدي التي كانت مستحوزة عليه

ينزل دائم ولا توقفوا الى اخراج روح الضمير
 والفرسية التي ما كانت لتفارقة لحظة واحدة وما اعظم
 الفرق بين موقفه وهو يقول في قلب بادية الماتشا: ما اسعد
 ذلك القصر وما ايمن تلك الانام... وموقفه الاخر اذ يقول:
 الوجود للمصايف اليوم في اعشاش الامس، وكل يختلف خلق
 الخلق في هذا في موقفه وهو في الفندق محادل وبؤدان طلست
 الخلاق انما هو حوذة مسرنون وتن موقفه في دار
 الدوكي وهو مسعن في تجادة الكاهن. ويقول اونا مونو:
 ان قوة الحقيقة في نون كيخوتي نوح في نفسه الانسانية
 والانسانية وفي حقيقة صورته التي تعكس مثل هذه
 النفس. ولكن قد سأل سائل: اعلينا ان نستخرج نفسه
 من هيئته أم هيئته من نفسه؟ ونضيف ان من قسما وجهه
 وحلقه الظاهري يمكننا بواسطة مراجعه ان نلمح شيئا اكبر
 من حقيقة نفسه الامر الذي يجيب عليه نون كيخوتي ذاته
 نحن وصفه في الباب الاول من الجزء الثاني ملامح اماديس
 ورينلدوس ورولدان اذ يقول: من الافعال التي قاموا بها
 والطباع التي تحلوا بها يمكن ان يستدل باتصال الحكمة
 على ملامحهم والوانهم وقاماتهم.

- VI -

موضوع الكيخوطى

يبتدى موضوع الرواية في مضان من المنتشا
 ييزى بليشر وكلمنتين وغيرهما انه ارغماسيا دي اليا
 حيث كان يعيش رجل سريى عزب ذو مكانة متوسطة
 ولوع بقراءة كتب الفروسية الامر الذي دفعه الى تبذير
 امواله وبيع بعض املاكه للحصول على اخبار الابطال
 المشايين الرحالة ومن قلة النوم وكثرة المطالعة - كما
 يقول الروائي - نشف دماغه وجف فاذا به يصاب بخيل
 يحمله على الاعتقاد بان كلما كان يقرأه صحيح ولشدة
 حماسه لهذه الفكرة النسي رسخت في رأسه رسوخ
 الايمان بل اقوى اوحى الى الطيب النية الوتسو
 كيخانو - وهو اسم الشريف - جنونه بامتهان حرقه الفارس
 المشاء الرحالة ووضعها موضع التنفيذ وفقا قرا وطالع
 ولكن قبل خروجه الى العراق للبحث عن الاخطار
 والمجازفات راح يعود حصانا هزبلا كان له وصفه
 بالقوة والجمال ثم اتخذ اسلحة كانت عنده ورثها عن

السلامة فنظفها وجلاها قدر المستطاع واحطت له من
اسمه اسما جديدا اضاف اليه اسم مقاطعته فاذا به يصبح
ظون كيخوطي دي لامانشا وتذكر ان الفرسان
الرحالة ينتقون سيده الافكارهم يقدمون لها احتراماتهم
فترأ له انه في شبابه كان مغرما بفنائة فلاحه من
احدى القرى المجاورة فرأى من المناسب جعلها سيده
اختاره ولما لم يرق له الاسم الذي كان لها - وهو الوندرا
اورثو - اسماها دولينايا لظوبوسو.

ولما فرغ من تدبير كل هذا في صبيحة يوم من
انام شهر يونيه احزيران دون ان ينذر احدا من اهل
بيته خرج الى الغرا مرودا بالعزم الاخذ لمجاعة وركوب
كل الاخطار والمخاطر التي تصدى له.

واما وهمه المعلوم فكان يحمله دائما لاعلى رؤية
ما كان يقع تحت بصره بل ما كان يحوم عليه خياله
وبينما هو كذلك جاد في طلب الاخطار شاهد في قصر
- هو في الواقع فندق - فنانين من ادنى طبقات المجتمع
فحسبهما سيدنين من رفيفات القوم وناشى صاحب
الفندق بصاحب القصر وبهذه الوسيلة دخل ضمن
كيخوطي الى عالم الفكرة السامية فرفع نفسه الى رتبة

فارس في نفس القندق ثم يخرج منه بعد قليل عازما
على اقتحام اعظم المواقع والانبان لالاعمال الحارقة التي
لا تصورها بشر.

ما ضاد بترك القندوق ويوغل في غابة حتى سمع
استغاثة موجهة فاذا به امام رجل يعصو قسي فتحرصت
فيه همه الفارس الذي اراد ان يظهرها فوعظ الرجل
وحمله على فك عقل القسي الذي كان قد سد الى جذع
شجرة وما ان اتم للفارس المغوار هذا حتى اعتلى صهوة جواده
ودهب ولكن الرجل عاد الى متابعة مشروعه ولم يقطع
عنه الا بعد ان ترك القسي بين الموت والحياة ولما خرج
السريع المتساوي من العانة القسي بجار من مليليلة
فاوقفهم وحلب اليهم ان يعرفوا ان دولتنا با داطوبوسو
هي اجمل امرأة في العالم فاجابه المسافرون ساخرين
فانارت هذه السخرية غضبه وانقض عليهم ورتحه في راحته
الا انه قبل ان يصل اليهم ونزل بهم الاذي نعر الحصان
وسقط الفارس فاسرع حذاء النجار الى مضافة المشاة
بضربه ضربا مبرحا الى ان تركوه في الحلاء بين ميت
وحى. وبات على الخضيض مهتم بالانتضا وبعد قليل
شرع - لافي الانين ان هذا شائن في حق الفرسان

السائقين الرحالة - بل في انشاء الموشحات من نظم
 التوكيس دي منتوا وبينما هو على هذه الحال مر به عرضا
 احد جيرانه فحملة الى داره وكان في يقين وصيفة ضون
 دجوطي وابنة اخيه أو اخه لان الكلمة في الاسبانية
 تحمل المعنيين ان سبب جنونه انما يعود الى ختب
 القروسية فقررا ان يجعلها علما للثيران. واما ضون
 دجوطي فبعد ان اسراج عدة ساعات نهض من فراشه
 وراح ليسعد حرايه ضمه فلم يعثر على باب الغرفة
 فيهم ان احد السحرة فعل هذا ومع هذا فكان
 الصاهن والخلق يحاولان حمله على ترك تلك المهنة
 الوعرة غير ان ضون دجوطي كان قد اقع جارا له
 وهو رجل سليم الطوية لضمه قلب ملح الجمجمة المذهب
 الاثنان في طلب المعارف على ان تكون لسانتشو باثا
 - وهو اسم ذلك الجار - سمعة حامل الدرع مقابل تعيينه
 خاضعا لاول جزيرة او اراضي يفتحها وتكون حاكمها
 مربية دوكمي وقد دفع الجتمع سانشو الى قبول الاقتراح
 الذي عرضه عليه ضون دجوطي وفي احدى الليالي دون
 ان ينفذوا اقرارهما بالامر تركا القرية الاول مصليا صهوة
 جواده درومينتي والثاني راكبا حماره روثيو.

وفي رابعة النهار انصرا ما يقارب 30 او 40 مطحنة
هوائية عندها ضون كيوخوطي مرده جبايرة ثم اصطدم
برهبان فتوهمهم قطاع طرق وبارز خادم احدى السيدات
وهو في طريقه الى اشبيلية وفيما بعد التقى بمعازة فقضى
ليلته عندهم وحضر دفن راع عاشق وبعد ان استودعهم
اصطدم باناس قساة القلوب من يتغواس فعصوه وعصوا
سانتسو الى ان هسوا اضلاعهما واخيرا تمكن من بلوغ
الفندق حيث ضدت جراحه وفي نفس البيت الذي
اعد للسيد والخادم خان بيت اضرار من اربيلو فيسما
كان الكل هجعا والليل بنوح بجواحه على الاجفان
وقد استنى جفني ضون كيوخوطي والاكوار ظهرت
خادمة تلك الدار الوفية العهد مريضوريس - وهو اسم
تلك الخادمة - فعاقبتها ضون كيوخوطي فلما منه انها ابنة
صاحب القصر التي جاءت لنوح له بلواعج صدرها وما
ان تيقن الاكار من ان الفارس المغوار لن يخلو سبيل
الفناء قصده وطلق يلكمه ويلكم سانتسو الذي كان يغط في
نومه فعلا المصراع الى ان نهض كل من كان باثنا في
الفندق وتساقطت الصفعات والضربات من كل حدب
وصوب في الظلام الدامس الى ان عادت السكينة فاسرعوا

الى نجدة ضون كيخوطي الذي خالوه ميتا وفي اليوم
التالي تركا تلك الدار المنحوسة بعد ان قذف سانتشو
المسكين قذفة اللعاف.

ولدى خروجهما من الفندق شاهدا عجاجا متطائرا
ناد يحجب نور الشمس ولما اقتربا لاحظا سانتشو ان
قلبعي غنم يكدحان صوبهما غير ان ضون كيخوطي
امر على انهما جيشان عرمرمان يستعدان لخوض معركة
فاصلة فجرد رثعه وانطلق مغيرا على احدهما فقتل بعض
الاشنام وما كان من الرعيان الا ان استقبلوه برشقهم
اباه بالحجارة التي انتهالت عليه كشآبيب المطر فسقط عن
سهوة جواده بلا حراك فظهر مرافقه وحامل درعه الى
انقائه من تلك الحادثة وهجرا تلك الاماكن وواصلوا
جدهما في طلب مجازفات جديدة ولم يطل بهما المسير
حتى شاهدا في الليل البهيم انوارا تتلألأ فظنا ان هناك
امرا خارقا فتربصا وبانا ينتظران وصول ذلك الشئ
الذي استرعى انتباههما فاذا بذلك الشئ جنازة فتصور
ضون كيخوطي حملة النعش احمقا ينقلون فارسا جريعا
فيجم على الفريق الاول واجبر الباقيين على تركهم اولئك
بعد ان جرح احدهم وبهذا تأكد له انهم ليسوا بلصوص

بل من رجال الدين وبعد قليل وفي تلك الليلة ذاتها
سبع حليل سلاسل وضربات تنيفة وخيرير مياه قدب
الذعر في صدر سائسوا وبات ضون كيخوطي رابط
الجأش بترقب شئ النهار ليقوم باحد الاعمال التي لم
يعرفها التاريخ ولا شهدت منها الابام غير انه لما سر
الصباح رأيا مصانع مائية تقتر القتب ثم ببسا هما في
طريقهما شاهدا رجلا يقرب وعلى رأسه شئ براق فتوهم
ضون كيخوطي ان ذلك الشئ هو خوذة مبريوس فهاجم
ذلك الرجل فوق عارنا وسقط ما كان على رأسه فنادا
به طست حلاق الذي لم يصدفه ضون كيخوطي
بل اصبر على انه الخوذة المرمومة ولم يطل به المقام
حتى التقى بجبهة من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة
في الجواري وما ان انتهى الى الفارس المنان انهم ذاهبون
قسرا حتى نجرد للدفاع عنهم وونب لمقاتلة الحرس
وما ان رأى المحكوم عليهم هذا النزاع حتى حلوا
قيودهم وانضموا الى ضون كيخوطي فهرب الحرس وتركوا
للمساجين حريتهم الا ان ضون كيخوطي طلب اليهم
ان يذهبوا الى قرية طوبوسو ليقدموا طاعتهم وولائهم

لدوشينايا فسخروا من هذا الطلب فشتهم النبل فما كان منهم الا رشقوا بالحجارة السيد والخادم وفروا بعد ان سلبوهما كل ما كانا يملكانه.

ولحق احدهما المساجين اقراف امرا اصابه من اذنته التسيم وهو انه سرق له حملا دفعت جناح الظلام حين تغفل السيد والخادم في سلسلة جبال سرامورينا. اضطر ضون كيخوتي كسف صفر اماديس دي سولا في اصحر المفسر عن ذنبه وتزم على ان يعذو بذوه واوقف سانسو كى نفري دولسنايا السلام. ذهب الخادم او حامل الدرع او المرافق وسرتان ما التقى الكاهن والخلق فسألاه عن سيده فارشدهم الى المكان الذي غرضه فيه. فعزما على ان يخرجاه من تلك الجبال الوعرة بواسطة حيلة قوامها حب الفروسية واعمالها. بدل الكاهن ربه وليس حلة اميرة من مملخته ميكو يكون جاءت لتطلب حمالة الفارس وضان على الخلق ان يرافق الاميرة المنكودة الخطر. دخل الثلاثة في قلب تلك الغابة فصادفوا كريسو الراهد في الحياة بسبب حبه العيس والذي راح يعيش عيشة الانفراد والعزلة في تلك البقاع الموحشة وبينما هم في البحث عن ضون كيخوتي

عشروا بالقرب من احدى الغدران على امرأة بلباس رجل
قدنوا منها وتحدثوا اليها فاخبرتهم بسبب وجودها في هذه
الغابة وبهذا الزي وبيننا هم على هذه الحال **كسان**
سائقشو قد ذهب وراء سبده ثم التقيا بالضامن والحلاق
شبر انهم تعجبوا من رؤية **كردينيو** ودورتيه - وهو
اسم الفتاة - التي منلت نور الاميرة وقام الحلاق بدور
الخادم وتوجه الجميع الى المكان الذي ضان يقيم فيه
ضون كيخومي فعشروا عليه وافضت الاميرة بما يحز
قلبها فقدم الفارس نفسه للدفاع عنها مهما كلف الامر
وسار الجميع في طريقهم الى الفندق نزلوا في الفندق
فرك ضون كيخومي رفاقه وذهب بطلب الراحة وشرع
الاخرون في قراءة رواية ثمنل الوقت عنوانها الفضولي
المسل الا انهم قبل ان ينسوا قرائتها سمعوا صياحا في
شرقة النوم فدخلوها ووجدوا الفارس المتشاي راقدا
وقد اشمل سيفه في رقاب اعداء اميرة ميكو ميكون ومزق
ثلروف وقرب الحمر وفيما هم كذلك وحل الى الفندق
جماعة من الضيوف عرف من بينهم **كاردينيو** حبيسته
وعرفت شروتية زوجها وما ان تعارفوا حتى نادى المياه
الكذبة الى صفاتها الا ان الدنيا ضاقت في عيني سائقشو

عند ما تأكد لديه ان دورتيه ليست باميرة مملوكة
 منكمو ميكون، وما كاد المرافق المسكين يستريح
 بعد من شبه هذه الوعكة الهائلة حتى فوجئ بدخول
 اناس آخرين الى الفندق قوامهم رجل مسيحي قدم
 حديثا من بلاد المسلمين وبصحبه امرأة مسلمة، ولما
 ارجى الليل سدوله دارت مباحثات في افضلية الجندية
 على الادب، فوقف ثنون كبحوثي والتي خطننا استولى
 بمساحة لسانه ومصاب ارائه على الالاب وسحر القلوب
 ثم بعد هيلة قص الرجل الذي وصل حديثا من بلاد
 المسلمين قصته وقصة عرامه ويرده - وهو اسم المرأة
 المسلمة التي حانت معه -

ولما فرغ الاسير من رواية قصته دخل الى الفندق
 جمهرة من الناس في رقعة الخاتم ثنون خوان بيريت
 ذي فيدما الذي ظهر انه شقيق الاسير. وكان في معية
 الحاكم ابنته التي تبعها شاب من اشرف العائلات
 الاراغونية. واستمع لبلان في الفندق الى اغنية عذبة
 اشدها النقال الذي لم يك سوى عاشق كلارا - وهو
 اسم ابنة الحاكم - وبما هم لضلك ساعد ثنون ليخوضلي
 قانون في الشباك فدنى منهما فاولقناه بمكر الى قضيب

الشباك، وأسرع الناس على شراء البخر ولكن في تلك
 الاونة صادف دخول الناس آخرين الى الفندق هم خدام
 ضون لويس - وهو ابن تاشق ضوبيا دلارا - الذين
 جاؤا يبحثون عنه لردوه الى داره. وكان ما روي
 حتى ان ابنك تاشق لم يصب يظهر في هذه اللحظة
 الخلاق الذي كان قد فقد الحسنة على اثر هجوم ضون
 بجحوتي عليه. وقد حدث ما بينه وبين الخلق الفارس المتنا
 الرحالة عن نفسه بسبب ان الخلاق يحاول اقتراعها
 منه ففروا والناس يصرخون ولا احد يسمع ماذا كان
 يقال الا انه نادى احب الاله الى معارضا فقرر الجميع
 ان يترك الامور كلها على نفسه وان يشرع في اجسد
 التدابير لارجاء ضون لجحوتي الى داره ومن اجل هذا
 حاولوا على الاستفاد منه مسجورا فركبوه محلة وهذا
 ترك الفندق في فقس فاصدوا داره وفي الطريق توقفوا
 عن السير فلما لمزاحة في احد المروج حيث صادفوا
 معاز اطلق يشرح قصة ترامه فندخل في الامر ضون لجحوتي
 الذي كان ساعته خارج القفص ويصرح انه يتعهد بوضع
 حد لما قاله المعاز بقوة تتصدده المقول فما ان رأى المعاز
 ان ضون لجحوتي يسحر ما رواه حتى شتمه ولعن

ساعة مولده فاستأضون كيخوطي الذي ما كان عنده
 المهزل مكان واشتبهك الاثنان في عراك دام الى ان رن
 صوت صور فطلب ضون كيخوطي من المعاز هدنة وما
 ن منحه اياها حتى أدار وجهه وقصد المكان الذي سمع
 منه ذلك الصوت فساد من بعيد اناس يحملون تسالا للعدرا
 في طواف فتقدم ضون كيخوطي منهم لتحقيق ما هو ذاك
 مما ان دنا منهم حتى طلب ان يردوا الى السيدة
 حريتها المسدوبة فحسب رجال الدين والقساوسة سلام
 تلك الفارس اهانة وسحرية واستقبلوه بالعصي فدافع
 انسا الرحالة عن نفسه حسبا سمحت الظروف ولكنه
 اخيرا سقط على الحضيض فتركوه على انه ميت ثم اتهد
 ضون كيخوطي الى القلص واركب العجلة التي لم توقف
 الا امام داره في مسقط رأسه حيث استقبلته بفروح الوصيفة
 وابنة اخيه واسودت الدنيا في عيني امرأة سائنشو
 وانكسر قلبها حين رأت ان زوجها عاد خاوي الوفاض
 صفر اليدين حتى من لقب المشرف الذي كان قد وعد به
 بل ضون كيخوطي من مرضه ومل من البقا في
 داره وضره حياة البطالة فعزم الرجوع ثانية الى حياة
 المجازفات وابلغ سائنشو رغبته فقررا هجر ثالثيهما من

جديد والذهاب مرة أخرى في طلب مبتغاهما: الخادم في
 اثر لقب الشرف الذي طالما اضاعه من اجله، والسيد
 ورا الاثيان باعمال تعبير الالباب ونذهل العقول ويقف
 التاريخ امامها في بهتة واندهاش وقصدا اول ما قصدها
 قرية الطوبوسو الا انها بعد ان تجولا في ساحاتها
 وشوارعها لم يهديا الى قصر الدولتينايا فعادراهما عند
 طلوع الفجر.

ثم بينما صارا خارج البلدة عزم ضون ليخوضي
 على ايفاد سانشو بمهمة الى سيدة افكاره فذبح الخادم
 حيلة يخدع بها سيده ولما قفل راجعا انذره بان دولتينايا
 ترغب في ملاقاته وبينما هما كذلك اذا بثلاث فلاحات
 يظهرن وقد امتطين ثلاثة حمير فقال سانشو لسيده ان
 احدهن لدولتينايا فصدق المشاء الرحالة قول حامل درعه
 ولحسن لما اقترب منه فنحن انهن من عامة الناس
 فاقسم له سانشو واغلف ان دولتينايا قد جاءت برفقة
 وصيقتها فرحط اخيرا السيد لقول المرافق وبدا له ان
 السحرة قد بدلوا سحنة سيدة افكاره ومن بعد التقى
 بفرقة المسرحيات الهزلية لانغولو الشرير تم في الغاية

اصطدم بفارس مشاً فنارله وبعد ان قهره اتضح له انه صديقه المتخرج شمشون كرسكو فعزا وقوع الحادث الى لؤم السحرة الاشرار.

وبعد ان تغلب على الفارس ذي المرابا التقى بطلنا النبيل راجل زنيق وقور يسمى ضون ديبغو دي ميراندا فسار بمعيته فيما هما لئذ ذلك شاهد ضون كبحوطي تجلة عليها اقفاص فيها اسود فتصدى للمروض وحمله على ان يفتح الاقفاص ووقف ينتظر ونوب الاسد وسيفه في راحته وبعد ان تم له ما اراد اغلق المروض القفص محافة وقوع ما لانحيد عقباه وقد احتفي احتفاً عظيماً بفارس الاسود - وهذا لقب ضون كبحوطي الجديد بعد ان كان معروفاً بالفارس ذي السحنة الكئيبة - في دار ضون ديبغو وعند ما نهياً مرة أخرى للخروج في طلب المجارفات ارسل ضون ديبغو في صحبة السيد والخادم ولده وهو فتى بجيب حاذق وما ان اصبحا وحدهما حيي التقيما بمسافرين في طريقهم لحضور حفلة زواج كمنشو المري بكتاريا الحسناء حضر حفلة الزفاف المذكورة جمهور غفير ولكن لم يتم في الحقيقة زواج كيتاريا من كمنشو بل تزوجت من باسيليو الفقير الذي كان مغروماً بها. دافع انصار

كتمشوا عن هذا كما كافح انصار باسيليوس عنه وانجاز
 الى هؤلاء ضنون كيخوطي ولم تتفاقم الحال لانه شاء
 اليهم رشدهم وبعد ان ترك السيد والخدام مكان العرس
 دخلا غار مونتسينوس لان خيلة السيد املت عليه امورا
 ما سبق وصفها ولا قرائنها ومن ثم دخلا بلدين كان
 سكانهما قد انقسموا على بعضهم لان رئيس بلدية احدهما
 بهق وسخر سكان القرية الاخرى منه وببسا كان
 ضنون كيخوطي جادا في طلب الخرافات رأى قاربا مشدودا
 الى جذع شجرة قرب ضفة نهر فدا له انه سيأتي عملا
 ماجدا من اتمال القروسية فحل قلس القارب ورضه
 فساقه التيار وما ان تأخذ سائسو من دنو الخطر حتى
 أخذ يصرخ وبصيح وثان القارب على وتلك ان ينحطم
 في حوة المطحنة فخرج الطحانون ونايديهم الهراوات
 لايقاف القارب ولما رأهم ضنون كيخوطي حسهم عفاريت
 فاسئل سيفه الا انه سقط هو ومرافقه في النهر وضادا
 يسوتان غرقا لولا ان الطحانين انقذوهما فقادرا المصان
 بعد ان جفت ثيابهما وتغلفلا في غابة حيث تصدى
 لضنون كيخوطي عبادون قدم لهم جزيل احتراماته بعد
 ان سقط عن صهوة حصانه واما زوج السيد فقد خلبت

من ضون كيخوطي ان يقبل ضيافته ويستريح في قصره
الذي كان على مقربة من ذلك المكان فقصده الجميع
القصر وتمكن بطلنا هذه المرة من ان يرى بعيني رأسه
ما كان قرأه في كتب الفروسية. واما الدوقي وزوجه
- وهو لقب الصيادين اللذين التقى بهما ضون كيخوطي -
معزما على ان يتسليا على حساب الفارس فاعدا لهذا
الامر الحفلات التي تتم عن روح واحمال الفروسية
ووصل بهما الحال الى تعيين سائقشو حاضيا غير ان
حكيمه دام قليلا لقيام ثورة ضده قصت عليه وقصوت
دعائم دولته. فقط ضون كيخوطي من شمسة المتالة فودع
الدوقيين وراح يقصد برشلونة وذات يوم بينما كان
ضون كيخوطي على الشاطئ رأى فارسا ابصر اللباس من
قبه رأسه الى اخمص قدمه بدنو منه وقد وضع رفراف حوذته
الى اسفل وهلالا فوق درعته فلما اقترب منه قال له انه
يجد في طلبه ليحمله على الاقرار بان سيده اجل من
دولثينايا دالطوبوسو وان ابى الاقرار بهذا دعاه الى البراز
وعندئذ تقرر الرماح مصير كلا الفارسين. قبل ضون
ليخوطي البراز فورا لدى سماعه هذا وما ان اشتبكا
حتى سقط ضون كيخوطي عن صهوة جواده مقهورا الا

انه لم يقر بل لم يعترف بما كان قد طلبه منه الفارس
 ذو الهلال الابيض وفضل الموت مناديا بنفوق حسن
 دولتيانيا داطوبوسو. واحد الفارس الغالب ان دولتيانيا
 اجمل امرأة في العالم غير انه احبر الفارس المغلوب على
 ملازمة داره وعلى ترك السلاح مدة سنة. وما ان قطع عليه
 هذا العهد حتى ذهب. واسودت الدنيا في عيني ضون كيخو علي
 وضاق صدره فلم يرحس البقا في برشلونه وغادرها في
 طريقه الى بلدته ولما كان عائدا داسته الخنازير وسخر
 منه الدوقيان. وبعد ومحوه الى قرينه دب السقم في
 جسمه من هول ما قاساه من مرارة الغلبة فتبددت اوهامه
 وعاد اليه رشده. وهكذا قضى نفيه ضون الونصو
 كيخانو الصالح.



- V -

اشخاصه

شخصان رئيسان يشكلان قوام الرواية واما الآخرون فليسوا سوى الاطار لهادين الشخصين ضمن كينخطي وسافتشو اللذين هما بطلا الرواية في آن واحد. ولقد قيل نادى 'ذي بد' ان 'السيد والخادم' الفارس وحامل الدرع ليسا في الحقيقة صورتين بل انهما ابتدأتان ركبا من نبت بشرية، الاول مجنون والثاني رجل طيب الا انه قليل ملح المحبة، وكلاهما فارس الواحد بمسلي صهوة جواد عزيز والآخر يعتلي ظهر حمار صبور وما زال اطليلة اربعة فرون يتقلان ترحيلات ونصفيقات الناس وبعيات رجال الادب. وقيل فيهما انهما يمثلان ارسخ شامل قاريخي في ادوار الانسانية على الاطلاق وقد شوهدت في احدهما فطرة الخير وفي الآخر فطرة الاستفادة ويمكن ان يرى حسب النقد روح التجرد في كليهما المكونة من السمو في السيد ومن الحقيقة في الخادم ولاحظ احدهم في ان السيد قد اعتنق ديانة نكران الذات وانسان الاعمال لوجه

الله وقام كضد له حامل الذرع الذي انما يأتي الاعمال
 حبا بالمنفعة الشخصية الايجابية فاذا كان ضون كيخوطي
 علويا خيذا فسانتشو يكون رجلا ايجابيا ولهذا اصبح
 الشعب ان رأى انسانا فيه روح جديدة مصلحة او انه
 يعمل لصالح الانسانية لقبوه بالكيخوطي ولقبوا كل
 من يأتي عملا حبا بالمنفعة الشخصية سانشو فصفات
 الاول تتجلى في اصحاب النظرات العلوية وفي اصحاب
 الاحلام الذهبية وفي باصري دوائهم وصفات الثاني في
 الانانيين وفي الحاسبين للامور حسابها وفي الايجابيين
 فاشخاص هذا العصاب الرائع لا ينتمون كما هي الحال
 في كتب الفروسية الى طبقة واحدة من المجتمع لا وجود
 لبنات الملوك ولا للاميرات ولا للاشراف الرفعاء بل
 يستعرض في مريح متنوع جمهرة من القساوسة والحلاقين
 والدوقات واصحاب الفنادق والمصوح والفتيات المغرقات
 والوصائف والفلاحات والسيدات وتجار الحرير والاضرة
 والخدم والفرسان والرعيان والهرليين والاسارى والمساجين
 اي انه استعرض لجميع القرن السادس عشر ونصدي
 للطبقة المنحلة اكثر من نصديه للطبقة الرفيعة وذلك

هذا بصورة تهويلية الا انها في الاساس تمثيل ساذج لمجتمع
 ذلك الزمن ولجنتعنا وللمجتمع الاجيال المقبلة.
 والمشهد الذي يستعرض فيه النساء رحيب ومختلف
 اللوان في هذه الرواية: سنشيكاء ابنة سانتشو فتاة ديرة
 طيع اوامر والدها وتساعد على القيام بادارة المنزل
 وفريزا بنتا تمثل امرأة المنزل لا تفصل ولا تمل في عملها
 بحسب الملابس والعقود لا الامر ما الا لادب الحسد في قلوب
 حرافها تمل الى ضرب الامثال كزوجها وترضى بالعيش
 ضريباتها. لويندا فتاة منال للضاعة الابوية ومع انها
 معرومة حتى الجنون تكلمتوا معها وتقعن بمعاستها ودوريتها
 من احسن النسوة اللاتي طهرن في الكتاب وخيرهن
 امدا لا ورزانة وحصافة وجمالا وهي ضحية فرندو المنقلب
 وجميلا هي المرأة الحسنة التي لانفوى على حد اخر
 الخبطين بها ولعلها تحسد ضعف الارادة مرثالا ترمز الى
 المرأة التي لاتسعر بالحب ولا عرف احد كيف ينفذ الى
 قلبها التيسيدورا هي الفتاة الحقيقية الرأس المتهورة
 المطرابة على استعداد دائم للارتداء بالمساكين الذين
 تقعون تحت رحمتها وصيفة ضنون كيوخوطي اصم
 شخصية في الرواية وهي تمثل تلك الوصائف اللاتي

لحرور زمن طويل على وجودهن في البيوتات يعتقدن
 انهن تنمو من اعضا العائلة. فيسدين النصائح ويقاسن
 الدار افراحها واتراحها. انة تحت الكيخوخلي تمثل
 لارادة الوصيعة لاعتقادها ان ما تقوم به انما فعله
 لصالح الجميع. ليندرا هي الفتاة العسة التي تنوق الى
 الحرية فتصيخ سمعها لكل عجيل. لبردة هي الحب الجرد
 فتحمل اخير التضحيات في سبيل رغبته. مولينارا
 وحولوسا فتاتان نعيمان يسكن عليهما الدهول والخبرة
 عند ما تعاملان يرفق واحترام ما تعرفاهما قبلا. وفي بادى
 الامر خالتا سحرية واردر. حطام البطل ولكن من بعد
 نائتا كسحورنس لظنونهما رانا كيف رفعنا من الوحل
 حيث كانتا نعيشان. ضياربا الفتاة المغرومة بياسيليو
 تسلم لتيار العواطف الجارف وبشجاعة فائقة تلقي بنفسها
 تحت محالب الالام والفقر لرواحها من الرجل الذي لا يملك
 من حطام الدنيا فيلا. مريضورنس الوفية العهد هي تلك
 الفتاة المعطاء. وكامرأة ضعيفة الارادة كلفت بسانتشو الذي
 طلب منها وهو مزعج على الذهاب مع سيده ان قاتيه بضأس
 ما بعد ان كان سخرية ضيوف الخندق. الدوقة تثل تمثيلا
 لاغبار عليه. المرأة المحبة للفراغ والتسلية والطرب

المعدومة الثقافة غير انها مهذبة في امور سخيفة، والنساء
المرشلونيات سيدات يحبين الهزل والتسلية بشكل شريف
وضونيا رودريگث تمثل وصفات البيونات الكبيرة اللاتي
يعشن في ظل الحياة الرعدة وعندما تسنح لهن الظروف
يسقطن من يخدمنه وضونيا كلارا دي فيدماهي الفتاة التي
نبدأ اسماعها في التقاط الكلمات الغرامية الاولى، فكل
هذه الاشخاص الموصوفة وصفا رائعا بما قل ودل كغيرها
من الموصوفات التي يلم بها قلم الروائي العبقرى نمشي
جنباً الى جنب مع الحامة الطوبوسية البيضاء، امبراطورة
الطوبوسو دوليتانا المتلى.

ولقد وصفت اليد العبقرية كذلك الذكور وصفا
خلق في سما' الابداع، فترى ونحن نتصفح الرواية
الاسير الصور السهم، وقسيس الدوقيين الصغار الذي
لاتلين له قناة، ورئيس كهنة طلبطة الرزين الادييب،
والصاهن بيرو بيريش الرجل الساذج الكريم وضون فرنندو
الدوق المتعجرف وضون شينغو دي ميرندا المهذب الرحين
سكر دانبيو التاعس، لو طاريو العادم الاخلاص، انسلمو
المخدوع، خيناس دي بسامونتي الماخر الماهر،
وفصل هرتزنبوش باصالة رأي صفات اصحاب

الفنادق الاربعة الذين ظهروا في الرواية فيقول: اما ابن سان لوكار فساخر وكريم يرضي ضون كيخوطلي ويحميه من الاكورة ويساعده بالمصروف وبلومبيكي الايسر رجل انتفاعي وحقود يطالب بدفع مائه ويحتفظ بخرج سانتشو ويحمد مع اللصوص ضد ضون كيخوطلي بعد ان كان الفارس الطيب السريرة قد سكن روع الضيوف الذين خانوا اساووا معاملة صاحب المضيف الوقع وصاحب فندق الاقزام المضحكة رجل ذو اخلاق سليمة يعجب النبيل المبقرى في وسط بحر ضلاله وصاحب الفندق الذي في طريق سرقطة مغرور وشيخ على مأكولات منزله وهو لا يطبخ سوى طبخة واحدة يساهم فيها وما قاله هرنزنبوش في اصحاب الفنادق ليقال عن اللصوص والمعازين وغيرهم.

لئن كانت الاشخاص الاناث تشكل الاساس الذي يوصلنا الى شخصية دولنيسايا الخالدة فكافة الاشخاص المذكور تؤلف الاطار الذي يحيط باخرف شخصيتين وابدع ما اوجدت العبقرية التي حاكت الرواية وهما ضون كيخوطلي وسانتشو فهما شخصيتان على غرار شخصيات الملك ليار وساخي سموندو وادييو وهما من المبتدعات

التي لا تنسب الى امة دون الاخرى بل تنسب الى العالم
طوره. مبتصرات مثالية لا تشيخ ولا يعرف الهرم اليها
سبيلا بل عكس ذلك ضلما ابتعدنا عنها وطال الزمن
وجدناها اشد بروزا واعظم قوة.

ولكنهم من تجلدات الفت في شخصية ضون كيخوطى!
لقد كتب احدهم عنه فوصفه بأنه شخصية هزلية اذ لم
يحسن النظر اليه الا من خلال النزاع حول حوزة
مكربنو دون ان يفكر في ان هذه الشخصية السخيفة
هي التي نادت: لا وجود لمصافير اليوم في اعشاش
الأمس. وهو الرجل الضعيف الذي لا حول ولا قوة له
مبارال الجبابة لينقلب عليهم ويدفع بنفسه وراء المجازفات
وقد حمل في صدره ثابة سامية ومقدسة: الدفاع عن
الضعفاء، حماية التمسنا ومواساة الفقراء. وقد قيل فيه انه
يمثل الشرف الاسباني كما لو كان من السهل اعتبار
الشرف من الامور الطبيعية الخاصة التي تميز شعبا
معينا. فضون كيخوطى شخصية عالمية لان كثيرا من
الافكار العلوية التي احنوت عليها نفسه هي في صدور
غيره من رجال العالم. وهو ذلك الرجل الذي لا يقدر

الاحطار التي بتعرض لها ويكافح بحماس عن المذهب الذي يريد فرضه. مذهب عال. عظيم. سام. يبلغ بصاحبه الدرجة القصوى من حيث نكران الذات وحب الغير ولو لم يكن كذلك لما ترك عيشه الرعبد في مقر داره واهمل ممتلكاته ليطوف في العراء على اثر المجازفات وقال فيه احد الكتاب: ان حنون حنون كيخوطي يتجلى في عدة اطوار: فهو منالي حين ينتظر القرويات وخطر في مغامرة القارب المسحور وشجاع في تجولاته ليلا في ارقه الطوبوسو ومنهور في مجارفة غار مونيسيونس ومجازفة الاسود وجامح في منازلته للمسكابينو وغبي في مقايلته مع كريدنيو. وقد احباب ذلك الصنائب في تعليقه اذ الا بدفع الجنون الى القيام باعمال لو رويت لبدت غير عادية لا يمكن تصديقها؟

كان يتعذر على سرفانطيس ان يصف بطل لامانشا كرجل عاقل وكان عليه حتما ان يقول لنا ان دماغه ينتمى الى فئة الادمعة التي ينبغي ان تخضع لدراسة الاخصا بالمجانين وبهذا تظهر حقيقته ويتضح ذلك الاحطار الجلي العثم الذي يلاحظ في الرواية الا وهو الرجل

المصنف الخبير، القاري، الذكي ما دام نوهه لا يرى شيئا
 يست إلى الفروسية بطلا ومضى لاح له امر من بقايا اثار
 ضبه العالية على قلبه استحال إلى مجنون لادواء له. ولقد
 قدسنا ان احد الكتاب اخذ ان حنون كبخوطي يمثل
 الشرف الاسباني وتقول الان ان لانويني في مؤلفه
 منك كتبتنا يقول ان المنا السهر يمثل الاسباني
 المسكر المحارف ان له تكن في الواقع فعلى الاقل في الميل
 المشرقي بالخطر المثار على من يحول دون بلوغ هدفه الحب
 الفضائل الخ. اجل يمكن ان يكون محارفا ومستورا في امور
 ليست مثل اصلاح الميث والسير في حبال سرامورينا
 العترة بعد ان رد للمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في
 الجواري حريتهم اما كونه لاسالي بالاضطرار فهذا صحيح
 لان شعاره انا اسوي مئة رجل وانه لسخيف ورزين
 محنون وخير ومنصف في افعاله ومعارض لاحكام العدالة
 انه لشخصية انسانية لا بعد مدى يتحسده سمو الحقيقة
 بشكل مضحك، وهو تلميذ لافلاطون - كما يقول مونطسور -
 في رد السخافة والبلاهة. لكن جردناه من سيفه ولباسه
 ضفارس مشا رحالة لبقى الفيلسوف.

وأما شخصية سانتشو فتبرر إلى أبعد حد شخصية الفارس
 السامي في حين أن أغلب النقاد قد رأوا في حامل درع
 ضون كيقوضى الرجل الإيجابي الاناني الذي يسعى لمنفعته
 والآن فلنبحث في هذه الشخصية: فعند بدرو آ.
 غرثيا: «إنما هو المجرة المنجدة من السموم والفطر السليم
 دون التعقيد في الأسباب والشهوانية العسيلة الخالية من
 الذي الملل الأعلى ولا يهرها سوى غرضها الخاص» ويقول
 بيرنس وهو رطادو أنه: «ذلك العامل الذي يحسب عمله اليوم
 بالمراقدة» - وهو نقد ذلك الرمان - رب العائلة الذي
 لا يملك سوى الحمار وقد علمه الضيق وضنك العيش
 السعي في طلب الرزق وتحسين الحال، وتند ملويبيو:
 «المادة حسب ما نفهمها الجماعة المنفقة أو غير المنفقة»
 مفتاح وسر الحياة الإيجابية والتاريخية بما فيها من ضعة
 وإنانية عملية مدتومة بمقدار لا حد له من التعقل
 والجهالة، وعند ميث: «بمثل الشعب الحشن المادي في
 زمانه» ففي نظره لا توجد غير عبادة واحدة: عبادة
 المأخول والمشروب والنوم والافرا مع قليل من العمل
 ولكننا نصارح هؤلاء النقاد المحترمين أن شخصية سانتشو هي
 من أموا ما درس من شخصيات الرواية

لو كان طامعا وأثانيا لما ترك حكم الجزيرة
 لأول مضادة قامت في سبيله ولو كان محبا للمادة لهجر
 سيده عند ما فحق أن حياة الارتحال لا ترد عليه من
 مضافات سوى أوجاع وسوء طالع وهذا يتألف من
 تكلمات وعصوات وقذف باللحاف فسانشو رجل سليم
 الطوية، خريف، طابع، ساذج، صدوق، وعبر انتفاعي في
 آخر الرواية، يضمن الوفا والحب لسيدة بهجر امرأته
 وأولاده ليلتحق به ويعلم أنه في رفقة الفارس الرحالة
 سطى المجازفات فلا يلقي سوى العصي والحجارة فينحلد
 في كل مرة وعند ما يسوقى الضل يذرف الدموع، دموع
 النسي والاسف أي أنه يبكي ولا يتباكى.



- IV -

روايتا الكيخوطى

«الفضولي المل، و«الاسير»

لقد كتب الشىء الكبير حول الروايين المدرجتين في الكيخوطى وكلاهما تقعان في الجزء الاول: فالاولى تسفرق من الفصل 11: حتى الفصل 35: وتنهاها «الفضولى المل» والثانية تسفرق من الفصل 11: حتى 11: وتنهاها «تاريخ الاسير» وتلاحظ في كلاهما يد سرفانتيس الماهرة من حيث الجمع بين الامور النفسانية والطرافة والحوادث الحقيقية والخيالية، ولقد حذفت هاتان الخليتان من متن الكتاب في كثير من طبعاته ووصفنا نظوبهما من حلى سرفانتيس نظرا للدور الذي تلعبه الاولى الى جانب المتخرج فيدريرا ومخاورات الكلاب ولصون الثانية . تحتوي على قسم كبير من تاريخ الاسارى في الجزائر . وحتى من تاريخ سرفانتيس نفسه .

وليسوع ان ينكر ان رواية «الفضولى المل» ذات اصل ايطالي وبكفى ان نتذكر مطلعها الذي يقول: «وفي

فلورنسيا المدينة الغنية الجميلة، ولقد احسن واجاد في اختيار ايطاليا مركز ثورة وفوران الشهوات ولو كانت الرواية صحيح ان تحدث في اي وقت كان وفي كافة البلدان. اما موضوعها فهو كما نرى: انسلموا العسى الثري مغرم بزوجته كسيلا من اجل نساء فلورنسيا ولذته يعتقد انه تنصها الفضيلة فتقضى عليه مضجعه الغيرة ويفضي بلواتح صدره الى صديقه لوطاريو وبثلب الله بالحاج ان يحترق بها اذا ضاقت بوجهه نعمت باسمان الاخلاص والوفاء. متبل هدايا ووعود معسولة. فرفض لوطاريو في اول الامر الا انه اذا الحاج صديقه بجبهه الى عليه فتقابلته كسيلا بالازدراء يملغ صديقه بالامر فيعاند هذا وكى بفسح الحال لصديقه وزوجه بنظائر بانه قام بسفر بعيد ثم يعود لوطاريو الى مغازلة كسيلا بكل ما اوتي من حرارة الى ان يحدث احيرا ما كان يتوقع حدوثه وقد قال فيه العالم النفساني لا توجد قوة بشرية في وسعها ان تمنحله. وقعت الكارثة فكانت قصاصا للحاج الزوج الفضولي. ودخلت الزوجة الدير بعد ان رأت نفسها موضوع سخرة وذهب الصديق الكاذب الى حرب فلنديس في طلب

الموت . ويصح ادراج هذه الرواية في صف القصص المثلى نظرا
للامثلة التي تلقبها علينا وقد نظمها سرقانطيس شعرا فقال:

«انما المرأة من زجاج

لا يجوز ان يجرب

ان كانت تكسر أم لا

لان كل شئ ممكن»

تنبغي الإشارة الى امر وهو انه في هذه الرواية
نتمس الحقائق ذات المعنى الفلسفي البعيد الغور والاخلاق
الرفيعة المي في مراعاتها حصلت نجاة العاشقات في
الكبح وعلوي ومن عدم مراعاتها والتظاهر بها سقطت كعبلا
الى الخضم في القضيوي. فلماذا لا شك ان الذين يقرأون
هذه الرواية الخالدة قراءة سطحية لا يدركون الصلة التي
تجمع بين قصة السساوي والفلورنتيني في حين ان
الذين يقرأونها قراءة روحية يكتشفون ان بين القصتين
رابطة متينة قوامها قوة جمال لاتجاري وقو علوية سامية
ترشد القاري وتنوره دون ان يشعر وتوصله الى النقطة
التي ترفع له النقاب عما قد حجب عن الامثلة الاخلاقية
الغالبة العريضة على قلب التسا على اختلاف طبقاتهن
لا ريب في ان سرقانطيس قد جاء بهذه الرواية

يؤكد نظريته في القضية الاخلاقية وفي تأثير المجتمع على المرأة فيما يتعلق بتواخؤ الرجل على ثقافتها وفضيلتها. لذا انها حجر الزاوية في منن الكيخوخى لتساق وتوارن الاصلة التي تجلت في كل ما يمثل الكتاب في هذا الخصوص وتنعكس عليها صورة الانحاض الافاث اللانى غمن بادوارهن في موضوع سرفانطيس.

وفىما يتعلق برواية الاسير فقد تقدمت بنا الاشارة الى اهميتها نظرا لما فيها من المعلومات القيمة عن حياة الاسر وموضوعها. ان فنى من مقابلة لىون مولوخ بحياة الاسفار يبحر من البضنى قاصدا جموة فبحول في ندة مدن ايطالية ثم يبحر في حبش دبحو دي اوربينا وبعد ان يساهم في حروب فلندس يعود الى ايطاليا ويشترك في موقعة لسانطسو ويقع اسيرا فنقل الى القسطنطينية وبعد ان يطوف في سواحل افريقيا ينقل الى ملطية حسان باشا ويبقى في الجزائر وبينما هو ذات يوم في الحمام يبصر قسبة تلوح له فيقرب وتقع القسبة وفيها كمية من النقود فعاد العسيلة مرات واخيرا يتعرف الى الشخص المحسن الذي بكرمه ليخفف عنه تعاسة الاسر فيشتري بالنقود التي كانت تعطيه اياها ثريده

- وهو اسم المرأة المحسنة - قارباً ويخبر احمد قائده الاسارى
 بالامر وفي احدى الليالى يغفلون ايدي البحار المسلمين
 ويختطفون ثريدة بعد ان يوثقوا والدها ويوجهون الى
 السواحل الاسبانية وبعد ان يواجهوا مصاعب عديدة
 يبلغ بهم الحال الى ثرناطة فنعنق ثريدة الديانة المسيحية
 تسترعى الانتباه في الرواية الامانة التاريخية ووصف
 حياة الاسر في الجزائر وقد قال بعضهم ان هذه القصة
 لا تنسجم مع كتاب سرفانتيس فاختلطوا نظراً لما فيها من
 الامور المهمة التي نبعث في نفس القارى الارنياس
 وتتعلق بحياة المؤلف علاقة مباشرة او بحياة رفاقه
 في الاسر.



-IIV-

تقليدات الكيخوطي

كتب سرفانتيس بعد ان اتم الجزء الاول من الكيخوطي ينظر بقرب صدور الجزء الثاني وكان وعده هذا سنة 1605 الا انه مرت اعوام ودخلت سنة 1914 دون ان يفي بما وعد به، انه راجع بعد كتابه على مهل فهذا مما لا ريب فيه، وانه لو لم يصدر افيانادا فتمة الكيخوطي لظلت مخطوطة سرفانتيس دون ان تنجز، فهذا اكثر من اكيد. وعلى كل حال، سرفانتيس كان من المتنبئين عند ما تكهن ان رحلا غيره سيواصل رواية قصة الكيخوطي الا انه لم يتفوق في سكه حيث ان نفس سرفانتيس قال فيه: لقد كتبه بريشة نعمة غليظة اساء بريها.

فالانذار باصدار حوادث المرة الثالثة لخروج ضنون كيخوطي ومرور عدة سنوات في انتظار ذلك الجزء دون جدوى دفعا بغرندث دي افيانادا الى كتابة مؤلفه وغايته الاولى تحوم حول الاستفادة من نجاح الكيخوطي

ولدينا في التاريخ شواهد عديدة تثبت هذا الحادث أي
ان يشرح احد الكتاب في تصنيف مؤلفه ثم يأتي من
ينجزه من بعده وخصوصا في ذلك الوقت الذي لم تكن
تحتزم فيه حقوق المؤلف.

ولئن قوبل كتاب سرفانتيس بمؤلف دي افيانادا
لما شك احد في ان هذا الاحير ادنى بكثير من ذاك ولقد
قال سرفانتيس في مقدمة الجزء الثاني مامعا الى كتاب
خصمه: ما حسن قط مطلب نان، ولم يتوقع احد الى
عبارة اصدق من هذه. ويقول مونيانو ولوبندو في مقدمة
طبعة الكيخوطي الصادرة عن مدريد سنة 1732: «ما
من رجل حكم بهجار الى جانب سرفانتيس، انها لعبارة
معرضة الى ابعاد حد ثما ان حكم ميانس غير مناسب في
سيرة سرفانتيس عن اسلوب افيانادا بقوله انه: «محتشو
بالسرقات والعبارات التي لا تمت الى اللغة الاسبانية بصللة
وهو اسلوب خشن مضطرب وصفوة القول انه اهل
لثقل الزعران» ومما لا ريب فيه ان كيخوطي دي افيانادا
لا يمكن ان يقارن بكيخوطي سرفانتيس وهذا لا يعني
انه خال من كل قيمة ادبية. ولم يقد ادلى برأيه في
الكيخوطي الملقق دون تمييز وبإخلاص واصالة رأي مثل

العالم الإسباني الصغير منذت أي بلايو حيث قال: النكتة
 حشنة ولكنها غريبة وبديهة القوة الهزلية همجية ولكن
 تذكر لها وجود، والمحاورة وإن كانت حيلة بالبلادة
 التي تشتمل منها النفس لدى قراءة كل صفحة فهي
 خاصة ومناسبة للشخصيات الرائعة التي أدخلها الروائي
 في سير الأحداث وأعطى كلا منها دورا، وأما ما نخط
 من قسمة مثل هذا الكتاب وينزله إلى أسفل الدرجات
 بالنسبة إلى الكتاب العقري الذي دسسه دي افيانادا
 عن بلادة فحسب بل بالنسبة إلى أمور كثيرة من خاصيات
 تلك الزمن لا نعدى حدود الانداع والسلسلة ومنها
 الفكرة المنحطة المسكينة التي بعدمها المؤلف عن الحياة
 وإنذالية أفكاره وعيابه كل مثل أعلى وكل سمو جمالي
 وسرعه في كل ما عومر به وقبح بلادة ونسرا طبعهم
 والاعتنا الذي يكرسه لكل ما هو عظيم وكل ما هو
 نبي ومهوع من وظائف الاعتنا التي يتركب منها الجسم
 الحيواني. ليس هو بالكتاب الخلاعي المتهتك لأن هذا
 ما لا يرضاه رمانه وخطابه سلالته ولكنه كاتب الاقدار
 ومن اتقن الكتاب الذين يمكن ان يعثر عليهم رائحة.

(1) نسبة إلى المؤلف الفرنسي الصغير رابلي.

ولقد مرت ثلاثة قرون وما زال الاسم الحقيقي مؤلف
 الكيخوطي الملقب مجهولاً كجهله عند ما كتب سرفانتيس؛
 لو ساعد الحظ واهدى إلى معرفة المؤلف، وكما يقرأ
 في آخر الجزء الثاني أو في تلك العبارات التي جات في
 المقدمة ألا تنجراً على الخروج إلى الحقل المفتوح ولا أن
 يظهر تحت اسم الصافية الأدبية لقد أحق اسمه وجعد
 وحله ضأه قد اقرى حربية الحياة ضد شخصية الملك.
 لكن ساعدكم الحظ واهتديتم اليه...

وأورد الضاب والنقاد أسماء لا تحصى ولا تعد
 إلا أنه قد نذر غابهم جميعاً إلا أن بالاعلة التي بقي
 بالفرح المطلوب ونكشف عن هذه النقطة العمياء وصفوة
 القول أنه ما من أحد تقدر أن يدلنا على الكاتب الذي
 تسر تحت اسم فرنديث دي افيانادا لإصدار الجزء الثاني
 من الكيخوطي، ومع هذا فقد اتفقت الآراء على أن
 مؤلف الكيخوطي الملقب إنما هو أحد المؤلفين المسرحيين
 ومن ألد أعداء سرفانتيس

بات كيخوطي فرنديث دي افيانادا في عالم النسيان
 أكثر من مئة سنة - رغم أنه لم يلق في عصره نجاحاً -
 إلى أن ترجمه إلى الفرنسية بل حوره لإساج ويرجع

الفضل في نجاحه عندئذ إلى ما أضاف عليه هذا لا إلى ما أودع فيه دي افيانادا ، وما أضافه الصائب الفرنسي وما اقتبسه عن الجزء الأول من كتاب سرفانتيس ، حمل على الاعتقاد بأن سرفانتيس في الجزء الثاني نقل عن كتاب خصه الأمر الذي أوضحه منددت إلى بلابو في مقابلته بين المؤلفات الثلاثة ضما بسبعة صاحب المخطوطي الاكمل . وتستغل هذه القضية المعقدة على ما هي عليه من ابهام وعموم رثما يعر على وثيقة تزيج اللثام من شخصية خصم سرفانتيس بالضبط .

وأما المؤلف الذي وضعه صاحب الاسم المستعار فرنندت دي افيانادا فهو أول تقليد للكيخوطي فيما إذا استثنينا المطبوعة الكاذبة الصادرة سنة 1609 عن باريس تحت عنوان: مقتل الوفا والدفاع عن الشرف ، وهي قصة مقتبسة من حكاية ميرالاو الراعي كريستمو ومطبوعة باللغتين الفرنسية والاسبانية ، غايتها تيسير تعلم اللغة الاسبانية لطلاب .

وأصدر الكاتب الفرنسي سورل ده سوفيني سنة 1627 مؤلفا من أفضه المؤلفات في هذا الموضوع عنوانه: الراعي الشاذ وهو انتقاد للروايات الطبيعية الدارجة

آثذ وأصدر فيما بعد كتابين في أحدهما بعض مقاطع
تصح مقابلتها بكتاب سرفانتيس إذ أن صاحبه عند ما
ألفه كان ينظر إلى هذا الأخير .

ومن أفضل المؤلفات التي صدرت خارج إسبانيا كتقليد
للكيخوطي المؤلف الذي نشر في إنكلترا تحت عنوان : الهيد
برس ، لصونيل يولتر ، صادف هذا المؤلف الشعري الذي
ظهر سنة 1663 و 1661 و 1678 في ثلاثة أجزاء قبولاً
منقطع النظير وترجم إلى الألمانية والفرنسية ، وأعيد نشره
سنة 1819 وفي هذه الطبعة التي سمحها غريس وقعت
الإشارة إلى المقاطع التي من نبات أفكار سرفانتيس .

لئن كان الهيد برس أحسن تقليد في الإنكليزية
لضون كيخوطي فإبرج ضون كيخوطي دي لامانسا
الذي ألفه فلو دي سان مارتن ، وطبع جزؤه الأول سنة
1695 وجزؤه الثاني سنة 1713 أبدع تقليد في الفرنسية .
وظهرت سنة 1697 ، في أمستردام طبعة كاذبة

للكيخوطي بان فيها قصر باع المقلد واخفاقه في الدخول
إلى نفسية الأبطال ، ونشر سنة 1710 في باريس كتاب
مقتبس من كتاب سرفانتيس ، وتحت عنوان خلاص طبع
في باريس سنة 1713 كراسة شعرية ذات أربعين بيتاً

تأليف من تأليف طميزل دي سان باسنت المعروف بالدكتور
 مئناسيوس كلها احراً ومدح المؤلف ولؤلؤه وقد كتبت
 بالعبرانية واليونانية والفرنسية واللاتينية والانكليزية
 والهولندية الخ وهي هجاء لاذع مقتبس من مقدمة الجز
 الاول لضون كيخوطى حيث يسحر سرفانتيس من
 اشعار المديح التي تظهر في مقدمة امهات كتب عصره
 وخصوصا في كتب لويس دي بيجا.

وظهر سنة 1734 في لندن كتاب بقدر في الادب
 المعلوم كقدر سرفانتيس في ادب الفروسية واعمال بطل ذلك
 الكتاب شبيهة كل الشبه باعمال بطل سرفانتيس وصدرت
 في باريس سنة 1737 طبعة لهذا الكتاب ثم سنة 1757
 ترجم الى الايطالية نقلا عن الطبعة الفرنسية الطافحة
 بسيرة سرفانتيس لانها مقتبسة من كتابه كما يدل على
 ذلك عنوانها وهو: ضون كيخوط فرسوا. وقد جن
 بطلها من قراءة كتب الفروسية. وأشخاصها هم نفس
 أشخاص ضون كيخوطى من أوجه عديدة.

وأخذت تتوالى الكتب التي تنظر الى ضون كيخوطى
 حتى سنة 1934 الا اننا نضرب صفحا عن ذكر عدد
 كبير منها - مكتفين بالقدر الذي سجلناه.

- IIIIV -

ضون كيخوطي في المسرح

لقد قدمنا أن أعمال أبطال الفروسية سربت إلى
أضواء الرعيان كسرهم إلى قصور الاعيان ووطئت
اعصاب الرغائب كما تربعت في صدر المسارح فقبولت
بالترحاب فلماذا لا يسوع الذي ان يحمل الرحالة المتساوي
على نفس الحمل؟ ولكن كان رأي دي ارنيدا، ولو بي دي
فيغا، وبيرث دي مونزالمان وروخس نوربا وكلدبرون
دي لايركا وغيرهم لم ياتفوا من استغلال مواضيع الفروسية
للمسرح فلماذا لا يصح للملحنسي غسان دي كسبرو
والمديري دي فرنسيسكو دي افيللا حمل الحكيم الجنون إلى
خشبة المسرح ايضا؟ وعلام لا يسعى ان يظهر على المسرح
شخصية الرحالة الكريم وقد سبقه إلى الظهور شخصيات
رملائه؟ هذا ما مر في خلد مؤلفي المسرحيتين اللتين
عنوانهما: الكوندي دي ايرلوس و التسابيح الميلادية
والاناشيد الطريفة. فألف احدهما مسرحية ضون
كيخوطي دي لامانشا، وحذف الاخر مسرحية اعمال

صون كيجوطي دي لامانتسا التي لا تجارى ، ومع هذا فيمكن القول انه لو كان وصف العبقرى الخالد يثله على الشكل الذي اوجاه خيال فلبنيانو دي سلفا المحموم لما فقد كتاب سرفانتيس شيئا ولكن نظرا لكون الكيجوطي في دراما عالمية لساثر الاوقات والارمان ، إضافة البلدان المحموم اننا آده دراما نصف الفرق بين ما يدرك الفكر السامع وما يطلع اليه القلب الحريم وبين ما يقبله برضاه العالم المسكين . وصف فحصل هذه التخصيصية الساحرة الشعرية التي خسة المسرح ؟ وكيف يمكن ان شعر المشاهد بوجود عزة النفس والبطولة المئين تسيران في الدم في عروق النيل المتساوي ؟ ونقرأ اليوم المسرحيات من سحر دي مريم ، وعد اماديس دي غولا ، والمرليس دي منطوا وغيرهم فلا يعبر فيها الا على حب القتال وكبرياء البطل . أهذه هي الحال في المسرحيات التي يظهر فيها المتساوي المغمم ؟ هل اسوت الحال بين الدراما والرواية ؟ فلا لانه نقبل بين الواحدة والاخرى عوة سحيقة .

ولقد قام بتسليط نور ضئون كيجوطي اشهر المثليين ومنهم انجيم سينمائية فلم يتوفق حتى ابرو بين نفسه

مع ما وهبته السا من عبقرية الى حمل المفرجين على
 نسيان لذة الكتاب وقرائنه ولا استطاعت الشاشة البيضاء
 بدورها ان تسحو من ذاكرة الذين تستعوا بمطالعة
 الرواية الاثر السليع الذي ترضته فيهم.

وعند احد المؤلفين المعاصرين يعذر تعذرا ضليلا
 نقل الكيخوتي الى خشة السرح لان هذه الشخصية
 القذة التي اوجدتها العبقرية تفقد كل عظمتها وبعبود
 السبب في ذلك الى ان صورة الرحالة الشهير لا ينبغي
 ان يأملها البحر فحسب بل والخيال ايضا. وتقلب شخصية
 الرحالة عند انسداد الاسعار او ساعة التفتي الى سخرية
 تنال من سمو ابداع سرفانتيس ورؤيتها على
 اللوحات والتماثيل حلت على العتاف. يراد فيها تشبيه
 ضون كيخوتي، وخلة يراد بقصد منها بعلا انه ينقدها
 شي لتصبح هي هو بذاته وهذا الشيء ما هو سوى تلك
 العبقرية الخامة التي اوجت الى سرفانتيس روايته الفخمة.
 فضون كيخوتي ككتاب يمكن ان يكون معينا عزيز
 المادة للاستلham، ولكن ضون كيخوتي شخصية لا ينبغي
 ان نسيها الايدي البشرية.

وتحتوى هذه الرواية الفاخرة على موضوعات لا يحصى لها عدد. يمكن ان تنقل الى خشبة المسرح الا ان المقدرة تقوم على ان لا يظهر قط ضئون الوضوء كيخانو وان لا يبين مجسما في شخص ما. وذلك ان كل شخص قد خلق في خيلته صورة لهذا العارس العالمى فاذا ما قابل الشخص الذي خلقه في خياله بالشخص الذي يظهر امام عينيه اي اذا ما تحول الشخص المثالي الى شخص وضعي فقد قسبه الروحانية ولما كان ضئون كيخوطى روحا فوضعه قبالة الانوار المسرحية بجرده من السحر الذي يتاثر به في الرواية. ومن المعلوم ان ما من مسرحية تظهر فيها مغرم دولمينابا وارضت الجمهور والتقد ارضا تاما وهذا مما لا يعسر فهمه حيث انه يتعذر على خشبة المسرح ان تلمس اهم الصفات التي تبعث على الاعجاب والدهشة لدى دراسة ضئون كيخوطى وهى ما يراه عقل هذا وما هو ذلك المرئى في الحقيقة.

ولقد اسلفنا ان ضئون كيخوطى صادف نجاحا عظيما وقد يكون هذا هو السبب الذي جعله ينتقل الى خشبة المسرح بعد ظهوره بقليل ويحتمل ان يحضون

سرفانتيس سمع بطله ينشد اشعار المؤلف المسرحي
 البلبسي الشهير: بيان دي كسرو: صاحب مسرحية ضون
 كيخوتلي دي لامانتسا. والدلالة على اشجاب الشاعر بكتاب
 سرفانتيس نذكر انه وضع مسرحية اخرى مع بلقيس
 مقبسة من ضون كيخوتلي وحمل الى حنينة المسرح
 رواية الفضولي الملوك.

ولم ينهل المؤلفون المسرحيون الاسبان محسب
 من معين خطاب سرفانتيس بل هذا حذوهم المؤلفون
 الفرنسيون والهولنديون والابطاليون ولكن مسرحياتهم
 لم تلق نجاحا يسحق الذل حيث ان التي طهر فيها
 ضون كيخوتلي كثر ضار ظهوره منها اقرب الى الهزل
 منه الى شئ آخر وساتسورحل محسون كسيده واسم
 تبد فقط نزة نفس الفارس ولا مكر وسداجة حامل درته
 وحنى المنطق الذي انطقوا به الأشخاص لا يناسب بوجه
 من الوجود مع المنطق الذي اسعمله سرفانتيس الا
 في قليل من المواقف.

- IX -

المصحافة وضون كيخوطي

كتب سرفانتيس في روايته الخالدة انه لن يمضي
 زمن طويل الا وتصبح ذات شهرة واسعة الاعمال الموسومة
 في ضتابه العجيب وتكسح اشخاصه مقاما شعيا رفيعا
 ولما لم يكن للمصحافة وجود في ذلك الحين لم يستطع ان
 يجزم انه مع مرور الايام سوف تصدر محلات اسبوعية
 تحمل اسمي الرفيقين اللذين لم ينضم قط الروابط
 التي جمعتها وتنتهض على شعبية مؤلف سرفانتيس
 الكتب العديدة والرسوم والتماثيل الرامية الى اعلال
 وتخليد ما انحلته من هذه العقيدة. ولقد كتب منذئذ
 اي بلايو يقول في هذا الصدد: ان البهيمتين اللتين
 ركبهما ضون كيخوطي وسانشو والارض التي وطأتها
 اقدامهما والاماكن التي ولدا فيها نالت خالدة مخلدة.
 وليست بطويلة لائحة الجرائد والمجلات التي تذكر
 اسمها بكتاب سرفانتيس الا انها تدل على ان المقام
 السامي الذي تربع فيه الكتاب لم يقتصر على اسبانيا

فحسب بل انه تعداها الى الخارج حيث ساهمت كثير من
المنشورات اليومية والاسبوعية في اكساب مؤلف سرفانطيس
شعبية متراصة الاطراف بعيدة المدى مستدة الصدى.
واسبق العواصم الاوربية في هذا المضمار ككانت
مدينة لندن اذ صدرت منها اول جريدة سنة 1803 تحمل
اسم «الانبيغوى» التى ظلت تصدر بهذا الاسم حتى سنة
1818. ثم اجرت تحويرا واصبحت منذ صدور عددها
التاسع تشر تعرف بالانبيغوى او ضون كيوخولى دي
لامانتشا الجديد. ثم اخذ في الشيوع استعمال اسبي ضون
كيوخولى وسانتشو وظهرت في مناسبات مختلفة في فرنسا
وامانيا واطاليا الخ مجلات اسبوعية وشهرية ونصف
شهرية باسمها بل وكان بعض كتاب الجرائد التى ظهرت
في برسلونة ومديرد يوقعون باسمها مستعارة هي اسما
لاشخاص رواية الكتائب الاسبانية المبدع.



- X -

الكخيوطى

والتقد الوثقى والأجنسى

سبقنا بنا الإشارة إلى المحتاج المنقطع النظير الذي
 لاقاه كتاب سرفانتيس وإلى كون الطبعات - سواء بلغته
 الأصلية أو باللغات الأجنبية - عديدة نرى إلا أن النقد
 لم يشرع في أعلا شأن مؤلف لهذا من حيث النبوغ
 والابداع حتى أواسط القرن الثامن عشر. وقد يعرض
 معترض فيقول أنه في غضون القرن السابع عشر جرى
 عليه من الأسان قاربا وسونا وبيقولاس انطونيو ومن
 الأجانب شاميل هيب ومان افريموند فنس واحسنوا
 الثناء عليه ومدحوا مؤلفه الخالد. ومع هذا فيقتضى
 الامناع إلى أن النقد السرفانتى الحقيقى ابتدأ في اسبانيا
 مع ميانس وذلك سنة 1747. وفي الخارج مع مترجم عنوان
 كخيوطى ب. آ. ر. مونييه سنة 1780.

وينقسم النقد حسبا لأحظائه ونحن في دراسة
 الرواية الخالدة إلى لغوي ونفساني فالأول من خصائص

الاسبان محضا ومع وجود اجانب لهم اطلاع واسع على اسرار اللغة الاسبانية وطرق تعبير سرفانتيس، ثم يكرسوا جهوداتهم لدراسة كما فعل كليمنس وكلدديرون وكورنيخون ورودريغث مرن الخ ونضرب صفحا عن ضافة النقاد الاسبان واقوالهم في سرفانتيس وروايته التي تتعلل فيها روح العقيدة النصارى لئلا يراى شيخهم ومعلمهم دون ما منار الا وهو مستند الى بلايو الذي كتب في معرض بحثه عن الكيخوتي هذه السطور: «صارع سرفانتيس ضد هذا النوع من ادب الفروسية الكاذب النافه مستعملا كل معدات سخريته الرؤوفة مزوجة بالحب والشفقة الامر الذي جعله متفوقا لا يقهر ولا يطاق في مضمار هذه الفكرة الخاطئة العديمة الاركان عن المرأة التي نصبت حسما - زائلا - بعيد عبادة مدنية ومنحيلة. هذا ما ضحى به الى الابد سوا عن طريق المثل الاعلى المستحب في دولينايا وسوا عن طريق الحقيقة الخشنة في مريطورنس.

وفي معرضه التسانى الخافل الخفي في دورته وفي ثريده وفي ضوئها ضلارا مقدار الملاحاة والغرام والحنان في نفس المرأة ضمن شروط الوجود المعقولة. فهذا النشاط الجامع

الذي لا حدود لمداوئه المحرر من كل نظام اجتماعي
ومن كل غاية حكيمة هو ما جسده في شخصية جنون
علوي الذي انما هو ~~لص~~ ذلك من قراءة كتبه ومن
الصوفية الدائمة التي تجعل النفوس الخيالية على لبس
رؤيا الفن برؤيا الحياة. اما جنون كيخوتي فلا يثير فينا
الاسف فحسب بل الاجلال والاعتبار: الحكمة تجري في
صلياته المسحونة، ويأمله القاري باحترام وضعك في
آن واحد الفصل حقيقي وناضحة للسلطة وحسب
العبارة الموفقة للشاعر الانكليزي وردسوت. ان امالة
الرأي قد شئت في انماق مؤثر حونه الفخم. واما
دماغه فهو كتابة عن عالم اسى حيث تمنحس عليه
مكبرة استطاع اوهام الادوار والاضوار الشعرية التي ما
ان تحتك احتكاضا عبيدا بالعالم التاريخي الا وتفقد ما
نظمته من افك وخطر ونفك عقدة لغزها في مرتبة الهزل
العليا من غير مرارة بفضل التأثير النفعي المظهر للضحك.
ولما ان فقد كتب الغروسة كان حجة لاسبيا اساسيا
خلق خرافة الكيخوتي فهكذا بدأ بطل الرواية كسخرية
رؤوفة لاماديس دي غولا. الا انه سرعان ما خلق بجناحيه
وارتفع فوق مثل هذا الدور. ومن حق مؤلف اماديس

ان يفصل باعتناء عن جمهرة نباته حيث انه قام بعمل لا يقتصر على كتاب في الفروسية مقلدا لاولئك الذين عاشوا تحت سماء بريطانيا فرسة، فلقد كتب اول رواية مثالية سامية عصرية هي مذهب الفارس الكامل وملحمة الاخلاص والوفاء المحب وقانون الشرف والادب وهي التي ساعدت على خلق نظام انجمنه وراسته عدة اجيال وما من بطل روائي فرض الاعجاب بشخصيته على الناس بسبل هذا القدر من البها والمغنى كجبل مؤلف اماديس قبل ان يظهر ضنون كيجوغي. ففي هذا الاخير يعيش اماديس ثانية الا انه يحطم ما في نفسه من متعطل ليوجد ما فيها من الزلي والانس بانى الفكرة العليا التي تسخر العنصر الفئول المسلح لخدمة النظام الاخلاقي والعدالة الا ان شتاوتها المؤقة تنواري وقد استعالت الى الف شظية من جراثيمها الخسنة للحقيقة الدائمة النقص البعيدة عن الكمال الدائمة الحدود ومع هذا فهي في طور الانبعاث اقل كمالا وحدودا وخشونة منها في القرن الوسيط.

انصر ضنون كيجوغي، النور في فترة حرجة بين عالم تنداغي ارضائه وآخر اخذ يطل على الحياة من خلال حركات غير منتظمة فادا هو يتأرجح بين التعقل

والجنون بدافع انتقال مستمر مما هو مثالي الى ما
هو حقيقي ولئن نظر اليه نظرة واعية لثبت ان جنونه
ما هو سوى حيل وهمي بالنسبة الى العالم الخارجي
وبعبارة اصح ما هو الا تصيف وتفسير زائف للمواقف
الحقيقية اذ في اعماق دماغه الطاهر لا تزال تسطع في
وميض لا تغيب له جذوة تلك الافكار الملورية الازلية
السعيدة التي يحدث عنها افلاطون وهذا وان ترك
سرفانطيس الحدود غير واضحة بين العقل والجنون
والقا افضل الدروس الحكمية على لسان غيول ما كانا
ابحسا من حيث السداد والاصابة باقل توفيقا من
الامور التي ولح غابها وان دع ولم يقصد بهذا السخرية
من الذكاء الشرعي لا ولا تنسج الخطوة التي ما كانت
البدو مضحكة قط في الكبحوحي ثولا الطريقة غير المناسبة
التي يستعملها المطلق لتحقيق مثله الاشلى الجيد في حد
ثاقه. وليس التطلع الى السبل الاعلى ما يحمل ضمنون
ليخوطي على الغضب من الفردية الماخبة الجاشعة. ولا
يصدد عليه صفاه وينزله منزلة المجانين سوى تلك
الفكرة الخاطئة عن النشاط وهي التي تدفعه الى منزلة
العالم باقدام وجرأة ونجعل فضيلته وتجموده كلاشي.

يخرج ضنون كيجومي مربعا في النزاع بين الحرية
والعاقبة لعدم ملائمة مع تحتته غير ان انضماره ليس
الا في الظاهر لان اعاقبه السبيلة لم تفسر باذن وسوف
تتحقق في عالم افضل حسبا لنظره انضماره العقل
المسيحي الى اقصى حد. ولما كان هذا نوعا ما رمزا في
الواقع فيعذر نظرا ان انه اضطلع بالنسبة اليها وتعليه
بدور معظم اهمية الكيجومي من الناحية الانسانية الا
انه في نظر المؤلف لا اثر لعل هذا الرمز بل هو مخلوق
ذو حياة كله جمال وروح هو ابن خيلته الشعرية
الخيال يفرح به ويخلق عليه اندع صفات الكائن
الشري وانهاها ولم يؤلف سرفانتيس الكيجومي
بالطريقة الرمزية الماركة الآلية وانما الفقه بعد ان رأى
هذه الطريقة تصعد صعودا مع شعاع العبقرية البديهي
المفاجيء فاقضى اثره وسحرته بهرجته ثم توصل الى
الرمز من غير ان يبحث عنه او يتعمده واستنرف
المضنون الروحي الذي في البطل رأى سرفانتيس الجمال
فاحبه ومتع به فاضربه واما ما تبقى فقد جاء صاغرا
وهذا ما جعل من خرافة فكاهية كان قد ابتدأها كسخرية
ادبية لالسان انواع ادب الغروسية بل لنوع خاص منه

دحوال بحكم الضرورة المنطقية الى قدح في المثل التاريخي
 السامي الذي تحدثت عنه تلك الكتب ونواصل تطورها
 في حلقة من المضادات السبية غير المتظرة فلا تقتصر
 على تمثيل الحياة الوطنية نميلا شاملا ومنسجما في فترة
 اوجها المرامي وانعطافها المعقد بقرب الانقضاء بل تعدتها
 فتا بها ملحمة هزلية لشي البسر وكتاب الضحك
 والحكمة الخالد.

بسم الله

واما النقد الاميركي لكتاب سرفانتيس فحدث
 المحدث حدا فقي اميركا الشمالية تنبئى الاشارة الى
 عباقات تيكنور وبسكوث وشغل الاستاد العالم في جامعة
 برينلي وفي اميركا الوسطى تسحق الدكتور دروس
 سندياس وفي اميركا الجنوبية اجاث فورس ثيبايوس
 ومونر صانص غير اننا سنأتى على ذكر نذ مما قاله
 الناقد الشهير امينادورو اورديسا الذي بعد اقدر وابرع
 نازسي سرفانتيس في اميركا الاسبانية : وكما ان
 عوميرو انتصب بين الشرق والغرب لاشادة حاجز ازلي
 يشمل بين الابهام السري المسيطر على الديانات الاسيوية
 والالهات الكثيرة العدد المطبوعة كل منها ضائع خاص مميز غم

كثرتها التي كانت تغص بها سما اليونان فقد انتصب كذلك
 سرفانتيس بين العصر الوسيط والعصر الحديث أي بين
 تالين أحدهما قائم غير ثابت مفعم بالابهام والثاني ساطع
 الضياء راسخ على أساس العقل والسيادة الشعبية لقد
 شرب هوميرو نخب عصر الفن وحياة القوة الجسدية
 والقوة الأخلاقية وهما العالم اليوناني لفنوحات الأقدام
 والذكاء وأما في حضرة سرفانتيس فتضجل الأساطير
 وميتولوجيا العصر الوسيط الهائلة بما فيها من اقزام
 وأغوال ومردة ويحيى بلا نفس ولا حياة ذلك النوع
 الأدبي المصحك الذي نباه ثم تظهر أشعة الفن وتنجلي
 قوة فاعلية الذكاء لنير السبيل أمام عبقرية الكاتب
 المرح فخر الإنسانية الذي إنما كساه ملك العقل السليم
 والذوق السليم وحقل الشعور الحصين ومشعل الشعر
 الحقيقي... ضون كبحوشي هذا الكتاب هو التعليق على
 تاريخ البشرية وعالميته تشمل ثقافة العصور واللوانه
 تنعكس على ثقافة الوجوه من أعلاها إلى أسفلها... ولم
 يكن البصيرحوشي قط ذلك النقد الفارغ الثقافه لعيوبنا
 وشهواتنا بل هو أرفع مقصد وأسى غاية يرمي إليها

الشعر فهذا الذي صانه وجعله يعلو على الحدثن ويظل
دائم الطرافة في سائر الأزمان الخ.

ورغم كون كيخوطى لم يترجم في روسيا حتى
سنة 1769 ورغم وجود دراسات ذات أهمية لا بد من
الإشارة الى بحث قيم لتورغينف تحت العنوان الآتى:
«عملت وضون كيخوطى» نقطف منه هذه السطور: «ان
الظهور هملت وضون كيخوطى في آن واحد مغزى كبيرا
فهاتان الشخصيتان هما جيد الطبيعة وقفاها هما قطبان
تدور عليهما الارض او لاينمى كثافة انبعاث البشر الى
هاتين الشخصيتين؟ اليس فيما شئ من ضون كيخوطى
وشئ من هملت؟ ومن المؤكد اليوم ان وجود هؤلاء
نعدي بتغيير كل حساب غير ان اولئك لم ينفرضوا
بعد وسبب هذا انه في كثافة العصور والأزمنة سيكون
طريقتان للتفكير او الادراك المثل الأعلى: احدهما نضجه
خارج نطاق دائرة الطبيعة البشرية والثانية تنزله داخلها
ويمكن ان يقال اما «الاناء» الذي نفضله اما «الاناء» الذي
نعزّه نوعا فهاتان الطريقتان للتفكير في المثل الأعلى قد
التقتا في شخصيتين مختلفتي الاطوار والطباع الى حد
بعيد كما هما عليه هملت وضون كيخوطى

فبادىء في بدا علينا ان نقضي على تلك العادة
 المألوفة في ان لا يشار الا الى شريف الماتشاش الى الفارس
 المشاء الى ذي السحمة الكنيبة الشخصية التي خلقتها
 مخيلة الشاعر ليسحر خامة من روايات الفروسية اجل انما
 تعلم ان اهمية هذه الشخصية ارتقت في رعاية ونحت كل
 عظمة من خلقها وابدىها كما نعلم ان ضون كبخوضي في الجزر
 الثاني من الكتاب انما هو سير الدوقيين والدوقيات
 والمشير الحكيم لحامل درته وحادمه وليست له ادنى
 تلاقة بضون كبخوضي الذي في الجزر الاول

فلفهم طبائع المشاء الشهير نعلم الامزاج المصنلى
 بروح الرواية فضون كبخوضي هو قمل وفوق كل شئ
 شعار ورمز رمز الايمان ولكن الايمان الخالد الازلي
 نوعا الايمان الذي لا يموت ولا ينعول الايمان بالحقيقة
 الخالصة الطاهرة التي نعلو على الفرد الحقيقة التي تتطلب
 التضحيات والتي نلق على الركفاح طويل وفكران ذات
 قوي وضون كبخوضي هو ذلك الرجل المشرب بحب
 المثل الاعلى ولكي يتوصل اليه فراه على استعداد دائما
 وابدا لتحمل كل انواع الازدراءات ومقاساة مرارة
 الحرمان انه على اهبة التضحية بحياته انما الغاية الوحيدة

سها هي انها تفسح له المجال للسعي وراء ذلك المثل الاعلى
 ضامنه في نصرة العدالة والحقيقة. فما بهم ان يكون
 ما اوحى الى البطل هذا المثل الاسمي هي مجموعة
 الحوافات التي تقرا في كتب الفروسة؛ فلو عاش ضون
 يحوشي نفسه لحسب ذلك خلا مرواته. فلذا قد عاش
 خارج نفسه تماما قد عاش الامانة. لانا جسده كتخفيف
 ومائة النسر. منارة اشدا الشريعة المردة والسحرة اي
 مضطهدي الضعيف. ضون يحوشي لا يعرف للتناحية معنى
 ولا يفتر بنفسه ولا يسعر الا بالصحة وينظر ان الذات
 انه لرجل مؤمن يتقدم برباطة حاش نحو المثل الاعلى
 دون ان يلفت الاشبال ولا يمس. فلماذا هو صبور. ناصر
 اداته. حقير اللباس. لا يشعر بدافع بصره على طلب حاجياته
 سليم القلب ويملك نفسا حيازة سعة. وقد تظهر نحنونا
 ان الواقع يذوب ضامنه على حرارة الجاس فلذا
 نوههم قطعان الغنم فرسانا مدججين بالسلاح. وفي بعض
 الاحيان يبدو ضانه اقل من الوسط. رجل عادي نظرا
 لهفته في مواضع الشفقة او الفرح وسبب هذا لانه يصعب
 عليه خاصة ان يقفز سريعا من امر الى آخر. انه لشبيه
 بالشجرة المسنة التي لا تسمح جذورها بحقلها من مضائها.

ومتى كون ضون كبخوطي فكرة عن امر ما يستحيل ان يغير
 رأيه. ورسوخ اعماله الاخلاقية بكسب افكاره قوة وجلالة
 صما يكسب عباراته التضحية بالذات بفتى النظر عن
 المواقف المضحكة التي يقفها في كل آن وحين.

ضون كبخوطي رجل فقير الحال وفقره يكاد يكون
 مدقعا موارده محدودة وعائلته قليلة انه لشيخ يعيش
 دون معين وثا ضان عبد نفسه فانها امر اصلاح الامور
 المعوجة والدفاع عن المضطهدين لمرانة هذه الامور في
 نظره فما ان يهسه لو ان فائحة اعماله الفروسية انزلت
 على رأس بري اراد الدفاع عنه مصمتين بدلا من واحدة
 وهكذا كان فعند ما يخلص لاندس من القصاص الذي
 فرضه عليه خوان غلدودو لم يبر بئاله انه منى ذهب
 سيضاعف السيد قصاص القبي ولا يترك في نفسه انرا
 قيامه بهاجمة متاحن هوانية مفيدة بدلا من مرده جبابرة
 وقد يطرب القاري العادي ويصفق لما هو مضحك في
 الكتاب لا للمعنى العميق الذي يتضمنه وان كان ايمان
 ضون كبخوطي وسذاجته بقودان الابتسامة طائفة صاغرة
 الا اثنا تتسائل: من ياترى في وسعه ان يؤخذ بعد ان

نفحص ضميره فحضا دقيقا انه دائما وابدا قد توفق الى تمييز طست الخلاق من خوذة مبريتوية...

ولئن قبل سانشو بنشا بولونيو لابدى الاول ناحية مختلفة كل الاختلاف عن الثاني يضحك سانشو من سيده ويعلم انه خجون الا انه يترك بلدته وعائلته سرتين ليلتحق به متحملا منه كل انواع الازعاج ويظهر مخلصا امينا حتى ساعة احتضار ضون كيخوتي وله به ثقة عمياء ويكي على اقدام السرير الذي اسلم فوقه الروح سيده ولا ينبغي لنا ان نبحث عن هذه الثقة العمياء في المنفعة لان سانشو رجل بحسن وضع الامور في اماكنها ويعرف ان ضون كيخوتي لن يلتقى سوى الكمات وعصواته ولكن امر هذه الثقة بخضع لهدف انسى وهذا الهدف هو ما يتكون عند العامة لدى اعتناقهم قضية مشرفة عادلة اعتناقا اعمى ولسانتشو مواضع على اخرى كنهسمه لكل ما هو سام وكبير حتى لينسى كل ما يهمه وهذا يعنى سميانه لكل ما هو ضروري... ضون كيخوتي يحب وتبويته آتسة خيالية اسمها دولثينايا دلتوبوسو وعلى مذبح حبها يقدم دائما وابدا

حياته قربانا وعند ما برى نفسه مغلوبا ونضبط عليه
ركبة قاهره، يصيح: دولتيينايا دلتوبوسو اجمل امرأة
في العالم وانا انعس فارس على سطح الارض. فليس من
المروءة ان يغيب وهني هذه الحقيقة. لزاياها فارس بالرمح
وانزع مني الحياة ما دمت قد جردتني من الشرف.
المشا' الرحالة الشهير بحب وحمه علوي مظهر لدرجة
لايتك معها قط بعدم وجود مدلول حبه وعند ما تحيئه
محبوبته وقد تحولت الى فلاحه قدرة، لا يصدق ما تراه
عينه ويؤكد ان ذلك التحول انما هو من عمل الساحر
الشرير. ولقد شاهدنا كذلك في الحياة اخر من رجلين
بضحيان بحياتهما من اجل دولتيينايا الخيالية ومن اجل
شيء كبير في معتقدهم عظيم وجميل وعند ما اضمحلت
اوهامهم واصطدموا بالحقيقة عجزوا ذلك التحويل الى
الاشرار والى الكوارث بل والى السحرة.

وقال احد اللوردات الانكليز ان ضون كيخوطي
انموذج الشهما' ولئن كانت الاداب الرزينة والبساطة
من حلي الرجل المؤدب ضون كيخوطي اول من
يستحق هذا اللقب.

يعرف ضون كيخوطي كيف يحترم كافة المؤسسات الدينية، طبقة الاشراف، الملكية وفي نفس الوقت يتوق الى الحرية ويعترف بحرية امثاله من بني البشر.

٢٠٩

وجهت الى سرفانطيس عدة انتقادات لضررة العصوات واللكبات التي جعلها تنهال على شائق النطل المشاء، واما في الجزء الثاني من الكتاب فلا يضرب قط الا انه في آخره بعد ان يقهره الفارس ذو الهلال الابيض ويحمله قسرا على التخلي عن مهنته، وقبل ان يموت بقليل، يجعله عرضة لان تدوسه الخنازير فهذا المشهد دفع الكثيرين الى توجيه انتقادات مرة الى سرفانطيس وانهموه بنكرار سحريات سابقة الا ان الانتقادات في غير محلها نظرا لكون هذا المشهد يلقي نورا موضحا على عبقرية الموقفة كل النوفيق اذ انه يتم عن معنى عميق وهوان امثال الكيخوطي يداسون بالاقدام وغالبا ما يكون ذلك في آخر عهدهم. وما هذا سوى ضريبة الامفر لاصحاب الرسالة من دفعها الى الغريزة الغضة الى ذلك الجمهور الجاهل الذي لا يفهم ويبست وكان الامر لايغنيه هذه هي صفقة الغريسي التي بعد ان يذوق طعمها الصيخوطيون

يمكنهم ان يموتوا مطمئنين لمروهم في البوثقة وخروجهم
 منها طاهرين مطهرين ثم يفتح الخلود آفاقه امام عيونهم...
 هملت وضون كيخوطي يونان ميتة مؤلمة ولعن
 كم من فارق بين الاول والثاني في الاخير! ان الكلمات
 الاخيرة التي ينطق بها هملت جميلة وبديعة يتدلل
 ويطمئن ثم يطلب الى هوراسيو الامين ان يعيش ويكون
 حليفا لغورنمبرس ولكن نظره لاكتشف المستقبل: «وكل
 ما عدا ذلك فسكون» بقول عند الوفاة شاعرا ثم يسكت
 الى الابد. واما نهاية ضون كيخوطي فتغمر النفس شعورا
 غضا وعندئذ فقط تظهر للجميع عظمة نفسه. وعند ما
 يقول له حامل درعه معزيا ان اسعد نشاطك ونخرج
 حالا في طلب المجازفات يجيبه المحتضر: «رويدا رويدا»
 ليس لعصافير اليوم ان تسكن في اعشاش الامس. قد
 كنت مجنونا واصبحت عاقلا ضنت ضون كيخوطي دي
 لامانتشا وانا الان كما قلت: الونصو كيخانو الصالح.
 وهي كلمات مفاجئة وهذا الاسم الذي نطق به للمرة الاولى
 والوحيدة يؤثّر عظيم التأثير. اجل هذه هي الكلمة الوحيدة
 التي لها قيمة امام الموت وما عداها فعبثا يمر: الالقاب، السلطة
 والعبقريّة التي ترى كل شيء كل هذا يعود ترابا وكل

عظيم على الارض يتبخر ثم يضمحل كالدخان الا
الاعمال الصالحة فهي التي تدوم وتدوم اكثر من الجبال.
ولقد قال بولس الرسول ان كل شئ يضمحل ولا يبقى
سوى الحب.



واعتنى النقاد البرتغاليون والامان والفرنساويون
عناية خاصة بدراسة كتاب سرفانتيس من الوجهة
النفسانية واثنوا على عبقرية المؤلف كما اثنى عليها
منفذت اي بلايو والناقد الروسي وغيرهما.
ونكتفي بهذا القدر عن الكيخوتي لننتقل الى
دراسة المؤلفات التي انفجها سرفانتيس في المرحلة الاخيرة
من نشاطه الادبي المنصر.



القصص المثالية

صدرت هذه المجموعة من مدريد سنة 1613 وفي مقدمتها بعد ان بلغ المؤلف الى اصابته في معركة ليبانطو التي قال فيها انها اعظم واسمى فرقة اتبع للاجيال المتقدمة رؤيتها ولن نعلم الاجيال المقبلة بمشاهدة مثلها، بنوه بصيغة مؤلفه الاخلاقية في هذه العبارات: لقد خلعت على هذه القصص اسم الامثال ولئن نظرت اليها مليا لما وجدت واحدة حلت من مثال ذي فائدة... ولئن مر في خلدي ان قراءة هذه القصص قد تفسح المجال لمن طالعها لاثارة رغبة باحثة او ايقاظ فطنة سافلة لسكنت افضل قطع المد التي كتبها بها قبل ان اطلع بها على الجمهور... ثم تعد تسمح لي سني بالاستهتار بالحياة الاخرى..

ان هذه الاحتيالات الاخلاقية صادقة في الجملة ولو تعذر امر قبولها بنصها وفتحها في رواية «الزواج الخادع» ولا بصورة من الصور في روايتي: «رنكوتتي» و«كورتلاديو» و«اضاف سرفانتيس حاشية الى قوله هي عين الصواب

الذي لا يزاره فيه منازع فقال: «وانا أول من كتب الروايات القصصية باللغة الأسبانية».

وأما هذه الروايات فيمكن أن تقسم إلى أربعة أنواع: أولاً - التي هي من ابتكاره الحرف وعلى طراز النمط الإيطالي وهي أعز رواياته وأقلها قيمة ومنها: «المحب المهتك» «قوة الدم» و«السيدة ضورثاليه».

ثانياً - يدخل في هذا القسم الروايات التي يستطيع فيها الطعم الواقعي والتي تتميز من البلاط الإيطالي وتنضوي تحت لوائها الروايات الأثيرة: «الفجيرة الصغيرة» «الأسبانية الأنكليزية» و«الفنانان».

ثالثاً - تنتمي إلى هذا القسم الروايات ذات الحقيقة الواقعية والتي نثر فيها الحواسي التعريضية وهي من أفضل الروايات إذ فيها بضاً سرفانطيس حقلاً خامساً به وهو سيد لايجاري في هذا المضمار. ومن هذه الروايات: «رنكوشتي وكورناديو» و«الماسحة النيلة» و«الزواج الخادع» و«الغيور الاسترمانى».

رابعاً - ينضم إلى هذا القسم مؤلفان غربيان ليسا من الروايات كما يفهم من كلمة رواية غير أن قيمتهما عظيمة فائقة وهما: «التخرج فيديرا» و«مناجاة الكلاب».

الحب المتهتك

من اهم ما بلغت النظر في هذه الرواية وصف
التعاسة والاضطراب والخيانة التي يستهدف لها الاسارى
في الجزائر

يعود سرفانتيس في هذه الرواية وفي الاسبانية
الانكليزية وفي تاريخ الاسير في الكيخوطي الى استخراج
مشاهد الاسر التي نذوق طعمها هو نفسه.
فالحب المتهتك من اضعف رواياته واقلها قيمة.

العجربة الصغيرة

«برنيوسا مدربة على الرقص والغنا وغير ذلك من
الفنون العجربة، امتلكت القلوب وسحرت الالباب بخفة
دمها وجواباتها السريعة الحاذقة، يكلف بها ضون خوان
دي كركمو، وهو فارس شاب، ويرضى بالسرطان الذي تفرضه
عليه لتصدق حبه لها وهو ان يترك والديه وثروته
ويتخلى عن مقامه الاجتماعي ويلحق بها ويشاطر حبيبتها
حياتها التائهة مدة معينة فيتخذ اسم اندرس كيارو عوضا
عن اسمه الاول يلقي عصا الترحال في مكان بالقرب
من مرسية حيث تكلف الفتاة خوانا كردوتشا ابنة صاحبة
الفندق كلفا يكاد يكون جنونا بالغجري الكاذب»

فتبوح له بلواتج غرامها وتطلب اليه ملحة ان يتزوج منها متن وتضم هي على الانتقام منه لاذرافه اياها فتتهمه بالسرقة وعند ما يلقي القبض عليه يشتبه ابن رئيس بلدية ذلك المكان فيقتله اندرس ويذهب وكافة الفجر الى سجن مرسية حيث يتضح امر برثيوسا فاذا بها ابنة حاكم اثيفيدو وكانت قد خطفتها وهي حديثة السن الفجرية العجوز التي نعهدنها وعلمتها ضروب الرقص. واخيرا يتضح كذلك امر اندرس كسيارو (اي خوان دركمو) فيزوج من برثيوسا كما يزوج مناسيس من ضونيا كونستانتا دي اثيفيدو.

اشار السنيور ايكانا الى مقطع في «مناجاة الكلاب» يتحدث عن اصل الكوندي المزوم بين النور وهو الحادث الذي سببه سرفانطيس في قالب روائي في الفجرية الصغيرة.

واما البيئة والصفات في الفجرية الصغيرة فتنتهي الى المثل الاعلى اتما قاطعا وهذا ما يدينها نوعا من طراز «لاغالاطيه» وغيرها من الروايات المختصة بالرعيان ولشخصية برثيوسا شبهات في «طرسيانا» من كتاب

ابولونيوس وفي بطرانوالو، اُقيمونيدا وعند بعضهم في «لا
اسيرالدا دي نوتر دام دي باريس» ليفيكتور هيفو.
الاسبانية الانكليزية

ابرز نواحي هذه الرواية وصف البلاط الانكليزي
والموضة وكون المؤلف نعد انهار الميول المتتالية المحنة
وذلك من جعله حب ريكردو لانريالا يدوم بعد ان
ذوى جمال جسدها. ففي هذه الرواية بزغت شمس
سرفانتيس كوصاف للمرحلات البحرية كما ظهرت شخصيته
الفذة ممثلة في الأشخاص

الفتاتان

فتاتان متحلتان بصفات حميدة، تغادران منزل
والديهما بلباس الرجال وتنجسان الاخطار والاهوال
للالتحاق بالرجلين اللذين علق في سراضهما قلب كل
واحدة منهما ثم تعودان بصحبة زوجيهما ولم تحيدا - في
كل هذا - قيد انملة عن ارفع درجات الرقة والرفعة
الحاليتين

رنكوتتي وكورخاديو

رنكوتون وكورخادو فيان شريدان شمر الاول خمس
عشرة سنة والثاني ست عشرة سنة يلتقيان ذات يوم من ايام

الصبي في فندق محلة مولينو. كلاهما خريف
 في ثياب رثة، بلعان الورق مع أكار فيفشانه ويربحان
 قدرا من النقود. ثم يصلان اسبيلية حيث يتصلان بحمالة
 القفف فينضمان الى هذه المهنة ويدخلان في خدمة خالب
 وجندي فيخطفان محفظة نقود الاول وينعرفان الى فتى
 آخر من حملة القفف اسمه غتسوانو فينصحهما ان يقدموا
 دار مونيوديوي رئيس اوباش اسبيلية ويسجلا اسميهما
 ويحضر الى تلك الدار لصوص آخرون بعضهم لا يقترف
 دنبا ولا يسرق بهار الجمعة ثم يظهر مونيوديوي وهو طويل
 القامة اسمر الوجه مقرون الحاجبين اسود النحية غافر
 العينين. اسوأ واغلظ حلاق في العالم. يخبر وينصح
 ويقبل في المدرسة الاجرامية دخول رنكون وكورطادو
 وينذر احد الجواسيس بقدوم مامور السلسلة فيسكن
 مونيوديوي روع الحاضرين طالما المأمور صديق جا ليأخذ
 كيس نقود مسروقا الامر الذي لم يكن في علم الزملا سابقا.
 ثم تدخل العرصة لاسيبوسا وقتاة اخرى من النساء المقاتلة
 وكلاهما صديقتا تشيكيتاكي ومنيفرو الزميلين البطولين
 الحاضرين تمة حيث اولوا وتظهر كاريهرطا وقد كست
 جسدها القرونت وهي تسكي من العصوة التي اذاقها

طعمها ربوليدو. فيوآسيها مونيبوديو وينصحها غير ان
 الشابة تصرح بحبها لربوليدو رغم السم العنوة وتقول
 بانها ذاهبة لتبحث عنه. ويراقب رنضونتي بعض الزملاء
 القداماء او اللذين يتجسسون لصلحة الجمعية ثم يصل
 ربوليدو وتحدث مشاجرات مع كاريهرطا والبطليين
 فيوق بينهم مونيبوديو الرزين فيقام احتفال ويرقصون
 ويعزفون وتغني غنشوسا وينشد معها الآخرون وتلمح
 كاريهرطا الى عصوتها بقولها:

رويدك ايها العضوب ولا تفرط في عصوتي
 اذ لو نظرت مليا لاتضح لك انك تفرع جسدك
 وهما يسرع احدهما يسأل فيما اذا كان قد طعن التاجر
 اربع عشرة طعنة في وجهه فيجيب تشيكيشناصي انه
 اضطر الى طعن الخادم لا السيد لضيق وجه هذا الأخير
 وعدم اتساعه لتحمل الطعنات المذكورة ثم يتشاجرون
 في شأن الاجور ويعود الرجل الى مطالبة التاجر فتسلمه
 سلسلة ذهبية ومن بعد تقرأ لائحة المطلوبات المفروغ
 منها والمدفوعات الى الجمعية المحترمة اي مذكرة الطعنات
 التي ينبغي ان تنفذ خلال هذا الاسبوع الخ.
 يوزع مونيبوديو على الجميع اربعين ريالاً ويعين حيا

لكل من رنكون ورفيقه، ثم يأتيهم الانذار بوصول
لوبيو المألقي الى اشيلية، الذي بورقة لعب مجرد رئيس
الابالسة من نقوده ويعلمون انهم سيعقدون الاحد القادم
مجلسا جديدا.

ان هذه الرواية تشكل لوحة فائقة الابداع من
حيث دقة الملاحظة واصابة اظهار الصفات الحقيقية الواقعية
لحياة اللصوص في اشيلية في السنوات الاخيرة من القرن
السادس عشر.

اجاد سرفانطيس كل الاجادة في وصف مونيوديوي
والاخلاق التي تنسب كلها الى الحياة المشريرة المطبوعة
بتحلي الاشخاص بطابع خاص ومغزى مجرد ولا سيما
مونيوديوي الذي جا' وكانه صورة من صور فلاثكث
او ريشة غويا.

ولقد ميز مندث اي تليو ببراخته الحارقة عدة
اساليب واخراجات في حقل الادب اللصوصي الاسباني
في ذلك الزمن في بحثه ووصفه لروح واخلاق رنكوتشي
فقال: «تجري في صفحات الرنكوتشي بهجة طافحة وسرور
منيروشي» مما يسمى بالغفران الجمالي الذي يظهر كل
ماهو بغيض واجرامي في القالب ومن غير ان يحس

الاخلاق يحول الى مشهد مسل وفكه وسقदार ما تختلف
طريقة مشاهدة وملاحظة حياة المصوم التي راقبها
سرفانتيس وسدد اليها نظره العلوي. ينوع أسلوبه الى
حد بعيد. ذلك الأسلوب الجري السهل في رنكوتسي
الجاف المعبر عند لاثاريو. الغط الخبيث المرير عند ماطيو
المان احد الكتاب البارزين المحققين الا انه يعد لكل
البعد عن سرفانتيس من حيث المعزى والمبنى حتى
ليظهر وضائه لم يكن من معاصريه ولا من اللذين
يقتربون منه او يمتنون اليه بصلة ادبية.

الماسحة النبيلة

شابان صديقان ضنون طوماس دي افندانو وضون
ديغو دي كرابانو بدلا من ان يذهبا الى طلمنكة ليتابعا
دراستهما، يذهبان الى فندق الاشيل في طليطلة حيث
يعتلف دي افندانو بكونسطنطين الحسناء، خادمة الفندق
ويطلب من صاحب الفندق ان يقبله في خدمته ولما كان
صديقه كرابانو ميالا لحياة التشرذ والمجازفات وكفي لا
يترك رفيقه يفتني حمرا وينعاطى مهنة السقاية ويتضح
امر الماسحة الجميلة ويعترف بها والدها. فاذا بها فتاة
نبيلة، ويتزوج الفنى المتخفى افندانو من الماسحة النبيلة.

لزوج الخادم

ضربها سرفانطيس كنوخنة مناجاة الكلاب .

الغشور الاسترمانى

درس عميق للنفسية السهوانية .

المشخرج فيديارا

الطالب علوماس روداها تنجند ويذهب الى ايطاليا
ثم يعود الى وطنه لمابعة دروسه القانونية . تصلف
به احدى السيدات واما لم يتبع فيديارا النداء قلبها التحات بنصيحة
امراة منحذرة من اهل اسلامى الى السمودة لضرب
ارادة من نهوى . يمرض فيديارا مرضا ادناه من الموت
وتهرب المرأة ثم يبل الا انه يصاب بالجنون ويخالف
نفسه من زجاج ويوصى الناس ان لا يسوه لئلا يتعظم
ومع هذا فهو دضى حاذق وأجوبة دامة . وبعد انقضاء
سنتين يعود الى رشده بفضل معالجة أحد الرهبان له
ويذهب الى فلندس .

تقتضى الإشارة الى ناحيتين خلفيتين في هذه الرواية
الاولى حياة الاسفار التى تهذب الرجال الرزنا . والثانية
الاجوبة الحاذقة وهذه أهم من الاولى لانها تكسب الرواية
ميزة خاصة الخ .

مناجاة الصلاب

يلاحظ في هذه الرواية الفريدة الغريبة البديعة عوامل معقدة متشبكة فكل صلب صفاته الخاصة : ففي برغنا الخيال وفي ثيبون الرزاة والوقار.

ولقد قال خصمه لوبي دي بيغا في هذه الروايات :
لم تنقص سرفانتيس الطرافة ولباقة الأسلوب ، وقال
عدوه اللدود افينادا في مقدمة الكيخوطي : ان هذه
الروايات لانتقادية أكثر منها مالية . واسمى طريودي
مولينا مؤلفها بوضايبو اسانبا .

وجاء في خطاب وجهه غوت الى شيلسر : ان هذه
الروايات انما هي كنز بهيج ثقافي تهذيبي ويمرّب
عن سروره لكون المؤلف الاسباني قد تنطرق الى نفس
المبادئ الفنية التي يعتمد عليها في انتاج مؤلفاته الخ .
تخسر في الروايات المثالية السواهد التاريخية العميمة
الفائدة التي تكشف التقاب عن تواءم ذلك الزمان ولا
غرابة في هذا نظراً لميول المؤلف الواقعية .

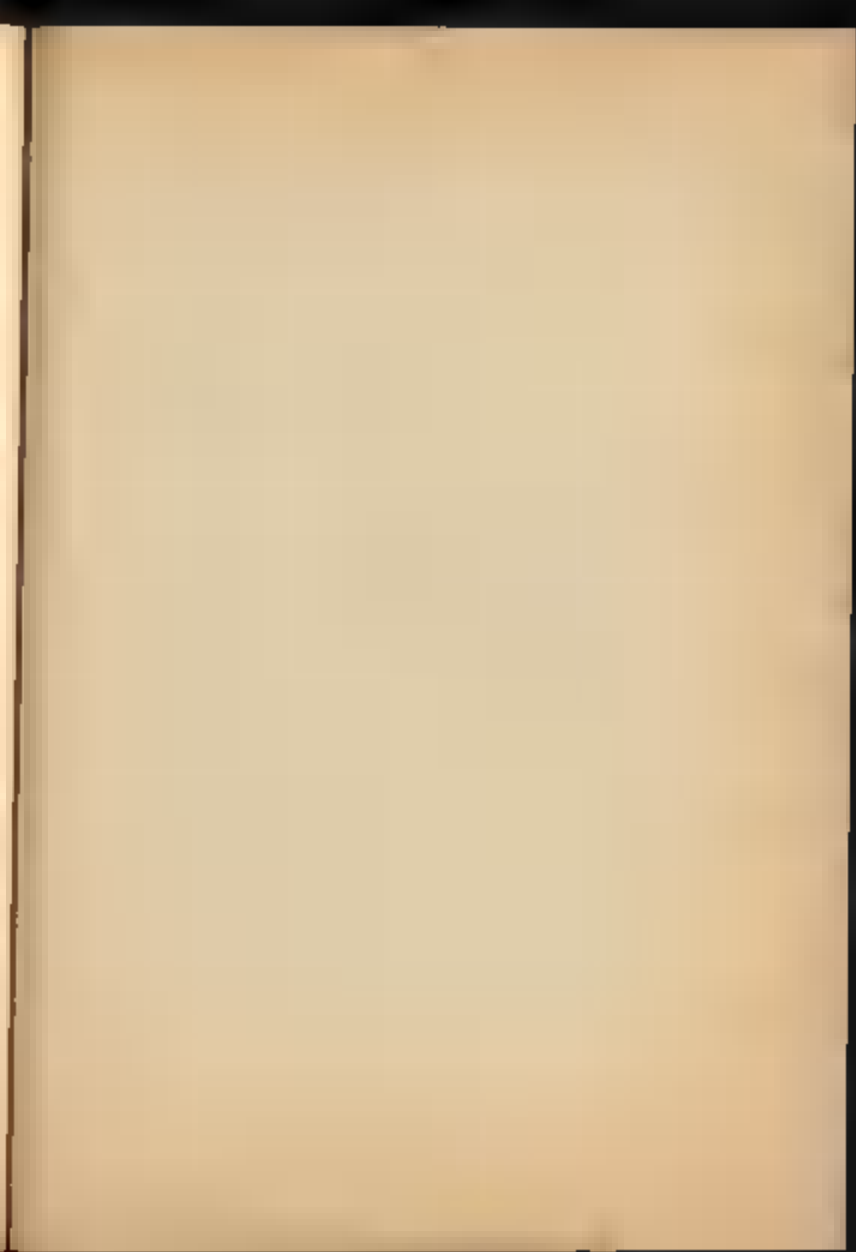
برسيلس

آخر مؤلفات سرفانتيس قدمه الى الكوندي دي
لاموس أربعة أيام قبل وفاته ويقول في المقدمة : رجل في

الركاب وفي صدرى غصة الموت... أمس أعطيت لي الاسعافات
الاخيرة واليوم أكتب هذه - الوقت ضيق والغصة تشد
والامل يقل ومع هذا تنازعتني رغبة البقاء وكم اود ان
ارجى هذا ريتسا أتمكن من تقبيل أقدام سعادتك.

واما البرسيلس فمقتبسة من الرواية البيزنطية
وتستطيع في نظر مؤلفها ان تضاهي هليودورو وقد تكون
أردأ أو أفضل ما ألف في نفسا واتسي المؤلفات المسلية.
وحقيقة الامر فالرواية لم تكن حسبما ارادها
سرفانتيس ان تضيئ فيها بعض حوادث حافلة بشرة
الفروسية ويوصف حياة الرعبان وتكرر فيها كذلك الخواشي
عن حياة سرفانتيس نفسه الا انها غامضة نوعا وقد
أثرت هذه الرواية في الادب الذي جاء بعدها.

(انتهى)



فهرس

صفحة

7 - مقدمة

11 - نوحلة

القسم الاول

17 - حياته

الفصل الاول

20 - ابن ولد سرفانتيس؟

22 - قلعة هنارس

24 - عائلة سرفانتيس

25 - في السيلية

28 - مدريد

30 - الانتصار الاول

32 - ايطاليا

33 - سرفانتيس جندي في جيش ايطاليا

37 - الخطر التركي - ليهانطو

41 - بعد المعركة

45 - سرفانتيس حريح - عودته الى الجيش

46 - سرفانتيس يعود الى الميدان الحربي

49 - في نابولي

52 - الرحيل

الفصل الثاني

59 - في الأسر

60 - الجزائر

65 - المحاولة الأولى

67 - مساعي عائلة سرفانتيس لافسكاذه من الأسر

70 - افندارو ودرغو - المحاولات الجديدة

75 - أمل بحبيب

82 - المحاولة الثالثة

88 - المحاولة الرابعة

96 - في طريق الحرية

99 - سرفانتيس يجمع اليمينات على نيل نصرفه

في الأسر

الفصل الثالث

104 - سرفانتيس يظاً تراب الوطن

106 - في مدريد

- 110 - في البرغال - اسناد مهمة سرقة الى سرفانتيس
 114 - العودة الى مدريد
 116 - زواج سرفانتيس
 118 - سرفانتيس ينصرف الى المسرح
 121 - سرفانتيس يعود الى اسبانيا
 123 - سرفانتيس يعين مفوضا لشؤون الجيش
 129 - سرفانتيس يحلم بامرضا
 134 - تودته الى مفوضه السجون
 136 - سرفانتيس في السجن
 143 - في اسبانيا
 147 - استورة ارغاماسا

الفصل الرابع

- 152 - سرفانتيس في بلد الوايد
 156 - في اسبانيا
 159 - ظهور الصحراوي
 160 - دشوى اسبانيا
 165 - سرفانتيس يستقر في مدريد
 170 - سرفانتيس يستوف لزيارة نابولي

- 171 - سرفانطيس يشترك بمباراة شعريّة
 176 - صدمة جديدة - انهاء القسم الثاني من
 ضنون صنيخوولى
 178 - المرحلة الأخيرة - مرضه ووفاته

القسم الثانى

183 - مؤلفاته

الفصل الاول

- 186 - ظهور سرفانطيس في «تكاك»
 187 - لاعلاخنية

الفصل الثانى

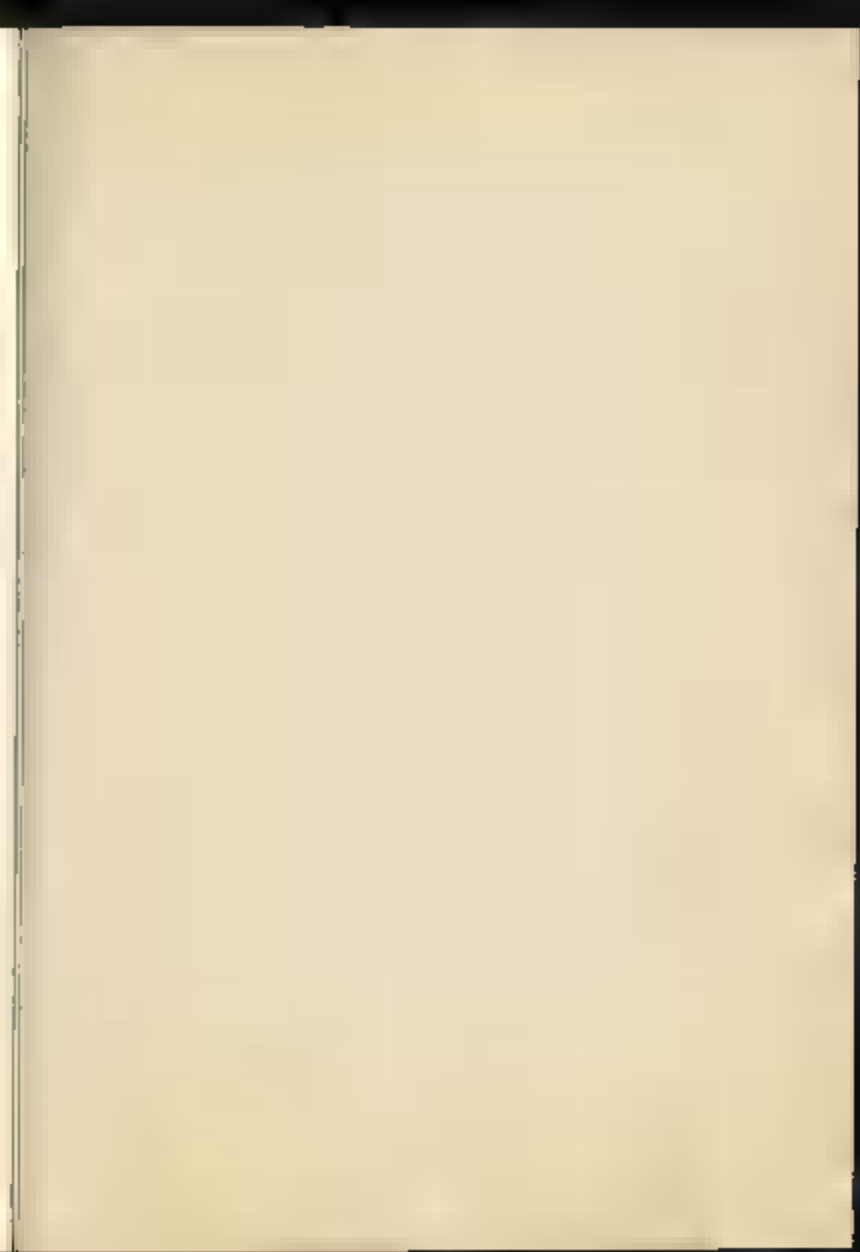
197 - شاعريّة سرفانطيس

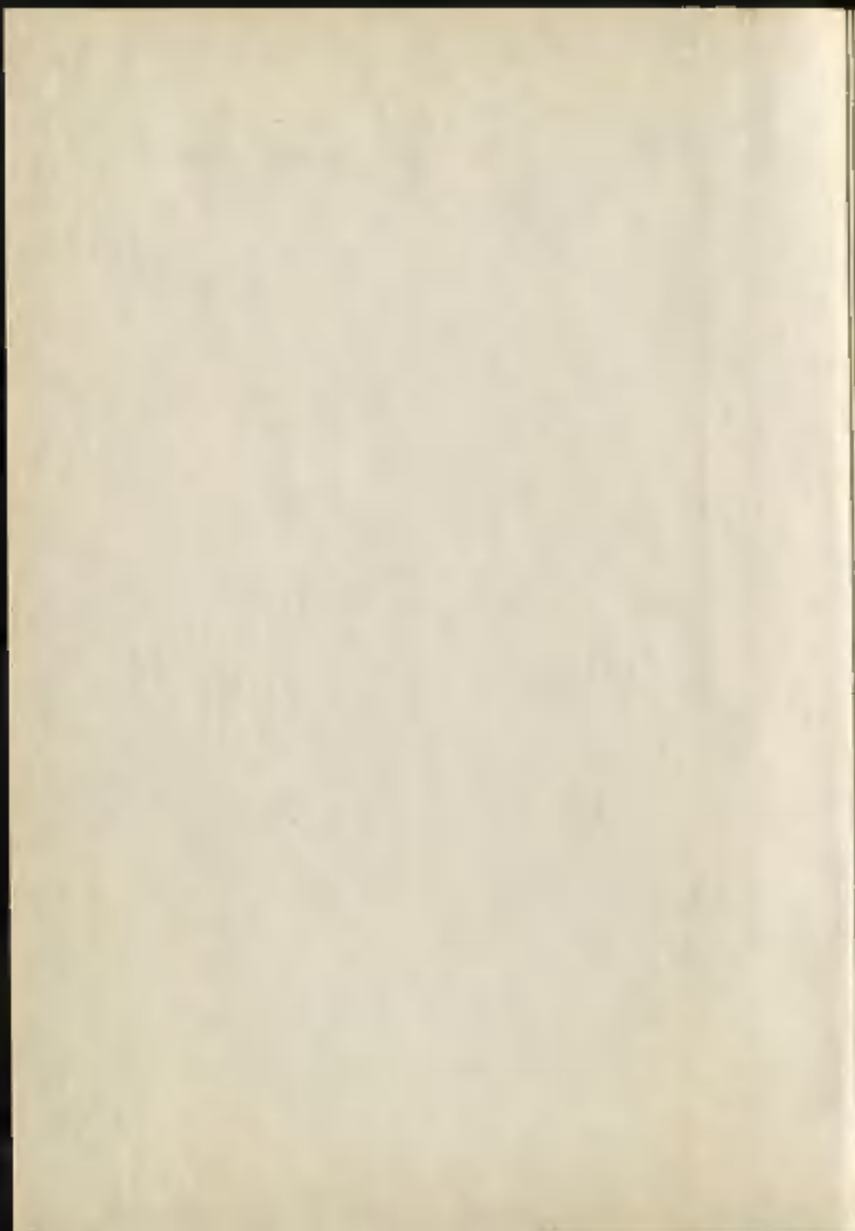
الفصل الثالث

- 204 - مسرحيات سرفانطيس
 207 - معاملات الجزائر
 209 - حمامات الجزائر
 210 - السلطنة العظيمة
 212 - بدرودى اوردمالس - العمل السعيد

- 218 - نومانيا
- 222 - المسرحيات القصيرة
- 221 - المؤلفات المنسوبة إلى سرفانتيس
- الفصل الرابع
- 228 - ضون كيبخوطي
- 232 - I ظهور الكيبخوطي وقت خروج الشمس
- رواية الفروسيه الى العروب
- 233 - II نجاح ضباب سرفانتيس - تبوعه في
- اسبانيا والخارج - فتية جس النفس - بعض
- التفريعات التي زعمت اكتشافها في الكيبخوطي
- 266 - III اجبر شراجه - منرحموه - صورته الفنية
- 291 - IV موضوع الكيبخوطي
- 311 - V اشخاصه
- 322 - VI روايا الكيبخوطي - الفضولي الممل
- والاسير
- 327 - VII تقليدات الكيبخوطي
- 334 - VIII ضون كيبخوطي في المسرح

IX -	المصاحفة وضمون كيوخوطي	339
X -	الميوخوطي والنقد الوطني والاجنبي	341
	القصص المتألية	358
	در سبلس	368
	فهرس	371





86C33

BM4

86C33

BM4

Mulham

Sirfantis.

Aug 15 1943

BINDER

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



1000368237